الأدب القبطي

قديماً وحديثاً

تأليف

محمد سيّد كيلاني

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

الكتاب: الأدب القبطي.. قديماً وحديثاً

الكاتب: محمد سيّد كيلاني

الطبعة: ٢٠٢٠

صدرت الطبعة الأولى عام١٩٦٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

كيلاني، محمد سيّد

الأدب القبطي.. قديماً وحديثاً / محمد سيّد كيلاني

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٧٤ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٨٦ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٥١٧٥ / ٢٠٢٠

الأدب القبطي

قديماً وحديثاً





المقدمة

هذا أول كتاب عن الأدب القبطي يحتوي على دراسة مركزة للأدب المتعلق بالشئون القبطية، والذي يصور حالة الأقباط النفسية، وحركاتهم الاجتماعية، وميولهم السياسية، وأتجاهاتهم الفكرية، وخصوماتهم الطائفية، ونزعاتهم العاطفية، وأمانيهم الوطنية، ومشاعرهم القومية، وفخرهم بالأمجاد الفرعونية.

ولم أغفل دراسة آدابهم الدينية التي تزخر بآرائهم المسيحية، وعقائدهم اللاهوتية دراسة أدبية خالصة بعيدة عن المنافشة والجدل. فليس هذا كتاب دين، وإنما هو كتاب أدب.

ومن الغريب أن الأقباط المعاصرين يجهلون أادب أجدادهم جهلاً تاماً. ولا يكاد المتعلمون منهم يحفظون شيئاً من شعر شعرائهم. وكان لهذا الجحود الذي لاقاه أدباء الأقباط من أبناء طائفتهم أثره في نفوسهم، فأهملوا نتاجهم الأدبي حتى عبثت به يد النسيان أو كادت، فلم يهتموا بجمع شعرهم ونثرهم. وقد ترتب على هذه صعوبة كبرى تعترض سبيل الباحث في الأدب القبطي. وصعوبة أكبر من الوقوف على تراجم شعرائهم وكتابهم، وتواريخ ميلادهم ووفاتهم.

وحينما درسنا الأدب المصري العام أهملنا دراسة الأدب القبطي إهمالاً تاماً. ولذلك جاءت دراستنا ناقصة فضلاً عما وقع فيها من خطأ في الحكم، وسوء في الفهم، وفساد في الإستنتاج، وبعد عن الصواب في دراستنا لبعض الظواهر.

فنجد الكتاب حينما يعرضون لشعر أحمد شوقي؛ ويلاحظون ورود كلمات مسيحية فيه مثل: الكنيسة، والدير، والصومعة، والبيعة، والرهبنة، والإنجيل ، والتوراة، والمسيح، والعذراء، والبتول وغير ذلك؛ يحكمون حكم الواثق المطمئن لما يقول؛ بأن ورود هذه الكلمات في شعر أحمد شوقي إنما هو أثر من آثار أصله اليوناني المسيحي. وهذا خطأ لا شك فيه. فأحمد شوقي كغيره من شعراء عصره أتخذ شهره وسيلة للدعوة إلى الأتحاد بين عنصري الأمة، ونبذ الخلاف الديني. ولم ينفرد أحمد شوقي بهذه الظاهرة، بل إننا نجدها عند عبدالرحمن شكري، وأحمد محرم، وأحمد نسيم، وغيرهم من شعراء المسلمين.

أما النقص في دراسة أدبنا السياسي فواضح كل الوضوح، لأن أدب الأكثرية الإسلامية كان يختلف أختلافاً تاماً قبل سنة ١٩١٩ عن أدب الأقلية القبطية، كما يتبين ذلك مما جاء في البابين الثالث والسادس من هذا الكتاب.

ولما فكرت في الكتابة عن موضوع الأدب القبطي وضعت نصب عيني أستهداف الحقائق التاريخية لذاتها، وتسجيل المعارك الأدبية

تسجيلاً راعيت فيه الأمانة والدقة. ولم أدخر في ذلك وسعاً، بل بذلت ما في أستطاعتي لإعطاء القاريء صورة واضحة حقيقية للأدب القبطي.

وقد كان تناول هذا الموضوع من بعض نواحيه شائكاً فيما مضى. وأما اليوم فقد تغيرت الأفكار، وتثقفت العقول، وتهذبت النفوس، وأستقرت العدالة الاجتماعية ومدت لواءها على جميع أبناء الأمة دون استثناء، وأصبح الناس يعيشون في ظل الإخاء والمساواة؛ لا فرق بين مسلم وقبطي، فالوطن للمجميع. لذلك لم أجد بأساً في تسجيل هذه الصور والخصومات الأدبية قياماً بواجبنا نحو التاريخ، وللتاريخ علينا حقوق ينبغي ألا نتهاون فيها أو نتجاهلها. فعسى أن ينتفع القراء بهذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

محمد سيد كيلاني

القاهرة في أول يناير سنة ١٩٦٢



الباب الأول

الأدب القبطي

من بدء ظهوره إلى نهاية العصر العثماني

في سنة ٨٥هـ– ٧٠٥ م صدر قرار بنقل الدواوين من اللغة القبطية إلى اللغة العربية. وبذلك أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية في المعاملات الحكومية. فأخذ الأقباط يهملون بالتدريج دراسة اللغتين اليونانية والقبطية، ويقبلون على تعلم اللغة العربية، ودراسة آدابها.

وقد بدأ الأقباط يؤلفون الكتب باللغة العربية في القرن الثالث الهجري. وفي هذا الوقت لم تكن حركة التأليف في مصر الإسلامية قد بدأت على نطاق واسع. بل إن الكتب التي وضعت في القرن الثالث لا تكاد تذكر.

وأول من ألف من الأقباط: سعيد بن بطريق المتطبب(٢٦١–٣٢٨هـ) فوضع كتاباً اسمه «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» ويعرف بسير الآباء البطارة، وبتاريخ ابن بطريق. ولا شك في أن إقبال الأقباط على التأليف باللغة العربية في هذا الوقت يدل على أن اللغة القبطية قد بدأت في الإضمحلال.

وتدل مقدمة [1] هذا الكتاب على تمكن ابن بطريق من اللغة العربية، وإلمامه بالكتابة الفنية. قال:

«ألهمكَ اللهُ يا أخي من الأمور البهِيَّة أحسنها وأوفقها. وصرف عنك من المحزناتِ الرديئة أعظمها وأوبقها [2]. وجَلَكَ من السَّتر أعمَّه، وأدام لك من العز أعظمه. وأفاد في الدارين سهمك، وفي الحالين قِسْمك. وفهمك جميع ما يُرضيه، ولا أفرزك [3] من حوله بما تستقصيه».

«فهمتُ ما أمرت برسمه لك؛ أسعدك الله بلبوس الفضيلة، وطهرك من التَّردِّي بأطمار[4] الرذيلة؛ في معرفة التواريخ الكلية من عهد آدم إلى سِنِيِّ الهجرة الإسلامية وبرهنتُ ذلك على مَمَرِّ الشهور والدهور والأعوام، لتستغنى بمعرفته عن سؤالك الخاصِّ والعامِّ. ورسمت لك أنهج الله أفسح السبل إلى السعادة وعرَّفك في كل حين أبلغ العلم والإفادة؛ رسما وأنموذجاً وَكِيداً، وجعلته مختصراً مفيداً. وبقدر ما رأيته مشاكلا لعلو نفسك الشريفة، ومطابقاً لذكاء فطنتك العالية المنيفة من الإيجاز والتقربب مما جمعته من التوراة والإنجيل، وباقي الكتب القديمة والمحدَثَة، وضمنته كتابي هذا، وجعلته أخْيرَ مطلباً، وأصدق مذهباً».

---

(١) طبع الآباء اليسوعيين_ بيروت سنة ١٩٠٦.

(٢) وبق، كوعد ووجل وورث، وبوقا وموبقا: ملك.

(٣) الصواب: فرزك وهي بعنى عزلك وأبعدك وقطعك.

(٤) أطمار: جمع طمر، وهو الثوب البالي.

«قال سعيد بن بطريق المتطبب: أول ما نبتديء به حمدُ الله ربَّنا وبارينا، وخالقنا ومحيينا، جل ثناؤه؛ إذ كان حمدُه – تقديس اسمه– مفتاحاً لجميع الكتب والرسائل ونسأله– عز وجل– العونَ لنا على ذلك بجميل عاداته والمجد لله أهلِ المجدِ ووليِّه، والرَّاجي به شكراً من عباده. مقَدَّرِ الأشياء من قبل كونها، ومدبَّرها من بعد حدوثها، الذي جعل الرحمة والعدل من سُنن الحق، وأمر بهما، وجعل الفسق والجور من سبيل الباطل ونهى عنهما، الذي لم يجبر عباده على فعل يتجاوز وُسعَهم، ولم يقدَّر على خلقه عملاً تضعف عنه طاقتهم. بل جعلهم لأفعالهم مختارين ولأعمالهم مدبّرين».

«فالحمد لله المنفرد بالوحدانية، فهو– عز وجلَّ– بجوهره الأبدي، وحكمته القديمة، وحياته الأزلية؛ مستحقٌّ الحمد والثناء، ومستوجب المجد والسناء. وإياه أسأل، وإليه أرغب في خلوص نِّياتنا لقبول ما يرضيه، وصرف طويِّاتنا إلى ما يعود إلى العمل بطاعته، ويُكسبُنا التقرُّب منه برأفته».

«أما بعد، فإن كل من لم يكن له معرفة بأصل علم من العلوم التي يريد أن يتكلم فيها لينتج منه نتيجة ما يريده، وكانت معرفته أيضاً إنما هي فرع لذلك العلم، لا عن أصل يرجع إليه؛ كان كلامه وإنتاجه هذَراً وهذَيانا، وصار تعبه وعناؤه في ذلك هزلاً ولعباً».

«وقد ضرب سيدنا ومخلصنا في إنجيله المقدس مثالاً فقال: من بنى داره على الرمل؛ فأحقر ريح تمرُّ بها تسقطها، ولا سيلان الماء يهلكها».

فأول ما نلاحظ في هذه المقدمة إطاله التحميد والدعاء على نحو ما جاء في أساليب المسلمين. والحرص على السجع إلا فيما ندر. وأستخدام الجناس، والأستشهاد بأقوال الإنجيل. وأستخدام مصطلحات إسلامية مثل: عز وجل، والمنفرد بالوحدانية.

كما أنه سجل مصطلحات مسيحية ما زالت تجري على ألسنة المسيحيين حتى اليوم مثل: تقدس اسمه، وأفرزك، والمجد لله أهل المجد، سيدنا ومخلصنا، وإنجيله المقدس، وغير ذلك.

كما أن هذه المقدمة تضمنت إشارات فلسفية واعتقادات دينية، مثل قوله: «مقدر الأشياء من قبل كونها، ومدبرها من بعد حدوثها. الذي لم يجبر عباده على فعل يتجاوز وُسعهم، ولم يقدِّر على خلقه عملاً تضعف عنه طاقتهم بل جعلهم لأفعاله مختارين، ولأعمالهم مدبرين» فهنا ترى مبدأ الأختيار وحرية الإرادة. وأن الله لا يكلف عباده فوق ملا يطيقون، ولعل تأثر بآية ٢٨٥ من سورة البقرة وهي «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» فإن عبارته تكاد تكون اقتباساً لهذه الآية.

اشتمل كتاب ابن بطريق على تاريخ مفصل لظهور الديانة المسيحية، والمجامع الكنسية، والاختلافات المذهبية. وتكلن بالتفصيل

عن تاريخ بطاركة الإسكندرية والخمس مدن الغربية، وتاريخ أقباط مصر منذ الفتح العربي إلى سنة ٣٢١ هـ وهي السنة التي عين فيها بطريركا على مدينة الإسكندرية.

وأسلوبه في كتابه هذا التاريخ لا أثر للتكيف فيه، فهو فيما عدا المقدمة التي مرت بنا لم يستخدم إلا أسلوباً يسهل على كل أحد، وذلك ليكون في متناول الجميع. ومن العجيب أننا نجد كثيراً من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية. ولا ندري كيف صدر هذا من ابن بطريق مع أن أسلوبه في المقدمة يدل على تمكنه من اللغة ونحوها. فلا يبعد أن تكون هذه الأخطاء نتيجة لجهل النساخ. وعلى كل حال فهذا الكتاب وثيقة لا غنى عنها في دراسة اللهجة المصرية في ذلك العصر.

وقد أعتمد عليه بعض مؤرخي المسلمين فيما كتبوه عن الدولة الرومانية الشرقية، كما أعتمد عليه بعض كتاب المسلمين وبخاصة ابن تيمية فيما كتبوه في الرد على النصارى.

كان ابن بطريق معاصراً لمحمد بن طفج الأخشيد. وفي أيام توليه بطريركا حدث بين المسيحيين انشقاق كبير بسبب الأوقاف وطمع بعضهم فيها. ومات سنة ٣٢٨ هـ بعد أن ظل في منصب البطريركية ما يقرب من ثمانية أعوام.

وله كتاب اسمه «الجدال بين المخالف والنصراني» أشار [1] إليه في تاريخه، وقال إنه صحح فيه مذهب الملكية ورد على من خالفه.

ثم جاء بعده يحيى بن سعيد الأنطاكي الذي أقام بالقاهرة مدة طويلة. فوضع ليلاً على كتاب ابن بطريق أنتهى فيه إلى سنة **٤٢٥** هـ أي في عهد الظاهر لإعزاو دين الله الفاطمي. وكان يحيى معاصراً للفترة التي أرخ لها. ثم غادر مصر سنة **٥٠٤** إلى أنطاكية وهناك عكف على إعادة تحرير الذيل واستيفاء ما به من أوجه النقص.

وقد أمتاز الأصل والذيل باحتوائهما على أخبار كثيرة عن الدولة الرومانية الشرقية، وما وقع بينهما وبين المسلمين من حروب.

***

وفي عصر الدولة الفاطمية ظهر أدباء مسيحيون كثيرون ولكنهم كانوا يسارعون إلى اعتناق الدين الإسلامي ليظفروا بالوظائف الكبرى في ديوان الإنشاء وغيره من دواوين الحكومة. ويؤلفون الكتب الإسلامية تقرباً من الحكام وتأكيداً لإسلامهم.

وقد حدث في أواخر أيام الدولة الفاطمية؛ حينما أحتل أسد الدين شيركوه مصر أن ضيق على النصارى وألزمهم بشد الزنانير على أوساطهم ومنعهم من إرخاء عذبات العمائم وكانوا يرخونها تشبها بالمسلمين. وقد

---

(1) ص ١٧٦.

أستاء النصارى من هذه الأوامر، وعبر عن استيائهم الشاعر النصراني زكريا بن أبي المليح مماتي، فتب رقعة رفعها إلى أسد الدين وصدرها بالبيتين الآتيين:

يَـا أسَــدَ الــدِّين وَمَــنْ عَدْلُــهُ يَحْفَـظُ فِينَـا سُـنَّة المُصْـطَفَى
كَفَــى عِيــاَراً شَــدُّ أوْسَــاطِنَا فماَ الَّذِي أوْجَبَ كَشْفَ القَفَا؟

فلم يلتفت أسد الدين إلى هذه الشكوى، فأضطر الشاعر إلى اعتناق الدين الإسلامي. ولما تم له ذلك عين ناظراً على الدواوين.

***

وفي عصر الدولة الأيوبية أتسعت الحركة الأدبية بين المسيحيين. فظهر أبناء العسال وأصلهم من بلدة «سدمنت» في صعيد مصر، من عائلة رجل نصراني اسمه أبو البشر يوحنا الكاتب المصري.

وكان لأبناء العسال قصور فخمة بحارة زويلة فيها عيشة طيبة. وقد شغل بعضهم مناصب كبيرة في الحكومة، وألفوا كتباً في الديانة المسيحية باللغة العربية. وترجموا بعض الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية. وألفوا بعض كتب في الغرض المتقدم على نمط ما عرفوه من كتب الدين الإسلامي. ويبدو من كتبهم أنهم أخذوا بحظ وافر ممن الثقافة الإسلامية، وآداب اللغة العربية.

وممن أشتهروا من أولاد العسال: الصفى بن العسال، وله مجموع يسمى المجموع الصفوي، وهو كتاب ضخم في فقه المذهب

الأرثوذكسي؛ حذا في تأليفه حذو كتب الفقه الإسلامي فجعله في قسمين:

١- قسم العبادات ويقع في أبواب وفصول. تكلن عن وظيفة البطاركة، والشروط التي ينبغي أن تتوفر فيمن يتولى هذه الوظيفة. وهذا الباب يشبه باب الإمامه أو الخلافة عند المسلمين مع اختلاف وهو أن الإمام أو الخليفة يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية. أما البطريركية فهي كما عرفها الصفى خلافة مسيحية في الدنيا على حراسة الدين، وسياسة أبناء الطائفة سياسة شرعية روحانية. وتقليدها لمن يقوم بها فرض على المؤمنين واجب بالإجماع، ويدل عليه العقل والشرع.

ويشمل هذا القسم أبواب التعميد، والصلاة، والصيام.

٢- القسم الثاني: في المعاملات كالبيع، والقرض والضمان، والرهن، والكفالة، والعارية، والوصية، والميراث، والهبة، والوديعة، والشركة، وأحكام الزواج والطلاق، وغير ذلك.

وعناوين هذه الأبواب كلها وردت في كتب الفقه الإسلامي. وقد جاء في باب «المبايعة وما يتبعها» في الفصل الأول ما نصه [1].

«١- لا يتم البيع والشراء إلا بإيجاب البائع وقبول المشتري من غير أغتصاب. وأيهما رضى فالآخر بالخيار، إن شاء تمم، وإن شاء

---

(١) المجموع الصفوي ص ٣٠٦ ط التوفيق بالقاهرة.

فسخ. وإن أفترقا قبل عقد المبايعة بطلت، أو قبل قبض الثمن وتسليم المبيع فهما بالأختيار ما لم تكن قد تمت بشهادة».

وفي كتاب البيوع في الفقه الإسلامي ما نصه:

«البيع ينعقد بالإيجاب والقبول إذا كان بلفظ الماضي. فإذا أوجب أحد المتعاقدين البيع فالآخر بالخيار؛ إن شاء قبل في المجلس، وإن شاء رده. وأيهما قام من المجلس قبل القبول بطل الإيجاب. وإذا حصل الإيجاب والقبول لزم البيع ولا خيار لواحد منهما إلا من عيب أو عدم رؤية».

وليس هناك فرق كبير بين النصين.

***

وللأسعد بن العسال أرجوزة في المواريث نذكر منها:

الشُكْرُ لله الوحيدِ الذاتِ	سبحانَه مُثَلَّثَ الصفاتِ
أحْمَدُهُ حمداً كما هو أهلُهْ	إذ فاض بحر جودِه وفضلُه
أزيد في التمجيد والتسبيح	لابْنِ الإلهِ السيدِ المسيحِ
أنقذَنا من ظُلمِة الَجْهالَهْ	ومن جحيمِ الكفرِ والضلالَهْ

فالأسعد سلك في هذه الأرجوزة نفس الطريقة التي يسلكها المسلمون في نظم الأراجيز، مع اختلاف المعتقدات، وهذا أمر طبيعي.

ومنها:

يـا أيهـا الطالـبُ علَـم الشـرعِ في الإرثِ خـذ مختصـراً مـن فـرعِ

ومنها في الوراثة:

أوَّلُهـــا البنـــون والبنـــاتُ لا فـرق، بـل هــن مُســاوياتُ

فالابن يتساوى مع البنت في الميراث عند المسيحيين. وعند المسلمين للبنت نصف ما يرث الولد.

والأُمُّ مثـــلُ أحـــدِ الأولادِ والأبُ مثلٌ في القياسِ الهـادِي

وإن مـات مَتْـتٌ ولـه فـردٌ وُلِـدْ لزوجِـه الرُّبْـعُ فعنـه لا تَحِـدْ

***

واجتهد أولاد العسال في ضبط ترجمات أسفار العهد الجديد مقابلين إياها على اللغات القبطية واليونانية والسريانية والعربية الدارجة، وحرروها باللغتين القبطية والعربية. وفي مكتبة البطريكخانة نسخة من الإنجيل الذي ترجموه، جاء فيها:

«نسخة للأربع بشائر الإنجيلية محررة بخط العالم الفقيه النبيه القس جرجس أبي الفضائل بن لطف الله في سنة ١٦٥٢ للإسكندر، الموافقة سنة ١٠٥٧ للشهداء، وسنة ٧٤١ للهجرة، عن نسخة الأصل التي حرزها بخطه وضبطها بنفسه الشيخ الرئيس الأسعد أبو الفرج هبة الله، وذكر في ختامها أنها مقابلة على القبطي واليوناني والسرياني».

وأشتهر أولاد العسال بجودة الخط العربي، وإليهم ينسب الخط الأسعدي الذي أبتكره الأسعد بن العسال.

ومن مؤلفات الصفى: مجموعة خطب دينية أستخدم فيها السجع على نظام الخطب الإسلامية، فمنها:

«المجدُ [1] للهِ المتجلِّلِ بأنوار لاهُوته التي تَفُلُّ حَدَّ الصَّفاح. اللابسِ المجد وعظيم البهاء، المطلق منَ الأسرِ السَّرَاحَ، الماشي على السحب، المستوِي على أجنحة الرياح، الدافع الليلَ بالنهار والمساء بالصباح».

«نحمده حمداً يهدينا إلى شده في الغدوَّ والرَّواح. ونشكره بالألسنة الفصائح، والعقائد الصحاح. ونتوسل إليه بكرمه فهو معدن الجود والسماح، ونرغب إليه بفضله فهو أهل الفضل الأثيل المُبَاح».

«وستشفع إليه بكرامة رسله مفاتيح أقفال صناديق الغيوب، مصابيح ظلماء ليالي العيوب، ينابيع الحق التي أجراها لتطهير القلوب، سهام الله التي براها لحياة النفوس لا لقتلها في الحروب».

«أيها المؤمنون بالتَّجَسُّد والتَّأَلُّم والقيامة والصعود، ونفائس الوجود. هذا العيد الذي سرى فيه نجم الخلاص الذي لا يغيب. هذا العيد الذي

---

(1) مجموعة خطب ابن العسال ص ٨ ط رعمسيس سنة ١٩٣٠.

جرى فيه وأدى الكرم الخصيب. هذا العيد الذي يحتفل به ذوو الشباب والمشيب».

***

وأسلوب الصفى كما نرى يمتاز بالحرص على السجع والجناس، وإطالة الفقرات. وقد بدأ خطبته بتمجيد الله وشكره في عدة جمل، وأطال في التحميد. ثم توسل إلى الله بكرامة رسله الذين أرسلهم لهداية خلقه. وكل هذه السطور الكثيرة مقدمة للدخول في الموضوع، وهو التحدث عن عيد القيامة. وقد أسهب في التحدث عن هذا العيد مخاطباً الوجدان، محاولاً إثارة المشاعر الدينية، والعواطف المسيحية.

ومن مؤلفات أبناء العسال:

١- نهج السبيل في الرد على من قدح في الإنجيل.

٢- الذهب المصفى والسلم المقَّفى، وهو قاموس في اللغة القبطية. ومنه اصطلح الأقباط على تسمية اللغة القبطية بالسلمي.

٣- كتاب في النحو القبطي.

ومؤلفات دينية أخرى.

***

وقد كانت لهذه المؤلفات المسيحية التي ظهرت في اللغة العربية على أيدي أبناء العسال وغيرهم، والتي أنتشرت وكثر تداولها صدى في بعض الأوساط الإسلامية. قال شرف الدين البوصيري (٦٠٨- ٦٩٦هـ) «[1] لما رأيت كتب النصارى واليهود الآن مشحونة بما ينكرونه من بعث النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها القول بخلاف ما يدّعونه من ألوهية المسيح ومن صلبه، وإثبات رسالته إلى النصارى واليهود وما لا يخفي؛ تعرضت في هذه القصيدة إلى ذكر ما سهل نظمه من ذلك، وأردت أن أورد تحت كل أبيات منها ما أشارت إليه من النصوص التي لا يستطيع النظ ذكرها بلفظها ولا بترتيبها .

ومن أدباء الأقباط الذين ظهروا في هذا العصر: جرجس بن العميد، ويعرف بابن المكين؛ كاتب الجيوش المنصورة في حكومة الأيوبيين. وله كتاب ضخم في التاريخ اسمه «تاريخ المسلمين» أو «المجموع المبارك» يقع في قسمين:

١- القسم الأول من بدء الخليقة إلى آخر حكم هرقل أمبراطور الروم.

وقد تكلم فيه بالتفصيل عن ظهور المسيحية وتاريخها، وما حصل بين المسيحيين من اختلافات.

٢- والقسم الثاني يشمل تاريخ المسلمين من بدء الإسلام إلى

([1]) ديوان البوصيري ص ١٢٨ و ١٢٩ ط. مصطفى الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٥٥.

أول حكم السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ.

وقد جاء في مقدمته [١]:

«الحمد لله الأزليّ، الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء. الإله الواحد الذي لا يعلم له كيفية، ولا تدركه العقول البشرية. إله الآلهة، ورب الأرباب. منشيء أجناس الحركات وأنواع الأسباب. خالق كل الموجودات، وموجد كل الكائنات. المعظم من جميع الخلوقات، المقدس من سائر اللغات. المتعالى عن وصف الحدوث والابتداء، المنزه عن قبول العدم والفناء، والغاية والانتهاء.»

«أحمده على ما أنعم وأولَى، وأسأله العفو والعافية في الآخرة والأولَى» هذا هو أسلوب ابن العميد في المقدمة فقط. أما أسلوبه في سائر كتابه فيمتاز بالإهمال الشديد.

ولهذا التاريخ ذل وضعه المفضل بن أبي الفضائل وسماه «المنهج السديد، والجر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد» أنتهى فيه إلى سنة ٦٩٦ هـ.

ولأبن العميد كتاب اسمه «الحاوي» يتضمن دفع اعتراضات على الدين المسيحي وما أشكل من آيات كثيرة في الإنجيل.

---

(١) صورة شمسية بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٥٠١ تاريخ.

ومن مؤلفي الأقباط في ذلك العصر: بطرس أبو شاكر، ويعرف بابن الراهب وله كتاب في التاريخ اسمه «تاريخ ابن الراهب» وهو سجل بأسماء بطاركة القبط المصريين من بدء ظهور المسيحية في مصر إلى سنة ٦٥٧ هـ وفيه ملخص لما جرى في أيام كل منهم من الحوادث. ولهذا الكتاب ذيل ينتهي إلى سنة ٧٠٦ هـ.

***

وابن كَبَر، وهو شمس الرياسة أبو البركات المتوفي سنة ٧٢٥ هـ كان كاتب الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري؛ أحد مماليك المنصور قلاوون. ثم ترك الكتابة حوالي سنة ٧٠٠ هـ وأشتغل بخدمة الدين، وسكن بمصر العتيقة في درب يحمل اسمه.

كان ابن كَبَر واسعَ الاطلاع على التاريخ والأدب العربي وعلوم اللغة العربية. وله مجموعة خطب دينية جاء في إحدها:

«الحمد لله الذي رَّصعَ كثائف الخواطرَ الهُولانية بلطائف الجواهر العقلية. وادخر لؤلؤ أنواره في أصداف البشرية، ونور أولى أسراره بأوصافه القدسية. وأجرى أنبائه على ألسن أنبيائه، وأماط حجاب الخفاء عما أجراه بواسطة أوليائه. وحلَى الكتب الشرعية بياقوت حكمه الشريفة، وجلَّى الحجب الطبيعية عن مظاهر نعمه اللطيفة».

«نحمده حمداً ينقذنا من سبيل الضلال الجارف، ويرشدنا إلى منهاج الإقبال والمعارف».

«معاشر الناس: هُبَّوا من رقدكم التي طال عليها الزمان حتى تسلكوا بتوفيق الله جادة الأمان. وانهضوا من وُعُور الظلمة الهُيُولانية، وخوضوا بحور الحكمة الربانية بأقدام الأفهام، واهتمام المرام؛ لتقفوا على سائر رموزها السَّنِية، وتغترفوا من ذخائر كنوزها السماوية التي سكبت نيل مكارمها على خلقتها المحسوسه، وسحبت ذيل مَراحمها على جِبِلَّتها المدروسة».

***

وله من خطبة في عيد العذراء:

«الحمد لله الذي أنار بأنوار الحكم مصابيح العقول، وكشفَ عنها أستار الظُّلَم فعضرفتْ سرَّ العقل والعاقل والمعقول. الذي تنزّه بالعزة القدسية من الأجناس والأنواع والفصول. وتقدس بسلطان الأحدِية عن شابهة الموضوع والمحمول. الذي أطلعَ شمس البرّارة من مشرق سيدة النساء الطاهرة البتول. ودرّع اللمة الإلهية هيكلاً إنسيًّا أظهره العالم الكّونِيّ على هيئة الرسول».

«نحمده حمداً يقوده رائد التوفيق إلى أبواب القبول، ونشكره سرمداً على إيلاء الآلاء الضافية الأهداب والذُّيول» ألخ...

وهذه الخطب تشبه في أساليبها الخطب الإسلامية كما مر بنا عند الصفى بن العسال. تفتتح بحمد الله في عبارات كثيرة يظهر فيها الحرص

على السجع والجناس. وتمتاز خطب ابن كبر باحتوائها على مصطلحات فلسفية ومنطقية مثل الموضوع والمحمول، والهيولانية، والجواهر العقلية.

وإذا كان المسلمون في خطبهم يحرصون على توحيد الله في ذاته وصفاته، متمسكين بهذا التوحيد، متشددين فيه؛ فإن هذه الخطب المسيحية حرصت كل الحرص على تسجيل عقائد أصحابها في حلول اللأهوت في الناسوت، وموضوع التجسد، والصلب، وقيام المسيح وصموده إلى السماء، وغير ذلك من آرائهم ومعتقداتهم.

وكان بطريرك الأقباط لا يستطيع أن يزاول عمله بصفة رسمية إلا بعد أن يحصل على تقليد من السلطان باعتماده في منصبه. وهذه صورة تقليد صدر من أحد سلاطين المماليك سنة ٧٦٤ هـ لبطريرك الأقباط الأرثوذكس.

«... [1] ولما كان الحضرة السامية؛ القديس المبجل الجليل المكرَّم، الموَّقر الكبير الدَّيّان، الرئيس الروحاني الفاضل المؤتمنُ جرجس ابنُ القس مفضل اليعقوبي؛ عمادَ بني المعمودية، وكنز الأمة المسيحية؛ مُنْتَخَب المِلَّة الصليبية، ركن الطائفة النصرانية، اختيار الملوك والسلاطين؛ أطال الله بهجته، وأعلى على طائفته درجّته؛ قد حاز من فضائل مِلَّتِه أسماها، وصعد من درجات الترقي على أبناء جنسه أعلاها. فنزَّه نفسه عن مشاركة الناس، وتقشف بين أهله في المأكل والملبس.

([1]) صبح الأعشى ٢ سنة ١٧٥. ط دار الكتب المصرية سنة ١٩١١.

وترك الزواج والنكاح. وأشتغل بعبادته التي لازم عليها في المساء والصباح. وألقى نفسه إلى الغاية في الأطراح. وساح بخاطره في الفكرة وإن لم يكن بجسده قد ساح. وارتاض بترك الشهوات مدة زمانه، واطَّرَح الملاذ لتعلو درجَته بين أهله برفعة مكانه. وأشتمل من علوم طائفته على الجانب الوافر، وعرف من أوامرهم ونواهيهم ما يَقَرُّ به منهم العين والناظر.

وطلب من الرب الرءوف الرحيم القوةَ على أعماله، وسأل الإله أن يزين لأهل مِلَّتِه ما يأتي به من أقواله وأفعاله. فوقع اختيارهم عليه، وسألوا صدقاتنا الشريفة إلقاء أمرهم إليه ».

«فرسم بالأمر الشريف لا زال إحسانه إلى سائر العالم واصلاً، وجوده لكل طائفة بارتياد أكفائها شاملاً».

«إن يُقّدَّم حضرة القديس المؤتمن جرجس المشار إليع على الطائفة اليعقوبية من الملة النصرانية بالديار المحروسة، والجهات الجاري بها العادة. ويكون بطريركا عليهم على عادة من تقدمه في ذلك، ومستَقَرّ قاعدته إلى آخر وقت، قائماً بما يجب عليه من أمور هذه الملة، اذلاً جهده في سلوك ما ينبغي مما ينظم عليه أمره كله، فاصلا بينهم بما يعتقدون من الأحكام، متصرفاً على كل أسقف وقسيس ومطران، في كل نقض وإبرام.»

«وَلْيَجعل أمور أهل طائفته من المهمات لديه، وليشفق على الكبير والصغير، ولْيَتَنَزَّهْ عن قليل متاع الدنيا والكثير. وليزهد في الجليل قبل الحقير. وفي اطلاعه على أحكام دينه ما يكفيه في الوصية، وما يرفعه بين أبناء جنسه في الحياة الدنيوية».

وهذه التقاليد وإن كانت صادرة من جهات من جهات إسلامية إلا أنها تدخل في دائرة الأدب القبطي، لأنها تناولت بعض الشئون القبطية.

***

وكان البطريرك يتخذ لنفسه خاتماً ينقش عليه عبارة دينية مثل «يا الله، الخلاص» ويصدر التقاليد بتعيين المطارنة والأساقفة والقساوسة. وهذه صورة تقليد صدر من الأنبا بطرس السابع المتوفي سنة ١٨٥٢ م لأنبا إبرام أسقف كرسي منفلوط. ولم نعثر على تقليد قبل هذا التاريخ.

«بسم [1] الله الرءوف الرحيم. يا الله الخلاص.»

«سلام الله القُدُّوسِ الذي يُتوج الرءوس، ويغذي صغيري النفوس، ويُسبغ حُللَ المجد على قابليه، وينزع عنهم لباس البوس.»

«السلام الذي خص به الرسل القديسين، والتلاميذ المبشرين، وهم بِعِلِّيَّة صهيون مجتمعين، يحل على جماعة الأولاد المباركين، الأحباء الطائعين، الدينيين الأرثوذكسيين، القمامصة المدبرين، والكهنة

---

(1) مختصر تاريخ الأمةالقبطية لتوفيق اسكاروس ١/١٤٥ ط المحيط بالقاهرة سنة ١٩١٢.

المؤتمنين، والمامسة المكرمين، والأراخنة المبجلين، والخولا والفلاحين، وأصحاب الصنائع أجمعين وكافة الشعب المسيحي بكرسي منفلوط، وكامل ما يليها من القرى والبلاد.»

«نعلمهم- جدد الله البركات الروحانية عليهم- وهو أن الواصل إلى عندكم أخونا الحبيب، الفاضل اللبيب، وهو أسقف عليكم وصار له السلطان من قبل النعمة التي نالها من الروح القدس إليه، أن يحل ويربط، ويكرز الكنائس الجدد والهياكل، ويقسم الكهنة والقسوس والشمامسة مجاناً كما أخذ مجاناً. ويعمل جميع ما تعمله الأساقفة أمثاله.»

«وهو أبوكم وراعيكم، ورئيسكم ومدبركم في ناموس الله كما يرضى الله. وله السلطان؛ يتصرف في كرسيه كما يريد بخوف الله تعالى؛ بعلمه ودينه وفضله. ولينظر في تدبير المصالح الروحانية اللائقة من المطلوب منه بحسب القوانين الرسولية القائلة للأساقفة: ارْعَوْا رعية الله بالمخافة والرهبة، كما تسلم من روح القدس المعطاة لكم.

فعند حضوره إلى عندكم مصحوباً بمسك السلامة؛ تبادرون أنتم الجميع في استقباله وخدمته وطاعته. وتبذلون له الطاعة الكلية، والمودة الحقانية. وتعاملونه كالأب بالمحبة الروحانية. ولا تخرجوا عن كل ما يشير به من القوانين الشرعية.»

«وتحافظون على الأصوام المفروضة، والصل وات المنصوصة، والقداسات المرفوعة، والسهرانات بالتراتيل المسموعة، والصدقات على

محاويجكم بقدر طاقتكم. ورفع القرابين من بكوركم وثمار غلاتكم. وتحافظون على طهارة النفس والجسد والقلب؛ فإنه بغير الطهارة لا يعاين أحد مجد الله».

«وتعتمدوا على الصوم والصلاة في أوقاتها المفروضة؛ فإنها سراج الأستنارة. ولا تخرجوا عن كل عمل صالح، مسعى روحاني عن رأي أبيكم الأخ المشار إليه ولتكونوا له في المعاونة مستمرين بالدعاء مبتهلين، وعلى خدمته بالنصح مشتملين، وعلى سماع وعظه غير متبرمين. ولتتجنبوا الأفعال الشعنية، والأعمال التي لا تجيزها الشريعة، والزيجات المحرمة الممنوعة».

«وليكن اجتماعكم في البيعة بروح طاهر، وقلب واحد، لكي لا يوجد فيكم مؤاخذ لأخيه ولا واجد. ولا يتأخر واحد منكم عن ملازمتها، لأن البيعة عامود الحق وأساسه، وفيها تهزم جيوش العدو وتكسر أتراسه. فمن تأخر عنهما عمداً يصير لسهام المحارب هدفاً، لأنه لم ينضم لبيت الله ولم يتخذه كنفاً».

«ولا يجب على أحد من النصارى أن يجذب رفيقه إلى دار الولاية، ويقصد إضراره بحيف أوسعاية. ولا يتعدى أحد في أرض المزارعة ولا يستحس الزنا والمخاصمات والمنازعة».

«وقد توخينا الاختصار خشية من الملل والإضجار، وعوناً على أبيكم القادم عليكم إن شاء الرب واختار أن يروي عطشكم من ينابيع

تعاليمه الروحانية، وهو يشكر الله بذلك، وقادر بمعونة الله سبحانه أن يرفعكم من الانحطاط إلى المراتب الطوبانية».

***

فنلاحظ أن هذا التقليد أو المنشور قد بدأ بالدعاء لأفراد الطائفة القبطية على اختلاف مراتبهم. وأخبرهم أنه عين لهم مطرانا لرعاية مصالحهم، والسهر على ما فيه خبرهم ووصاهم بطاعته واحترامه.

ثم أخذ يعظهم ويرشدهم، ويحضهم على الأستقامة والتمسك بأهداب الدين من المواظبة على القيام بفرائضه من صلاة وصيام، وإحسان إلى الفقراء. وحثهم على مداومة الاجتماع بالكنائس وأداء الصلوات في أوقاتها. وطلب منهم أن يتآخوا فيما بينهم، وأن يحب بعضهم بعضاً، ويتركوا الكذب والوشاية والنميمة، والأمور الذميمة.

ويميل أسلوب التقليد إلى السجع أحياناً، ولكنه على العوم حرص على سهولة العبارة ليفهمها عامة الناس إذا ما تلى عليهم في الكنيسة.

***

ولم يصلنا شيء من الأدب القبطي في خلال العصر العثماني، مع أن هذا العصر كان بالنسبة للأقباط خيراً من عصر المماليك. فلذلك ترانا مضطرين إلى الأنتقال إلى العصر الحديث.

البابُ الثاني

الأدب القبطي في العصر الحديث

كان الأقباط يتلقون مباديء العلوم في كتاتيب خاصة بهم يديرها عرفاء. وكانت هذه الكتاتيب التي لبثت حتى العصر الحديث تتخذ بجوار الكنائس، أو في منزل العريف. ولم تكن تختلف عن كتاتيب المسلمين. وكان الصبيان يتلقون فيها مباديء الدين، ويحفظون جانباً من الإنجيل، ويتلقون مباديء الحساب.

وأما الذين يريدون مواصلة التعليم فكانوا يدرسون الأدب العربي، والنحو والمنطق، والعروض على أساتذة من المسلمين. وليس هناك ما يثبت أنهم كانوا يحضرون حلقات الدروس في المساجد مع المسلمين. قالت صحيفة الوطن (٣- ٥- ١٩١٦) «ويذكر متتبعو التاريخ أنه كان للأقباط قديماً رواق بالأزهر المعمور؛ يتلقى فيه أبناؤهم العلوم المنطقية والشرعية، إذ لم تكن توجد وقتئذ مدارس لتدريس هذه العلوم غير هذه الجامعة العظيمة».

«وممن درسوا في الأزهر من الأقباط: أولاد العسال قديماً، وميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن، ووهبي بك تادرس، وغير هؤلاء كثيرون».

وذكرت الصحيفة المتقدمة في ١٤- ٢- ١٩١٤ تحت عنوان «الأقباط في الأزهر» ما نصه: «يتردد كثيراً على حلقات الدروس المختصة بعلوم المنقول والمعقول في الأزهر جماعة من إخواننا الأقباط. وقد برع بعضهم فيما تلقوه من دروس المنطق، والنحو، والصرف، والبيان، والبديع، والهيئة، والجبر».

وإذا مان من الثابت حقاً أن بعض الأقباط قد درسوا في الأزهر في العصر الحديث، إلا أن ذلك لم يثبت بالنسبة إليهم فيما قبل هذا العصر. نعم، إن المذهب الحنفي لا يمنع من ذلك، ولكن كتب التاريخ لم تذكر شيئاً عن دراسة الأقباط في المعاهد الدينية الإسلامية، ولم ينقل إلينا أحد خبراً عن وجود رواق للأقباط بالأزهر. حقا إن ثقافة أبناء العسال ثقافة عربية إسلامية، ولكن لم يذكر أحد منهم أنه درس في معهد إسلامي، لا في الأزهر ولا في غيره. فلعلهم أخذوا هذه الثقافة في منازلهم.

***

ومن الذين درسوا في الأزهر في العصر الحديث: ميخائيل عبد السيد. ألتحق بالأزهر، ولما أنشئت مدرسة دار العلوم أنتقل إليها ودرس مع طلبتها جنباً إلى جنب. ودرس من علوم الدين الإسلامي: فقه المذهب الحنفي.

وكذلك درس في الأزهر: جندي إبراهيم الصحفي المشهور الذي انتقلت إليه ملكية صحيفة الوطن بعد أن تخلى عنها ميخائيل عبدالسيد. وقد التحق بالأزهر تحت اسم «الشيخ إبراهيم الجندي» فأمضى سنة تلقى فيها النحو، والصرف، وآداب اللغة.

وممن درسوا بالأزهر: تادرس وهي الشاعر المشهور، ولم يعرف بين أدباء القبط من تأثر بالثقافة الإسلامية مثل تادرس وهي. لقد حفظ القرآن وفهمه فهماً جيداً، وكان يكثر من الأقتباس من الآيات القرآنية، والإشارة إلى الأحاديث النبوية.

وفرنسيس العتر الذي كان يحضر دروس الشيخ محمد عبده مساء كل يوم. وقد رحب به الشيخ وأدني مجلسه، وكان ذلك سنة ١٩٠٢ م.

***

ولما أنشئت المدارس الحكومية ومدارس الإرساليات الأجنبية أقبل الأقباط على الألتحاق بها. وأفتتح الأنبا كيرلس الرابع أول مدرسة قبطية في مدينة القاهرة سنة ١٨٥٣م. وقد حاول العرفاء أن يقاوموا حركة افتتاح المدارس القبطية لأنها ستقطع عنهم مورد رزقهم؛ فطافوا بالمنازل وأخذوا يحرضون الآباء على عدم إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس. وذكروا أن الحكومة ستأخذ أبناءهم من المدارس وتجندهم في الجيش وترسلهم إلى ميادين القتال. ولما شعر الأنبا كيرلس بحركتهم هذه استرضاهم بأن عينهم في وظائف التدريس بالمدرسة القبطية. فكانوا

يدرسون الأطفال مباديء القراءة والكتابة، ويدرسون الدين لجميع التلاميذ.

ثم أخذت المدارس القبطية تنتشر في جميع جهات القطر. وظهرت مدارس التوفيق القبطية، ومدارس ثمرة التوفيق، ومدارس الإيمان، والإخلاص، والمحبة وغيرها. وأمتد هذا النشاط العلمي إلى ربوع السودان.

وكانت هذه المدارس تقيم الاحتفالات في مناسبات شتى. فتارة تحتفل بعيد الميلاد، ومرة تحتفل بعيد القيامة، وآونة تحتفل بأنتهاء العالم الدراسي. وفي هذه الاحتفالات تلقي الخطب، وتنشد القصائد، وتمثل الروايات، وتردد الأغاني والأناشيد. فكانت من عوامل نهضة الأدب القبطي.

مثال ذلك قول عياد بشاى في حفلة مدرسة الأقباط بفاقوس «الوطن ٢- ١٢- ١٩١٣».

يـا عِلْـمُ شـرَّفتَ الـديارَ وأهلَهـا	لـكَ ألـف ألـفِ مُـؤ!ازرٍ ومُنـادِي
يـا علـم هَـذَّبْ نشـأة عصـرية	تُحْيـى لمصـرَ حضـارةَ الأجـدادِ
كنـا نسـاق إليـك رغـمَ أنوفنـا	فـإذا بنـا مـن أشـوقِ الـرُّوَّادِ
إنـا لفـي زمـن تقـدم طفلُـهُ	أشـياخَه فـي العلـم والإرشـادِ
إن ارتقـاءَ الشـعب فـي مجموعـه	وسـعادة المجمـوع فـي الأفـرادِ

وقال نصر لوزا الأسيوطي بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاماً على إنشاء كلية الأمريكان بأسيوط سنة ١٩١٥ من قصيدة طويلة:

أحييتِ يا دار علم مَيْتَ سؤددنا   فأنتِ في مصر مثلُ الرُّوح في الجسدِ

وأنتِ في كل أدوار الحياة لنا   أَحْنَى على القطر من أمّ على ولدِ

أبليتِ خمسين عاماً غيرَ وانيةٍ   ولا تزالين في أعوامك الجُددِ

أبلياتِ خمسين عاماً كلهُنَّ هُدًى   وسوفَ تُبْلينَ أعواماً إلى الأبدِ

أبليتِ خمسين عاماً كنت قاهرةً   فيها الصعابَ بجيش العزم والجَلَدِ

ألخ....

***

وكانت بعض الجميعات الخيرية القبطية تقيم أسواقاً للإحسان تباع فيها ما تنتجه المشاغل والملاجيء من صناعات يديوة، ومن رسوم لبعض المناظر الطبيعية والمشاهد الدينية وغير ذلك. وكان شعراء الأقباط وكتابهم يبذلون جهدهم في الدعاية لهذه الأسواق، وترغيب الأغنياء في الإقبال عليها، والتبرع لها حتى تستطيع أن تؤدي رسالتها الإنسانية السامية. مثال ذلك قول نصر لوز الأسيوطي في سوق من هذه الأسواق.

أهلاً بسوقِ البِرّ والإحسانِ   لكِ بيننا يومٌ عظيمُ الشَّأنِ [1]

سوقٌ تُباع الصالحاتُ ويُشْتَرَى   فيها الثوابُ بأبخسِ الأثمانِ

---

(١) الوطن في ١٩١٤/٣/٧.

غُرِضت بساحتها المروءةُ والنّدَى ... ومحبةُ الإنسان للإنسانِ
سوق بها الشاري يثوب وربحه ... فعل الجميلِ وراحةُ الوجُدانِ
سوق على رأس الهدى دَلاَّلُها ... داعي الصلاح وصادق الإيمانِ
لله دَر القائمين بها إذا ... وقفَ الأنامُ بحضرةِ الدَّيَّانِ

إلخ....

وهذا كاتب يدعو إلى تشجيع هذه السوق فيكتب تحت عنوان [1]: «لله أنت يا سوق» فيقول:

«لله هذه الأيادي البيضاء التي تمتد في كل يوم لإنعاش نفس الفقير. لله تلكم النفوس العالية لا تبيت إلا على تخفيف الشقاء عن عواهل البؤساء».

«لله سوق تفتح أبوابها في هذا النهار ليدخل إليها أنصار الإنسانية ورجال الخير، ترفع الغطاء عن محتوياتها لتجذب إليها نفوس الأجواد، وتستندي أكفهم السخيفة».

«لله سوق قامت لخير البائيسين، وشيدت من أيدي الكرماء. هذا يوم تنفتح فيه أبواب السماء لتسمع صوت الفقير يرفع أكف الضراعة إلى العزة الإلهية لتثيب الخيرين على خيراتهم، وتستنزل البركة والرحمة على قوم قد دفعتهم أريحيتهم، وهزهم كرمهم لزيارة سوق الإحسان».

---

(١) الوطن في ١٩١٤/٣/١٢.

وكان من أثر ظهور الدعوة إلى تحرير المرأة أن وجه الأقباط عناية كبرى غلى تعليم البنت، وأصبح هذا الموضوع الشغل الشاغل لشرائهم وكتابهم. فتظموا القصائد الطويلة، وحرروا المقالات لحث الهمم، وإنهاض العزائم لفتح المدارس المجانية لتعليم أمهات المستقبل.

وفي سنة ١٩٠٨ افتتحت كلية البنات الأمريكية الكائنة بشارع رمسيس بالقاهرة؛ فظهرت بين أبناء الطائفة الأرثوذكسية فكرة إنشاء كلية قبطية للبنات. وكانت هذه الطائفة تخشى على بناتها أن يعتنقن مذاهب المدارس الأجنبية التي يتعلمن بها، ويتركن مذهب آبائهن. وفي هذا خطر عظيم يهدد تلك الطائفة لذلك شمر أدباؤهم عن سواعدهم للدعاية لهذا المشروع، وأخذوا يعقدون الاجتماعات ويلقون فيها الخطب والقصائد حاثين على التبرع للمشروع الذي أنتهى بإنشاء كلية البنات القبطية بالعباسية. وقد أفتتحت سنة ١٩١٦، أي بعد ثمانية أعوام من ظهور هذه الفكرة. ولما كانت الدعوة إلى إنشاء الكلية المذكورة جاءت في نفس الوقت الذي قامت فيه الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية؛ فإن الأقباط لم يهتموا بهذه الجامعة، وشرعوا في تأليف لجان تطوف بالأقاليم لجمع التبرعات لكليتهم. قال نصر لوزا في الدعوة [1] لهذا المشروع من قصيدة طويلة:

العلمُ فرضٌ على الجنسِ اللطيفِ كما ... قد صار فرضاً على شباننا النُّخُبِ
الأمُّ تحتاج عِلماً يَستضيء به ... أبناؤها مثلما يحتاج خيرُ أبِ

(١) الوطن في ١٩١٢/٥/٢٣.

ربُّـــوا الفتـــاة تـــرَوْا أمـــاً مهذبـــة تعلـم الطفـل مـا يحلـو مـن الكتـبِ

البنـت إن هُـذّبت صـارت لنـاَ مَلَكـا يجثـو لهـا كـل مخلـوق غلـى الرَّكَـبِ

لا يســتقيم مــدى الأيــام حــالُكُمُ إلا بكليـــــة فرَّاجـــــةِ الكْــــرَبِ

كليـــةٍ لبنـــات العصـــر تُبْلِغنُـــا أقصـى المـرامِ ومـا نرجـو مـن الرُّتـبِ

دعـــا لتأسيســـها قـــوم غطارفـــة بـالنظم والنثـر، والأشـعار والخطـبِ

وقال من قصيدة [1] أخرى:

دعـا بِكُـمُ الـدَّعوان حتـى تؤسسـوا لهـــنَّ بنـــاء للعلـــوم مُشَـــيَّداَ

هُـمُ مهـدوا المشـروع بـالرأي والحجـا أتمـوا لنـا بالمـال هـذا الممُهَـدَّداَ

فياويحنـا إن قيـل مـا أسـطاع جمعهـم وقـد صـاح دومـاً أن يشـيد معهـداَ

فـلا تبخلـوا يـا قـبط بالمـال إنكـم غـداَ تتركـون الكنـز والمـال للصَّـداَ

نجـدتم مجـاريح الحـروب فمـالكم بخلتـك علـى جرحـي الجهالـة رُقَّـدَا

وقال فخر سليم بحار [2] من قصيدة:

يـا بنـت خفـرعَ والعـلا يرنـو لهـا قـومي فأنـتِ منـارة الظلمـاتِ

قـومي أنظـري فالنيـل يـذرف دمعـه ويـئن محرونـاً مـن الحسـراتِ

يبكـي علـى الجـنس اللطيـب ومـا بـه ويواصـــل العبـــرات بـــالعبراتِ

يبكـــي علـــى أم البنـــينَ وحالهـــا فـي مصـر أضـحى عِلَّـةَ العـلاَّتِ

هيـا أنشـطي فالجهـل داء قـد فشـا فينـا وخـالط غالـب الطبقـاتِ

والجهـــل داء كـــالبلاء مـــروَّع يقضـي علـى الأقبـاط بالنكـاتِ

---

(١) الوطن في ١٩١٣/٥/٢٨.

(٢) الوطن في ١٩١٣/٣/١٩.

إلخ...

وقال بسطا بشاى [1]:

لأمة القبط ذاتِ الفهم والشمم ... أروي حديثاً به درسٌ لمغتنم

ومنها:

إني لأعلم أن القوم أشغلهم ... عنها حوادثُ كانت بَرَّحتْ بهِم
أمَا وقد زالت الأسباب وانتبهوا ... فإنهم قارنون اجودَ بالخِدمِ
وبعد بضعة أيام تمر بنا ... ترينَ أسيوط قد قامت على قدمِ
هناك تغدِقُ سحبُ الجود في أفق ... يُرَى النّضُار به ينهلُّ كالدِّيمِ
فكم بأسيوط من وجود ومن كرم ... ومن سخاء ومن فض ومن شمم
ومثلها مصر كم فيها بحورُ نَدى ... تسيل أنهار جود من أكفهِم
وفي الأقاليم كم من محسن كَلفٍ ... بالفضل منتدب للبذل معتزم
وهكذا كل قبطي يجود لها ... بالجهد مما حباه الله من نعم
معاشر القبط إن تبغوا حياة عُلاً ... فدونكم حلية الإحسان والكرَمِ

وكانت هذه الدعوى تتضمن حملات عنيفة على الأغنياء، وتنسب تأخر تنفيذ مشروع الكلية إلى بخلهم وشحهم، أو إلى إيثارهم الإنفاق في سبيل ملذاتهم الخاصة على موائد الخمر والميسر، أو على النساء. وقد انتقد بعضهم هذه الحملات فكتب يقول [2]:

---

(١) الوطن في ١٩١٣/١/٢٧.

(٢) الوطن في ١٩١٦/٣/١٧.

«تقريع أغنياء الطائفة وسبهم وتحقيرهم والتشهير بهم عند كل مناسبة، ونسبة تأخر كل مشروع إلى بخلهم، وقد نالهم شيء من ذلك لمناسبة مشروع كلية البنات».

«وأستطيع أن أقوْل إن بعض هؤلاء الشتامين قد يكونون مخلصين، ولكنهم ليسوا أبداً منصفين. فإنهم حسبوا الشتائم دواء ناجعاً لداء البخل الذي يصفون به أغنياءهم، ولكن ساء فعلهم لأنهم بالرغم من تجربتهم هذا الدواء عدة أعوام »

وتأكدهم من عدم نفعه، لم يقلعوا عنه ولم يجربوا دواء خلافه. بل تمادوا ونطوحوا إلى أن قال بعضهم على رءوس الأشهاد: تعالوا نضع على باب الكلية لوحة نكتب عليها: «لتخجيل الأغنياء والكبراء». فمن تقريع الأغنياء قول نصر لوزا [(١)]:

بُحَّتْ من الحث أصواتُ الألَى طلبوا ... هـذا البنـاء ولـم تصـغوا إلـى الطلـبَ

أعطـى لكـم ربكـم مـالا ليـنفعكم ... للصرف في الخير لا في اللهو واللعبِ

المـالُ فـإنٍ ولا يبقـى لصـاحبه ... مَدَى الـدهور سوى الإحسان للعَقِبِ

لا أسـألنَّ الـذي ضـاعت دراهمُـهُ ... علـى الخلاعـة بـين الكـاسِ والحَبَـبِ

ولا البخيـلَ الـذي أموالـه وُضـعت ... من شدة الحرص في ألف من الحُجُبِ

وإنمـا أسـأل الأخيـار مَـن بلغـت ... أفعـالهم فـي العطايـا هِمّـةَ العـربِ

كليـة العـل نـادتْ وهْـيَ صـامتةٌ ... لا أبصر اليوم أعمـالاً سوى الصَّخَبِ

يـا قـبط إن ترفعـوا فيهـا دعائمهـا ... ترفـع بنـاتكمُ مـن وهـدة العطـبِ

(١) الوطن في ١٩١٣/٥/٢٣.

لما فكر الأقباط في هذا المشروع سنة ١٩٠٨، قدر المال اللازم له بعشرين ألف جنيه. وقد بلغ جملة ما حصلوه حتى سنة ١٩١٢ مبلغ ٤٥٠٠ جنيهاً مع أنهم كانوا يملكون [١] في ذلك الوقت خمس ثروة مصر من الأراضي الزراعية والمباني. كانوا يملكون نحو مليون ونصف مليون فدان تقريباً، ونحو ٣٠٠ ألف بيت. هذا غير ما كان لهم من مئات ألوف الجنيهات في المصارف.

قال رمزي [٢] تادرس مؤلف كتاب «الأقباط في القرن العشرين»:

«على أن هذا الغني العظيم الذي تتخذه الأمم دليلاً على النجاح والإصلاح والرقي؛ أصبح من عوامل التأخر والأنحطاط بيننا، لأن السواد الأعظم من أغنائنا أو قل كلهم لا يهمهم ارتفت الأمة، أو تأخرت، عاشت أو ماتت ما داموا في رخاء وعيش رغيد. زد على ذلك أن بعضهم يبذل الدنانير الصفراء على مائدة الخمرة، أو على بنات الهوى، أو على طاولة الميسر، ولا يمد يده بدرهم واحد لصالح أمته. ولا يغرنك ما نسمعه عن الذين يتبرعون منهم بالمال لتشييد صروح العلم وإقامة المستشفيات، ومساعدة الجمعيات الخيرية؛ فإنهم– سامحهم الله– يتبرعون قولاً حباً في إحراز الشهرة الذاتية، ويضنون فعلا بما يجودون

(١، ٢) الأقباط في القرن العشرين جـ ١ ص ١٧٤– ١٧٦ ط جريدة مصر سنة ١٩١٠.

قولا».

وقال «اللهم حنانيك بنا ورفقا، أماتت العاطفة الكريمة التي أودعتها في صدورنا للعطف على الفقير، والرفق بالضعيف، والأخذ بيد الصانع والعامل والنابغ؟ أماتت تلك العاطفة التي كان يتبارى فيها أجدادنا مباراة خلدت لهم ذكراً، وأبقت لهم عملاً حسناً؟ نعم! ماتت وذهبت، ولم يبق لنا بعدها إلا التأسي والذكرى».

«ولا يشك واحد بينكم في موت تلك العاطفة، وأروني غنياً من أغنيائنا الذين يتفاوت ريعهم السنوي بين خمسة آلاف وأربعين ألفاً من الجنيهات بسطيده كل البسط في مشروع خيري. بل أروني رجلاً واحداً صرف من ريعه ألف جنية في أي مشروع مع أنه لو صرف هذا المبلغ لما تغير نظام معيشته، ولما تحول هناؤه وغناه إلى فقر. إنكم لن تجدوا هذا الرجل».

«وضعوا أنفسهم موضع القادة للأمة، فأروني أي عمل أنجزوه غير تزاحمهم على الرئاسة؟ وغير تقاتلهم على تضحية الأمة في سبيل أمانيهم وإثرائهم؟ فقوموا وقولوا لهم: إن لنا نصيباً وافرا مما تملكون. إن لنا عليكم حقوقاً يجب أن ننالها عفواً أو قسراً. بل قوموا واصرخوا في آذانهم بأصواتكم العالية لعلهم يسمعون. بل قوموا لتعلموهم– إن كانوا لا يعلمون– بأن بقاء سبعة أعشار الأمة في الفقر والجهالة وعدم القدرة على تدبير شئونها لمما يؤخر الثلاثة الأعشار مهما كانت مرتقية ومتحضرة».

«قوموا وقولوا لهم: إن من الحرام في شريعة الله وشريعة الإنسانية أن تقفوا أيها الأغنياء سداً منيعاً في وجوهنا. فلا أنتم تعلمون لصالحنا، ولا أنتم تتركونا نعمل بأنفسنا وقوة نوابغنا وعقلائنا للمحافظة على كاتنا ومستقبلنا. قوموا وأطلبوا من الصحف أن لا تكبر وتمجد فيهم إلى درجة الألوهية ليعلموا أن الغنى هو من ضحى حياته وماله لخير أمته، سلماً يصعد عليه إلى جبل الذهب وهيكل الفضة».

«علموهم أن أغنياء الأمم الأخرى يهبون أموالهم لأمتهم ووطنهم وهو ثمرة جهادهم الطويل. علموهم أن يتركوا أموالهمم لأمتكم، والعلم والتربية الصالحة لأولادهم، فهي أحسن تراث لهم. علموهم أن المال من الوطن ومن الأمة، ويجب أن يعود إلى الوطن وإلى الأمة».

«أما أنتم أيها الأغنياء فتذكروا أن عليكم واجبات مقدسة. تذكروا ذلك، وأعلموني أني ما كتبت بالقلم الصارم لأجرح عواطفكم، بل لأَمس أوتار قلوبكم، وأحرك نخوتكم وشهامتكم وقوميتكم. وحسبي من هذا الحض رفع شأن أمتي، وحسبكم من النخوة بقاء الذكر، ومن القومية بُعد الصيت».

وفي هذا المقال تحريض سافر للفقراء من الأقباط على الفتك بالأغنياء من أبناء دينهم، لأن أستخدام القسر في أخذ الحقوق لا يكون إلا بقتل الأغنياء والأستيلاء على ثرواتهم. أو بالنهب والسلب، وهذه أمور لا يسمح بها أي دين من الأديان، ولا يقرها قانون من القوانين.

***

وعلى كل حال فقد كثر في الأدب القبطي التحدث عن الفقراء والأيتام، وتصوير ما يلاقونه في الحياة من البؤس والشقاء، والذل والهوان في صورة تستدر العطف وتستدعي الشفقة، وترقق القلوب. مثال ذلك قول نصر لوزا الأسيوطي من قصيدة [١]:

طفلان: هذا رافل في عزَّةٍ ... فرح، وذاكَ مُروَّعٌ ومُضامُ
يارَبَّ في الأحكام إنك عادل ... حاشا تجور لعدلك الأحكامُ
يارب أنت أبو اليتيم وعمة ... إن فاتت اللآباء والأعمامُ
لله أقوام ترقُّ قلوبهم ... وتعالج المقدورَ وهْوَ جِسامُ
شُغِفُوا بإسداد الجميل ففعلُهم ... بين الورى الإحسان والإنعامُ
لو أبصروا مُتَيتما متألما ... يتألمون كأنهم أيتامُ
بهمُ تُكَفْكَفُ لليتيم دموعُه ... وتُخفف الأوجاع والآلامُ
فاضت أكُّفهمُ بِشُؤْبُوبِ النَّدى ... ومن الأكف سحائبٌ وغَمامُ

وله من قصيدة أخرى [٢]:

تُعَيِّد اليومَ بين الأهل في جَذَلٍ ... والجار في فقره أنَّى له الجَذَلُ
ماذا يُفيدكَ مالٌ أنت عابدُهُ ... لا المالُ ينفع في الأخرى ولا الُحْلَلُ
إن كنتَ تبغي إدَّخارا فأدَّخِرْ عملاً ... يبقى دواماً إذا ما ينقضي الأجلُ
تبددُ المالَ في لهو وإن أحَدٌ ... رجا نوالا يفاجيء كفَّكَ الشَّلَلُ
من أين تهرب من يوم الحساب وما ... يحميك سهل من العُقْبَى ولا جبلُ؟!

(١، ٢) الوطن في ٥- ٤- ١٩١٦، ٣- ١- ١٩١٢، ٢٧- ١٢- ١٩١٢.

إن كـان فـي الـدين تفضـيل نُقِـرُّ بِـهِ		فـالجود أفضـل مـا حثـت بـه الملـل

إلخ...

وقال رياض غبريال[1]:

وابنـة الكـوخ مـن يصـغي لصـرختها		ولوعـة الفقـر قـد أدمـت مـاَ قيهـا

أتنـدب الجـوع أم تشـكو التَّعريَ أم		تبكـي التجـرُّدَ مـن إلْـفٍ يواسـيها

تُغالـب الـدهرَ والأيـام تغلبهـا		فـالبؤس ينشـرها والبـؤس تَلَّبيهـا

ولو كنـتُ صـخراً وجاءتني بـدمعتها		لـذوب الـدمع صـخري فـي تَلبَّيهـا

كثر هذا النوع من الشعر عند الأقباط كثرة هائلة، وكانت القصائد التي تنظم في المناسبات الدينية تتضمن الدعوة إلى البذل والإنفاق في سبيل الخير، والحض على التبرع للمشروعات الخيرية التي يراد بها مساعدة الفقراء والتخفيف عن آلامهم، وتبشر النفقين أموالهم في هذا السبيل برضا الله ورضوانه. وتنذر البخيل بسوء العاقبة، لأنه أمسك أمواله وتركها للصدأ. فهو لم يعمل شيئاً ينتفع به في الدنيا أو في الآخرة. وتنذر الذين ينفقون أموالهم في ملذاتهم مع إمساكهم عن مساعدة الفقراء بغضب الله وعقابه.

***

ونرى من الشعر الذي أوردنا بعضه في مشروع كلية البنات أن هذا المشروع كان محور الدائرة عند الأقباط، وأنهم نظروا إليه على أنه مسألة

---

(1) الوطن في ٥-٤-٢٩١٦، ٣-١-١٩١٢، ٢٢-٤-١٩١٢.

حياة أو مَوت بالنسبة لهم. وأن مستقبلهم مرتبط بتنفيذه؛ إن نجحوا في ذلك فقد ضمنوا لأنفسهم حياة المجد والرفعة، والغلبة والنصر، والتقدم والرقي. واستحقوا أن ينسبوا للفراعنة، وازدادت آمالهم في أستعادة مجد الآباء والأجداد. وإن أخفقوا فالويل لهم، والعار يلحق بهم، والموت الزؤام ينتظرهم.

وليس من السهل علينا ةلا على الأقباط أنفسهم، أن يدركوا كيف نبتت هذه الفكرة في الأوساط القبطية؛ أي فكرة أرتباط مستقبلهم بنجاح هذا المشروع وإخفاقه. قد يكون الخوف من سلطان المدارس الأجنبية وتأثيرها في عقيدة أبنائهم وبناتهم خلق عندهم هذه الفكرة. ولكن هل إنشاء كلية للبنات في مدينة القاهرة يكفي لحماية العقيدة الأرثوذكسية بين أقباط مصر من أسوان إلى الغسكندرية؟ لعل هؤلاء الأدباء في شعرهم ونثرهم ما كان يقوله كتاب المسلمين وشعراؤهم في مشروع الجامعة المصرية. مثال ذلك قول حافظ إبراهيم:

ولا حيـــاة لكـــم إلا بجامعـــة تكـون أمّـا لطُـلاَّب العـلا وأبـاَ

***

ولما أفتتحت كلية البنات [1] في ١٧-٣-١٩١٦ أشتد فرح الأقباط، وعظم سرورهم. قال جندي إبراهيم:

يَـــرَاعُ العـــلا ســـطّرْ فـــإنىَ مُغـــرَمٌ بتســـطير آيـــات بهـــا القـــبطُ تكْـــرَمُ

([1]) الوطن في ١٩١٦/٣/١٨.

وبـيَّن لهـذا الـدهر مـا أنـت أهلُـهُ	فإنــك إن لــم تــنظم تــادرً تُحْطَــمُ
سـمعتُ نـداء مـن سـمائكَ عاليـاً	يُنــادي أجيبــوا صــوتنا وتعلمــوا
فــذكَّرني صــوتُ كــريمٌ ســمعتهُ	مُناجــاةَ موســى يــوم ناجــاهُ مُــنْعِمُ
وأبصرتُ إثْر الصوتِ شمساً جديدةً	تُغالـب شـمس الكـون قهـراً أو تَهْـزِمُ
وأنَّــي لهــا تبــدو ويشــرقُ نورُهــا	لــدينا وشــمسُ العلــم أزهــى وأعظــمُ
تجلّـت عـروسُ القـبط فـي مهرجانهـا	وبينأياديهاكواكبُخُــــــــــــدَّمُ

وكان شعراء الأقباط ينظمون القصائد الطوال في المناسبات القبطية كعيد الميلاد، وعيد القيامة، وعيد النيروز وغيرها. قال نصر لوزا [١] الأسيوطي من قصيدة طويلة في عيد الميلاد:

لَأَنْــتَ أفضــل يــوم بِــتُّ أرقبــه	وأنــتَ تــاج لهــامِ الــدَّهرِ مَعقــودُ
ففيــك لاح الهــدى للخلــق أجمعِــهِ	إذ جـاء مـن مـريمَ العـذراء مولـودُ
وجـــاء مـــريمَ جبريـــلَ يبشـــرها	وبـان نجـمٌ لـه فـي الشـرق مسـعودُ
مــن ذا الوَليــدُ الــذي خــرتَّ لهيبتــه	لـــه الرُّعـــاة وحَيَّتـــه الأناشـــيدُ؟
من ذا الذي عاش في الدنيا بلا خَطَلٍ	وكــان دَيدَنَــهُ الإحســانُ والجــودُ؟
من ذا الذي كان يُحْيحى الميتين ولو	ضـمَّتْهُمُ فـي الثرى تُـرْبٌ وجُلمـودُ؟
الله أكبــــر فَلْتَخْشَـــعْ قبـــوبُكم	هـذا المسيح الـذي للخلـق معبـودُ
ابـــن المهـــيمن فادينـــا وخالقنـــا	مَـن بابـهُ مِـن جميـع النـاس مقصـودُ
تـــذكورا يـــومَ مـــيلاد المســـيح ولا	تنْسَـــوا ففـــي ذكـــره لله تمجيـــدُ
تــذكَّروا يــومَ مــيلاد المســيح ففــي	ذكْرَى المسيح لكـم طُهـر وتجديـدُ

إلخ ....

---

(١) الوطن في ١٩١٢/١/٩.

وفي هذه القصائد تظهر بوضوح معتقدات المسيحيين في عيسى ابن مريم.

وقد نوء الشاعر بميلاده والمعجزات التي جرت على يديه. وصاغ ذلك في أسلوب الأستفهام المراد به التقرير. ثم أنتهى من ها الأستفهام إلى الإشادة بعظمة عيسى وسمو مقامه وعلو محله. فقال إنه الخالق والفادي الحبيب، والمخلص والمنقذ من الضلال. ثم دعا أبناء طائفته إلى تعظيم يوم الميلاد وتمجيده، والأحتفال به أحتفالاً يليق بهذه المناسبة. وقال إن ذكرى الميلاد تطهر الأجسام والأرواح. وتبعث الإنسان بعثاً جديداً، وأن الأحتفال بهذه الذكرى يقرب الإنسان من الله.

وقال رفائيل [1] نخلة اليسوعي في عيد الفصح:

في يوم عيد الفصح تزهو القاهره ... من فيض أنوار الربيع الباهرهْ

بقيامة الفادي تكامل سعدها ... وبدت بشاراتُ السرور النادرهْ

فسماؤها زرقاء صافية خلت ... من دُكنة السحب العبوس الماطرهْ

قام المسيح إلهنا من مدفن ... ألقته فيه ذنوبنا التكاثرهْ

فأرى النصارى كلهم في شخصه ... إن الصليب ينيل مجد الآجرهْ

غَني أياً يا أجراسُ إن شقاءنا ... دربُ لأفراح السماء الطاهرهْ

إلخ....

([1]) ديوانه ص ١٩٨ ط الإحسان بحلب سنة ١٩٥٣.

مزج الشاعر بين وصف مدينة القاهرو في أيام الربيع، وما بدت عليه من بهجة وسرور بمناسبة عيد الفصح. ووصف سماءها الصافية، وجوها اللطيف، وأشجارها المورقة. والأجراس التي تدق في الكنائس لتعلن عن عيد القيامة المجيد.

وقال: إن المسيح صلب ليخلص الناس من أوزار خطاياهم، وأنه قام من قبره، وصعد إلى السماء. والنصارى كلهم يتمثلون في شخص المسيح لأنه أبوهم وفاديهم ومخلصهم. وكل مسيحي يحمل صليبه ويتمسك بتعاليم دينه يظفر بالحياة الأبدية. وما يتحمله من البلاء والمصائب إن هو إلا أمتحان من الله له، فإذا نجح في هذا الأمتحان دخل الجنة.

***

وقال نصر لوزا[1] في عيد القيامة من قصيدة طويلة:

رفعتَ لنا عيسى ابنَ مريم ... إلى موطن فيه الإله يرحبُ
تظللهُ وقتَ الصعود سحابة ... يحف بها من عسكر الله موكبُ
على عرش مجد الله يجلس آمراً ... ومن حوله أملاكه تتأهبُ
صحائف كل العالمين بكفه ... مزيلُ خطايا الناس أيانَ تطلبُ
من البدء موجود ولليوم كائن ... وفي الغد مثل البدء واليوم يقربُ
هو النور ما بين السموات والهدى ... على الأرض وهو الروح والإبن والأبُ
إلى مريم العذراء جبريلُ قد أتى ... وزفَّ لها بشرى لها الأرض تطربُ

(١) الوطن في ١٩١٢/٥/١.

وحلت بها روح الإله فأنجبت غلاماً إلى الله المهيمن ينسبُ

ومنها وفيه إشارة إلى ما فعله اليهود معه:

أحاطوا به كي يقتلوه تعمداً وحقداً وقالوا إن ذلك يصلبُ
تلاميذه ولَّوْه جميعاً فما رأى من الناس مخلوقاً إلى الصلب يُسحبُ
فأنكره في الضيق بطرس جاهداً وسلمه عمداً يهوذا المذبذَبُ

ومنها:

فبيننا مسيح الرب يجرى دماؤهُ إذ الشعب يلهو كالصغار ويلعبُ
يناديهمُ هاتوا من الماء جُرْعة بها يستقيقلبي الكليم ويشربُ
فأعطَوْا له كأحاً من الخل علقماً كأن الذي في الكأس سم مُذَوَّبُ
فلم روحاً للإله وديعة ونام ببطن الترب لا يتهيَّبُ
ثلاثة أيام قضاها بحفرة وقام كما قام المسيح المغلب
شعوبك ضلَّت يايسوع وقد بدا لكل أمرىء في مذهب الشر مذهب

إلخ....

تحدث الشاعر في هذه القصيدة عن موضوع صلب المسيح كما يعتقد. فذكر ما فعله اليهود به قبل صلبه، وكيف هرب تلاميذه وأختفوا حرصاً على أنفسهم وخوفاً من بطش اليهود. وكيف أنكره بطرس وتبرأ منه. وكيف خانه يهوذا الأسخريوطي حين أرشد اليهود إلى مكانه نظير مبلغ من المال. وتحدث عما جرى على المسيح وهو على الصليب، وكيف أن اليهود قدموا له الخل ليشر به حين طلب قليلاً من الماء.

وذكر موته ودفنه، ثم قيامه من القبر وصعوده إلى السماء تظلله سحابة بيضاء، وتحيط به الملائكة إلى أن وصل إلى العرش الإلهي وجلس عليه يأمر وينهي، والحرس حوله على قدم الأستعداد لتنفيذ أوامره. وقال إنه مطلع على خطايا البشر، وأنه يزيل هذه الخطايا متى ألتمس أصحابها ذلك وأظهروا التوبة.

وهذا الشعر الديني يمتاز بصدق العاطفة، وتدفق الأحاسيس، وتوقد المشاعر. وهذه كلها من عناصر الإجادة في الشعر.

وظهر في العصر الحديث عدد كبير من الصحف والمجلات القبطية. فمن الصحف: صحيفتا مصر والوطن. والأولى ما زالت تصدر إلى اليوم وإن كانت محصورة في عدد من المشتركين. ومن المجلات التي كانت تصدر: مجلة فرعون، ورعمسيس، والمنارة المرقسية، والأسد المرقسي، والشبيبة القبطية، ومجلة التوفيق التي رجعت إلى الوجود مرة أخرى بعد أن أختفت مدة طويلة. ومجلات: الإخلاص، والصخرة، والفدا، ورسالة المحبة وهي من المجلات التي تصدر اليوم وهي واسعة الأنتشار بين الأقباط.

وكان لهذه الصحف والمجلات أكبر الأثر في خلق الحركة الأدبية بين الأقباط. فغدت منابر لشعرائهم وكتابهم ينشرون فيها ما تجود به خواطرهم في مختلف الأغراض. وتعتبر الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولة– ١٩١٤– العصر الذهبي لأدب الأقباط وصحافتهم.

البابُ الثالث

القومية الفرعونية وآثرها في الأدب القبطي

يعتقد الأقباط أنهم من نسل الفراعنة، ولم تختلط دماؤهم بدماء أجنبية عربية أو تركية أو غيرها. قال رمزي تادرس [1] تحت عنوان «الشعب القبطي» ما نصه:

«الشعب القبطي بقية أمة عرقة في المجد، تليدة في الشرف، كبيرة في السلطان وضخامة الملك» ولذلك أخذوا يرجون للقومية الفرعونية ويفضلونها على سائر القوميات، ويدعون إلى التمسك بها. وكانت تعجبهم قالات أحمد لطفي السيد في الوطنية المصرية، والقومية المحلية. ومما جاء في إحدى هذه المقالات:

«إن [2] منا من لا ينفك يفخر بانتسابه إلى العرب الأولين أنما انتسابه إلى الجنس المصري نقص وعيب. ولا يزال بعضنا ممن دست فيه العروق التركية يميل إلى تضحية العصبية المصرية للعصببى التركية، كما أن منا من يفضل الرابطة الدينية على الروابط الجنسية والوطنية. فإن لم نذهب عنا– بعزيمة– هذا التحلل نمت أسبابه، وفشت نتائجه، وتعذر علينا أن نوسع بيننا دائرة المشابهات ونضيق دائرة الفروق. وبقينا كما كنا

---

(1) مقدمة تاريخ الأقباط في القرن العشرين.

(2) الجريدة في ٥-٢-١٩٠٨.

في الماضي نقضي حياتنا القومية تابعين للصدفة، بعيدين عن أشرف الأغراض القومية؛ وهو الأستقلال».

ويعلق كاتب قبطي على هذا الرأي فيقول [1]:

«... فالقبطي له ان يفخر لإجيائه عيداً مصرياً– عيد النيروز– وروحا مصرياً. القبطي مصري قبل كل شيء. فإذا ما هو عيد وحده العيد المصري؛ فهذا موطن فخر له، لأنه حافظ على جنسيته ولم يعتنق جنسية أخرى. ولو كان المصريون أحلوا الأعتبار الجنسي محل الأعتبارات الأخرى، وحافظوا على الجنسية المصرية قبل كل شيء آخر؛ أقول لو كانوا فعلوا ذلك لكان شأنهم غيره الآن».

«نحتفل نحن الأقباط بعيد النيروز، عيد رأس السنة المصرية، لا كما يعيد غيرنا غربياً أو شرقياً عيداً دينياً بحتاً».

«نحتفل بذلك العيد فنبقى على كل شيء من من ممثلات مصريتنا الممزقة، ونحفظ أثراً لازم الحفظ، دالاً على وجود حي، دالاً على مصر، ولا شخصية غير الشخصية المصرية البحتة، ولا نسبة غير النسبة المصرية».

«هل نعاب إذا أحيينا شيئاً يدل على مصر ووجود مصر، ويبعث فينا روحاً مصرياً نحيا له ونموت لأجله؟».

([1]) الوطن في ٧-٢-١٩٠٨.

«ما الذي أضعفنا سوى إماتة الروح المصرية، والقضاء على كل صبغة مصرية، وشخصية مصرية؟ حتى كدنا نكون ولا شخصية معينة لنا، ولا يحفظ الأمم سوى الأحتفاظ بمشخصاتها».

«ما لنا نهرب من مصريتنا كأنها داء الجرب؟ وما لنا ننكرها كأنها عار؟».

***

وفي هذا المقال تعريض بالمسلمين لأنهم يحتفلون بأعيادهم الإسلامية، والإسلام دين غريب عن مصر كما يقول، فلا ينبغي أن يحتفل بأعياده، بل يجب أن نحتفل بالأعياد المصرية فقط. وهو يعيب على الغربيين كذلك أحتفالهم بالأعياد المسيحية لأنها أعياد أجنبية عنهم. فكأنه والحالة هذه يدعو إلى ترك الأديان المسيحية والأحتفالات الدينية كلها الإسلامية والمسيحية. إن الدين السماوي لا ينزل لأمة معينة في وطن معين، وإنما ينزل للناس كافة. فأي عيب إذا أشترك الناس من أبناء الدين الواحد في مشارق الأرض ومغاربها في الأحتفالات الدينية؟ ولم يقل أحد من المفكرين إن القومية تستلزم التخلي عن الدين والأحتفالات الدينية.

وعلى كل حال فإن فكرة القومية الفرعونية ظهرت لمعارضة فكرة الجامعة الإسلامية التي كان يروج لها الحزب الوطني بنوع خاص، وحزب الإصلاح الذي كان يرأسه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة «المؤيد»

وحدث أن أنهزمت تركيا في الحرب العالمية الأولى، وظهر مصطفى كامل الذي أخذ بفكرة القومية التركية، وتخلى عن كل فكرة إسلامية، وتبرأ من السمات الشرقية، وصبغ بلاده بالصبغة الأوربية؛ حينئذ أختفت فكرة الجامعة الإسلامية من مصر، بل من جميع البلاد التي تدين بالإسلام. وأقبل المصريون جميعهم على أتخاذ الشعارات الفرعونية.

***

وكان الأقباط قد أتخذوا من اسم «رمسيس» شعاراً لهم، ولقبوا أنفسهم بأحفاد رمسيس، وأنشأوا نادياً خاصاً بهم بحمل هذا الأسم، وظهرت مجلة «رعمسيس». ولما وسع اللورد كتشنر ميدان باب الحديد وجعله بالصفة التي هو عليها الآن وكان ذلك سنة ١٩١٣م أقترحوا عليه أن يحلي الميدان بتمثال من تماثيل هذا الملك. فوافق على الأقتراح على أن ينقل التمثال الذي كان بالبدرشين. قالت صحيفة الوطن (١٩١٤/٧/٩) «قال المسيو ماسبيرو في حديث له مع إحدى الجرائد الإفرنجية إنه يعلم عن ثقة أن لورد كتشنر ينوي أن يفتح أكتتاباً في أنجلترا لجمع المال اللازم لنقل تمثال رمسيس ونصبه في ميدان باب الحديد، وذلك حتى لا يكلف الخزينة المصرية هذه النفقة» وقد تم نقله سنة ١٩٥٥ ووهو المقام حالياً في ميدان رمسيس «باب الحديد».

وكان بعض الأقباط يطلق على أبنائه أسماء فرعونية.

***

وفي سنة ١٩١٣ سافر وفد من أدباء الأقباط إلى مدينة الأقصر، وذهبوا إلى معبد الكرنك. ولما صاروا أمام أحد تماثيل رمسيس الأكبر أنبطحوا على الأرض، وتمرغوا في التراب، وتقلبوا في العفار والهَبَاب، ورفعوا أصواتهم بالبكاء والعويل، وسالت كل مسيل. وأشتد الصياح، وعظم النواح. وكان نصر لوزا الأسيوطي يقول [١]:

رمسيسُ قم وأنظر الأحفادَ كيف هُمُ	ذَلُّوا وكيف على بَلواهمُ صبروا
رُحماكَ رحماك قم وأنظر بعينك ما	قد خبَّأتْه ليالي الغدرِ والقَهَرُ

وأخذوا يرددون هذين البيتين، وهما من قصيدة طويلة بكى فيها الشاعر على زوال دولة الفراعنة، وتغنى بأمجادهم، ومطلعها:

قف عند طيبةَ يا مَن فاتَه الأثَرُ	عسى يجيبك إن ناديتَه الحجرُ
وسائل الصخر عن قوم مَضَوْا وَبَقَتْ	أفعالهم، فهمناك الُخْبْرُ وَالَخبَرُ
هناك تلقى ملوك القطر باقية	فيها وكم من ملوك العالم اندثروا
هناك تلقَى بها الأمواتَ رافدة	كأنهم نُوَّمٌ أضناهُمُ السهرُ
هناك تلقى من الأحجار أبنية	نظيرها ما بنى بدوٌ ولا حضَرُ
هناك تلقى صروح المجد قائمة	تكاد تنطق فيها الآي والسُّوَرُ
هنا قف واعتبر كيف أنقضت دولٌ	في العالمين عساها تنفع العِبَرُ
وأنظر تجدْ في توابيتٍ فراعنة	لكل جيل بهم وعظ ومُزْدَجَرُ
هم حاربوا كل شيء غيرَ أنهمُ	على محاربة المقدور ما قَدَرُوا
تضمنتهم بطونُ الأرض مظلمة	وكم زهت بهمُ التيجان والسُّررُ
ضاقت بهم كل أرض ينزلون بها	لهفى عليهم وما ضاقت بهم حُفَرُ

(١) الوطن في ١٩١٣/٨/١٦.

قــد صــبروا أمــم الــدنيا مُسَــيَّرَةً فالنهيُ إن هـم نَهَـوْا والأمر إن أَمَرُوا

يا ويح معهمِ المنايا كيف جار على فراعنِ الدهرِ مَن شادوا ومَن ظفروا

***

يَمَّمْــتُ طيبــة ملتاعــاً لرؤيتهــا ونــار قلبــي مــن الأشــواق تســتعرُ

أسعى إليهـا وقبلـي مـا سـعى أحـد إلا تَــوَّلاه فــي وصــف لهــا الَخَــرُ

سـارت إليهـا شـعوب الأرض قاطبـة كأنهــا عنــد بيــت الله تَعتمــرُ

فــي كــل عــام لــه حَــجٌّ وَمُنْتَجَــعٌ وإن تمـادَى النّـوَي أو أتعب السـفرُ

كأنهــا جنــة رَأْدُ الربيــع بهــا بــين المــلا زُمَــرٌ يتلــوهم زُمَــرُ

يـأتون كـي ينظـروا فعـل الفـراعنِ مَـنْ سادوا على كل من في الأرض وأنتصروا

***

لهــم علــى الأرض بنيــان لــه عُمُــد تحـار فـي صـنعه الألبـابُ والفِكَـرَ

هــل مثــل كرنــك فــي الآفــاق أبنيــة أو مثـل بِربَـةَ مـا بـين الـورَى أثـر؟!

يا نـاظر الكرنك أخشـع إن دخلت بـه فأنــت فــي معبــد تاريخــه عِبَــرُ

كـم فيـه صـلَّتْ ملـوك وأبتغـت أمـم صـفحَ الإلـه لكـي يُقضـي لهـا وَطَـرُ

فيــه البخــورُ إلــى ذا اليــوم مرتســمٌ في سـقف هيكلـه لـم تمحـه الغِيَـرُ

فيــه التماثيــل كــالأقوام شــامخة كــأن فــي أنفهــا ممــا بهــم كبــرُ

تعنــو الجبــاهُ إليهــا وهْــيَ خاشــعة منهـا ويقصـر عـن إدراكهـا النظـرُ

كــذاك بربــه رمســيس بهــا نُصُــبٌ تكــاد تنطــق لــولا أنهــا حجــرُ

بهــا تماثيــل رمســيس وزوجتــه قد بـات يطريهما التاريخ والسَّيّرُ

أسرى الفراعن في حيطانها رُسـمت رهنً القيـود وهـذا بعض مـن أسـروا

مـن بـين أسـرارهم في صـخر بـربتهم الفـرس والـروم والأحبـاش والتتـر

رمسيس قم وأنظر الأحفاد كيف همُ ذلُّـوا وكيـف علـى بَلـواهمُ صـبروا

رُحماك رحماك قم وأنظر بعينك ما قــد خبَّأتــه ليــالي الغــدر والقَهَــرُ

***

أصبحت إن أنظر الآثار دراسة ... ترى الدموع على عَيْنَيَّ تنهمرُ

تركتها بعد فرط الحزن ملتمساً ... دار الحبيب لينأى عَنىَ الكَدَرُ

ثم أنتهينا لأبواب الملوك بها ... حيث الفراعن في أجوافها قُبِرُوا

رأيت في الصخر أنفاقاً ذُهلت بها ... فقلت هذى بناها الجن لا البشرُ

وقد يحار الفتى فيها هناك إذا ... رأى النقوشَ التي من حولها الصورُ

قبور موتى ولكن كالقصور إلى ... أمثالها المرء في سُكناه مفتقرُ

مَن أبصرَ النقش فيها ظن ناقشها ... قد بات حًيا لنيل الأجر ينتظرُ

لا يوجد تحت الشمس مُخْتَرَعٌ ... إلا وكان لهم من بعض ما أبتكروا

هناك في طيبةَ المعروفُ أنطقني ... بالشعر فوراً فلا عجزٌ ولا حَصَرُ

وشيخها الشهم أطراني وأكرمني ... فألتف حوليَ من أتباعه نفرُ

قد حرَّم السحرَ موسى غير أن له ... آيات سحر حلال دونها الدرر

نسيت في حَيِّهم أهلي ولا عجبٌ ... ففضلهم من قديم الدهر مُدَّخَرُ

واليوم يطربهم قولي ويمدحهم ... للناس منتظم مني ومنتثرُ

ولست ما عشت أنسى مدة قُضيت ... بأرض طيبة حتى ينقضي العُمُرُ

وله قصيدة أخرى طويلة نشرت تحت عنوان «على سفح الأهرام[1]» أوردناها في المختار من شعره.

وقال عزيز بشاى من قصيدة[2] طويلة في توتنخ آمون:

خاليَ المجد أعد فينا المقاما ... عاد فرعون إلى الدنيا وقاماَ

رُبَّ مَيْت ملأ الدنيا علاً ... وأعاد المجد فيها وأقاماَ

لا تقل مَيْت وقل حيٌّ علَى ... قبة العلياء ما ملَّ المقاماَ

(١) المقطم في ١٩١٢/٨/٥.

(٢) السياسة في ١٩٢٢/٣/١٢.

إيـه يـا «تـوتنخ آمـون» الـذي — لـم تـنم عيناه حين الـدهر ناماَ
كـذبوا إن قيـل أفنـاك الـردى — أنـت أفنيـت الـدنا عامـاً فعامـاَ
يا جلال الملك أيقظت الورى — ومنيـرَ التـاج أعليـت الأنامـاَ
أنـت سـرٌّ باحَـتِ الـدنيا بـه — فأنـار السـرُّ فـي الـدنيا الظلامـاَ
ملـكَ الـوادي أسـتفق مـن رقـدة — فلقد أكثرت في الوادي المناماَ
ألـقِ عَـن جنبيـك جلبـاب البِلَـى — ربما أسطعتَ من الموت القياماَ

ألخ....

وقال رفائيل نخلة [1] تحت عنوان «موعظة الأهرام»:

فـــيكُنَّ راعَتْنِـــيَ الأجـــرامُ — يـا فخـر وادي النيـل يـا أهـرامُ
لـم نـدر قبلـك أن أكـوام الصـفا — ترقـى إلـى حيـث أسـتقر غمـامُ
لم ندر قبلك من رموس عواهل — سـتين عامـاً شـادها الأقـوامُ
آلافُ آلافٍ بَنَـــوْكِ وألحـــدوا — أفنـــتهم الأتعـــاب والأســـقامُ

إلخ...

وقد أوردناها كلها في المختار من شعره.

***

وفي الأنتساب إلى الفراعنة [1] يقول إسكندر قزمان من قصيدة:

---

(١) ديوانه ص ٢٢٩.

إن فُقتِ يا ابنةَ رمسيسٍ فلا عجبٌ عن أمهاتك في طيبا وآباكِ
كم شدتِ في مصر صرحاً للرقيّ وما عليـاء غيرك إلا بنت علياكِ

وقال تادرس وهي [(٢)] من قصيدة في مدح بطرس غالي حينما تولى رياسة الوزارة سنة ١٩٠٨.

فيـا سـلالة مينـا والشـيء بالشـيء يـذكر

وكان تادرس وهي في طليعة كتاب القبط الذين تغنوا بأمجاد الفراعنة. فمن ذلك قوله في مقدمة تمثيلية: «عنوان التوفيق في قصة يوسف الصديق». «إن لمصر في التاريخ لشأناً دونه الفرقدان، وفخراً يرويه عنها من أبناء الزمان قاص ودان، لأنها البقعة المباركة التي ضربت فيها سرادقات العمار، والكعبة التي كان بها للطائفين هناك أعتمار. ولكم يرمها الآن حريص من العلماء على مشاهدة آثار القدماء ، فيتهيب أني جاء تلقاء أبي الحجاج أو الهرمين تهيبَ جماعة الحجاج ساعة زسارة الحرمين. ولو هاله أبو الهول وهو يحدق لعين شمس، ويفرق بين حاله اليوم وما كان عليه بالأمس لأرتضى بالدلالة الإلتزامية قولاً شارحاً لعظم هاتيك القرون، حينما كانوا يبيعون المعارف لسواهم من الأمم ولا يشترون. ثم أوسعهم الدهر حسداً، وكر عليهم بصروفه أسداً. فأضطروا لأن يستبدلوا الإقدام بالإحجام، وأن يدينوا وهم صاغرون لملوك الأعجام الذين طفقوا يقيمون عليهم من حيث لا يحتسبون أدلة، وإذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ».

---

(١) الوطن في ١٩١٣/١٠/١٧.
(٢) الوطن في ١٩٠٨/٥/١،

***

وظهرت حركة ترمي إلى إحياء اللغة القبطية، لأنها كما قالوا لغة البلاد المصرية، ولغة العبادة، ولغة المدنية القديمة والجديدة. قال أحدهم:

«لكي تتوفر[1] القومية المتينة في شعب من الشعوب لابد لأفراده جماعاته من الأتفاق في وجوه ثلاثة: الوطن، واللغة، والدين. وعلى نسبة وفر هذه الوجوه تكون قوة التماسك في ذلك الشعب».

«إننا نتكلم بلغة غير لغتنا. وديننا قد أنمسخ بتعاليم غريبة لم نحن من رأئها غير التنابذ والشقاق. فإذا أردنا أن تكون قوميتنا سليمة قوية فلا بد من كنيسة واحدة، ولغة واحدة ننضم تحت لوائهما ونحبهما ونفخر بهما. وأما حال تذبذب وعدم الأكتراث التي نحن فيها هذه فإن هي إلا من مقدمات الخذلان والموت، لأن الإنسان لا يمكنه أن يحب كنيستين أو يفتخر بلغتين، كما لا يمكنه أن يخدم سيدين».

وقال آخر [2] :

«إن هذه اللغة– القبطية– ليست من اللغات الجامدة أو الميتة التي يضيع الوقت في إحيائها عبثاً. بل هي لغة كانت فيما مضى لغة أمة عظيمة ذات تاريخ وآداب ومعاملات. ولا بد أنها في تلك العصور

---

(١) مجلة المفتاح عدد فبراير سنة ١٩١٢.

(٢) الوطن في ١٩١٦/١/١٣.

الخالية كانت كافية بحاجتها، حافلة بالألفاظ والتعبيرات الدالة على كل التصورات والأفكار التي تتمون من مجموعها حياة الأمة. فما أوصلها إلى هذه الحالة إلا الإهمال والترك اللذان نشآ عن الظروف السياسية القاهرة. فإذا أبدل الأقباط إهمالهم بالهمة والجد والنشاط في تعلمها جددوا شبابها لا محالة، وألبسوها حلة قشيبة من الحياة. عدا هذا فإن هذه اللغة ستبقى ما بقة الجديدان لغة العبادة. فمصلحة الأقباط الدينية تقضي عليهم أن يفهموها جيداً حتى لا يظل بينهم وبين كنيستهم هذا الحاجز الذي نراه الآن».

«إن مصر اليوم تقول: أيها المصريون، مهما أنكرتموني بتعلم اللغة العربية والفرنسوية، أو الإنجليزية؛ فإن الألفاظ القبطية منتشرة على ألسنتكم وأنتم لا تدرون. فأذهبوا إلى المراكب تجدوا أصحابها يقولون «هيا ليصة» أي المساعدة. أذهبوا إلى الحقول تجدوا الفلاحين يقولون «الدميرة حضرت» أي الطمي البحري جاء. وغير هذا كثير».

«فهذا دليل ظاهر على أن أصلهم مصري قبل أن يكون عربياً، وكذلك يجب أن نتعلم اللغة القبطية».

وكتب فرنسيس العتر في مجلة «الحكمة» [١] سنة ١٩٤٠ مقالاً حاراً جاء فيه:

---

(١) عدد فبراير.

«هُبُّوا من رقادكم، وأعملوا على إحياء لغة آباشكم وأجدادكم، فلا يفرط في تراث الآباء والجدود إلا ابن نغل حقت عليه اللعنة وباء بالخسران».

«نعم. إن الأمم القاهرة قد فطنت منذ القدم إلى أن خير خطة تجرى عليها في تقرير فتوحاتها، وإتقاء سورة المغلوبين إذا أستفزهم كم ناحيتها ضيم، إنما هي خطة إضعاف اللعنة القومية، والنزول بها إلى الحضيض. وتقوية اللغة الأجنبية والصعود بها إلى السماكين. ولكن على الشعب المغلوب على أمره أن يجاهد في سبيل صون جنسيته بإحياء لغته بين طبقاته عامة، وطبقة المربين خاصة. لأنه ما دام للشعب لسان بلغته ناطق، وجنان بأمنيته خافق، وعزم في إرادته صادق، فتحقيق أمنيته مكفول، ونجاحه لا ريب مأمول».

«ويا لشقاء قطر غلب على أمره، ثم أغفل قادته شأنه فلم تجتمع عزائمهم على إحياء لغتهم الناطقة بسالف عزمهم».

«يا لشقاء هذا القطر إذا استسلم للهزيمة، وجعل لغته بين الغنيمة، ويا لشقاء أمة كانت لغتها على لسان السلف افصح من نظرة المحب، فأمست على لسان الخلف أسقط من حجة القاصر. وكانت لها دولة فباتت وليس لها من اثر غير كتب تقتني كما تقتني التحف والعاديات. وكانت على شفتي أهلها أبتسامة فغدت على جبيننا عبوسة ودمامة. وكانت ألسنة آبائنا تتداولها للتفاهم فأصبح معظم إكليريكيينا يرددونها

ترديد الببغاءات لما تسمع من عبارات. وأصبحت ألسنة الشعب الأرثوذكسي والكاثوليكي والبروتستاني الفاصل كألسنة أصحاب برج بابل».

«فمن لنا بمن يبعث إلى أبناء أمتنا بآخر إنذار علَّهم ينتبهون لما تنطوي عليه جوانح الأقداؤ؟ ثم من لنا بمن ينشبهون بأساتذة المدارس في بلاد المجر مثلا فيعلمون النشء أن اللغة القبطية– لا المجرية– لغة الذات الإلهية؟ فيشبون على هذه العقيدة حتى إذا ما أتقنوا دراستها أدركوا أن تلك الحكمة إنما وضعها حكمائهم لحثهم على دراسة لغتهم، وتعلم لسان أمتهم الناطق بعظمة جامعتهم ومجد كنيستهم».

وظهرت كتب مبسطة لتعليم هذه اللغة، منها كتب نحو ومطالعة، ومنها قواميس وكتب ترجمة.

وأفتتحوا مدارس ليلية في القاهرة والأقاليم لتعليم اللغة القبطية مجاناً. وكانت المدارس القبطية تعلم اللغة القبطية لتلاميذها وتلميذاتها.

***

إلا أن المسيحيين لم يكونوا كلهم على رأي واحد بخصوص إحياء اللغة القبطية، فقد كتب أحدهم في مجلة المفتاح مقالاً جاء فيه:

«...[1] وغنى عن البيان أن هذه الأقوال كلها نظرية كلامية. فإن

(١) عدد مارس سنة ١٩١٢.

سعادة الشعوب في العصور الحاضرة وترقيتها في أمورها الأجتماعية والدينية لا يكون يحفظ لغة أماتتها الأيام».

«ولست أدري كيف تأتي العصبية من إبدال لغة حديثة بلغة قديمة. كما لا أدري لماذا تقبل الصلوات باللغة القبطية أو السريانية أو اللاتينية، ولا تقبل بالعربية أو الفرنسية أو الإنجليزية).

(وإذا وافقنا على أن اللغة القبطية كتبت بها علوم المصريين، ووافقنا جدلاً كذلك على أن هذه العلوم هي أساس الحضارة الحديثة؛ فهل يريد الدعوان إلى إحياء اللغة القبطية أن ينصرف الأقباط إلى درس الآثار، والأنعكاف على بحث الموميات والمسلات والبرابي؟).

(فلتبق اللغة القبطية لرجال الدين، ولينصرف الشبان الأقباط إلى إتقان اللغة العربية وإحدى اللغات الأجنبية، فإن ذلك أولى بهم وأجدر من صرف سنة أو سنتين في درس لغة كنائيسة عتيقة لا تؤدي إلى غرض ديني أو مادي، عاشت أو ماتت).

ونادى بعضهم بترجمة كل ما يتلى في الكنائس من الصلوات والقداسات والأبتهالات إلى اللغة العربية المفهومة من الشعب إلى أن يتم للقائمين بإحياء اللغة القبطية ما يريدون من تعميم هذه اللغة ونشرها. ومتى أصبحت مفهومة فلا بأس بأستعمالها دون غيرها. وقالوا إنهم يريدون تعلم اللغة القبطية ونشرها لأنها لغة آبائهم وأجدادهم فقط لا غير.

والملاحظ أن الذين نادوا بإحياء اللغة القبطية لم يقصدوا إحياءها بين النصارى فقط، بل كان غرضهم إحياءها بين المصريين أجمعين؛ المسلمين منهم والنصارى، وذلك لأن الألفاظ القبطية منتشرة على ألسنة الجميع مما يدل دلالة قاطعة على أن أصلهم واحد، فهم مصريون من نسل الفراعنة، وليسوا عرباً.

وعلى كل فإن هذه الحركة باءت بالفشل إذ لم يستجب لها النصارى أنفسهم فضلاً عن المسلسمين الذين لم يرحبوا بهذه الدعوة، بل قابلوها بالهزء والسخرية.

***

ودفعهم تعصبهم للقومية الفرعونية إلى محاربة المدارس الأجنبية، لأنهم رأوا فيها خطراً عظيماً على قوميتهم وعقيدتهم الأرثوذكسية، وهم محقون في ذلك. قلب رمزي [1] تادرس:

(ولو انتقلنا إلى القرون القديمة، وحولنا النظر إلى الشعب لرأيناه في أتم حالات الوحدة. ذلك لأن الأسلاف كانوا يتعلمون في أمكنة واحدة، على نسق واحد. ويهذبهم مهذبون من إخوانهم تهذيباً دفعهم بقوة الأختلاط والمعاشرة إلى محبة أمتهم ووطنهم، وإلى المحافظة على عوائدهم الأصلية، وعقائدهم الصحيحة وهي صفات وجيهة إن لم يستطع الأخلاف صيانتها فلأنهم أنكبوا على التعلم في المدارس الأجنبية

([1]) الأقباط في القرن العشرين جـ ١ ص ١٩،

حتى مزقتهم وأضعفت رابطتهم، وذهبت بجوهر قوميتهم).

«إن الفريق الذي تعلم في المدارس الأجنبية شب على ميول جديدة تخالف طباعنا وأخلاقنا وعاداتنا، لا من حيث رقيها وانحطاطها، بل من حيث تطورها بصورة لا تلائم حياتنا الحاضرة ولا المستقبلة. وهذا ما أشرب نفوس هذا الفريق وروح الكبرياء، ودفعه إلى أن ينظر إلى الفرق الأخرى بعين الأستخفاف والأحتقار، ويستنكف أن يجتمع عليهم في بعض أمهات المسائل العامة، أو يعد من مجموعهم، كأنه خليقة جديدة جاءت خيراً من الخلائق. ولا شك في أنه لولا تلك المدارس وتسلطها على أخلاقه وعواطفه قبل أن تختمر بين جوانحه وتصرفها فيها وفقاً لأهوائها وغاياتها بلا معارض ولا منازع لأنحطاط التربية العائلية؛ لما أنصرفت رغباته عن القيام بواجباته نحو أمته وبلاده، ولما نسى حقوقه الشرعية بينهم، ولما تعالى متكلنزا، أو متفرنساً، أو متمركناً).

(أما الفريق الذي تعلم علومه الأولية في مدارسنا الأميرية والأهلية فقد شب على نفس طباعنا وأخلاقنا. فعرف واجباته نحو أمته ووطنه. وأدرك كيف يعامل إخوانه، وبأي الطرق يستميلهم إليه لسابقة الألفة والأختلاط).

لا ريب في أن رمزي تادرس قد أصاب كبد الحقيقة. وربمت كانت هذه الحالة التي صورها المؤلف من الأسباب القوية التي دفعت الأرثوذكس إلى الترويج لفكرة القومية الفرعونية واللغة القبطية، وذلك لما

تعرضت له معتقداتهم من خطر الزوال على أيدي المدارس الأجنبية. وهذا الشعور بالخطر قد ترك أثره في أدبهم، فنظموا القصائد الطويلة في التغني بالأمجاد الفرعونية.

ومما يؤيد كلام رمزي تادرس أن عظماء الأقباط وأغناءهم الذين تعلموا في المدارس الأجنبية تخلوا عن جنسيتهم المصرية، ووضعوا أنفسهم تحت حماية دول أجنبية، وتعينوا وكلاء لقناصل تلك الدول. فلم يكن يخلو مركز من المراكز من وجود وكلاء لقناصل الدول الأوربية، وكلهم من المسيحين الخارجين على الكنيسة الأرثوذكسية، وعلى القومية الفرعونية.

ومما يؤيد كلم رمزي تادرس أن عظماء الأقباط وأغنياءهم الذين تعلموا في المدارس الأجنبية تخلو عن جنسيتهم المصرية، ووضعوا أنفسهم تحت حماية دول أجنبية، وتعينوا وكلاء لقناصل تلك الدول الأوربية، وكلهم من المسيحيين الخارجين على الكنيسة الأرثوذكسية، وعلى القومية الفرعونية.

***

وفكر «أخنوخ [1] فانوس» في تأليف حزب سياسي مسيحي. وكان

([1])ولد أخنوخ فانوس ببلدة أبنوب سنة ١٨٥٦ وتعلم بالمدرسة الإنجيلية بأسيوط. ثم سافر إلى بيروت وألتحق بالكلية الأمريكية وهناك سنة ١٨٧٠ وأنتخب بمجلس شورى القوانين سنة ١٨٨٣، وعند أفتتاح المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٤ أشتغل بالمحاة.

من زعماء الطائفة الإنجيلية، ولكنه أستهوى عدداً كبيراً من المسيحيين بما كان يظهره من التعصب ضد المسلمين، وبما كان ينادي به من وجوب تعيين النصارى في الوظائف الإدارية الكبري. وقد بدأت هذه الحركة سنة ١٩٠٨. قال إبراهيم حنين [(١)].

أخنــوخُ يــا بطــلٌ يــا فخــر أمتــه	أخنـوخ يـا رجـلٌ يـا خيـرَ مفضـالِ
أقســمت أنــك لا تخشــى مقاومــة	فأســس الحــزب تــوًّا دون إمهــالِ
وأعمــا بحــزم وعــزم غيــر مكتــرث	بمــا تصــادفه مــن حــزب جهــالِ
ثــابر علـى خدمـة الأوطـان معتمـداً	علــى الإلــه ولا تعبــأ بأنـــذالِ
لا تحفلـــنَّ بهـــم، لا تيأســـنَّ فهـــم	لا يفهمــون، وليســوا غيــر أطفــالِ
مــن كــل غــل ســفيه لا خــلاق لــه	ونــاقص العقــل ختــال ومحتــالِ
مصــر التعيســة يــا أخنــوخ نائحــة	مصـر العزيـزة ترثـى مجـدها البـالي
فـأنهض علـى عجـل أخنـوخ إن غـداًً	يغيــر الله مــن حــال إلــى حــال

(١) الوطن في ١٩٠٨/٨/١٤.

الباب الرابع

اختلاف الأقباط فيما بينهم وأثر ذلك في أدبهم

قامت حركة فكرية في المحيط الأرثوذكسي تهدف إلى إصلاح الشئون الدينية لتلك الطائفة. وكان أول صوت أرتفع صوت طالب بالمدرسة الإكليريكية اسمه «»ملطى

الذي عرف فيما بعد باسم القمص «مرقس سرجيوس» وأصله من مدينة جرجا. وقد ألتحق بالكتاب القبطي بالمدينة ثم بالمدرسة الإبتدائية بها ثم حضر إلى القاهرة ودخل المدرسة الإكليريكية.

وفي سنة ١٩٠٣ وقف خطيباً بين أخوانه مبيناً المستقبل السيء الذي ينتظرهم. وقد أفلح في إشعال نار الحماسة بين زملائه، فأجتمعوا وحرروا عريضة ضمنوها مطالبهم وهي:

١- اختيار المعلمين من كبار رجال اللاهوت.

٢- لا يعين قسيس لكنيسة إلا إذا كان من خريجي المدرسة الإكليريكية . وعلى البطركخانة أن تتكفل بمرتبات الوعاظ الذين يتخرجون من تلك المدرسة.

٣- تنظيم داخلية التلاميذ في طعامهم وكسائهم وكتبهم؛ بأن تقوم بها البطركخانة، حتى لا يهتم التلاميذ بأمر غير الدروس.

وهذه من غير شك مطالب عادلة ومعقولة، ولكن أصحاب الشأن لم يهتموا بها ولم يظهروا استعداداً لإجابتها. فأغتصب الطلبة وأضربوا عن تلقي الدروس، فطردتهم البطركخانة. ولما لم يجدوا من ينتصر لهم اضطروا إلى الرجوع إلى مدرستهم صاغرين. فألفت لجنة لمحاكمتهم، أو على الأصح لمحاكمة الطالب «ملطى».

وأنتهى الأمر بالعفو عنهم. وطلبوا من ملطى أن يتزوج ليرسموه قسيساً.

وفي سنة ١٩١٣ سافر إلى الخرطوم، وهناك أصدر مجلة «المنارة المرقسية» وأخذ يقارن بين نشاط الإرساليات الأجنبية في مصر والسودان، وما أنشأته من مدارس وملاجيء ومستشفيات ومكتبات. وبين تأخر طائفة الأقباط الأرثوذكس.

على أن الموازنة بين نشاط الإرساليات الأجنبية وتخلف الهيئات الأرثوذكسية موازنة غير سليمة. فهذه الإرساليات جاءت بإيعاز من الحكومات التي تتبعها لأغراض سياسية. وكانت هذه الحكومات تمدها بالأموال الطائلة. وكانت تتمتع بالأمتيازات الأجنبية، وتمنحها الحكومات المحلية في مصر والسودان الأراضي الواسعة دون مقابل إرضاء للدول التي ينتمون إليها. فماذا يفعل الأرثوذكس الفقراء بإزاء هذه الإرساليات؟

وتكلم «سيرجيوس» عما رآه في أنحاء السودان من أنحطاط الروح الديني بين الأقباط لضعف رجال الدين وجهلهم. وأبان الخطر المحدق بالكنيسة الأرثوذكسية من جراء تعميم مبدأ الرهبنة في جميع الوظائف الكهفوتية. وشرح بعض عيوب الكنيسة.

وحركة سرجيوس هذه ظهرت في نفس الوقت الذي ظهرت فيه حركة الإصلاح عند المسلمين التي كان يتزعمها الشيخ محمد عبده.

***

ولما حضر سرجيوس إلى القاهرة في إجازة أصدرت البطريركية أمرها بإيقافه عن عمله ومحاكمته أمام المجلس الإكليريكي في ٣-١٠-١٩١٣ وكانت التهم الموجهة إليه هي:

١- سيعه في تقسيم أبناء الكنيسة إلى قسمين، وأستعانته بأحدهما ضد الآخر لتنفيذ مآربه.

٢- أباح سر الأعتراف،

٣- تداخل في العائلات تداخلاً لم يكن الغرض منه نشر السلاح والصلح، بل بذر بذور الخلاف والشقاق والخصام.

٤- إصداره مجلة تدعى المنارة المرقسية، وأستعمالها ليس للتعليم والإرشاد ونشر العقائد الأرثوذكسية، بل بالعكس جعل دأبه الطعن

والتحقير على طقوي وتقاليد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بعبارات شائعة.

٥- تشهيره بحضرات الآباء المطارنة والأساقفة والرهبان، وباقي رجال الإكليروس في المجلة، وفي خطبه ومواعظه.

***

وقد أوشكت هذه القضية أن تحدث فتنة بين الأقباط في مصر والسودان. وهدد بعضهم بإعلان العصيان السلمي على رجال البطريركية. وأخيراً تدخل حاكم السودان في ضبالموضوع، فقبل البطريرك أن يعفو عن «سرجيوس» بعد أن يعتذر عن أستعمال الشدة فيما كتبه ضدر رجال الدين. وأعتذر، وأنتهى الموضوع.

***

ودعا بعض الأقباط إلى وجوب إلغاء الأديرة والرهبنة. لأن الظروف التي نشأت فيها الأديرة قد أنتهت. فالأديرة نشأت نتيجة لاضطهاد عنيف كان يصيب المسيحيين، فاضطروا إلى الهرب والسكنى بعيداً عن الحكام.

وكتب بعضهم منادياً بوجوب زواج البطريرك والأساقفة والمطارنة. وقد أنضم القمص سرجيوس إلى هذا الفريق.

مشكلة الأوقاف القبطية:

على أن أهم مشكلة قامت بين الأقباط هي مشكلة الأوقاف. وقد كان النظر في أمر هذه الأوقاف محصوراً في شخص البطريرك بناء على الفرمانات الشاهانية التي أعطت الطوائف المسيحية في الدولة العلية الأستقلال في إدارة أحوالها الشخصية.

وفي سنة ١٨٨٣ تغير مركز البطرك، وأنتقلت منه السلطة إلى مجلس تحت رآسته. على أن هذا الأنتقال لم يدم طويلاً، لأن الحركات التي قام بها الأقباط في سنوات ١٩٠٧، ١٩٠٨، ١٩٠٩ بشأن موضوع الأوقاف أتخذت شكلاً عدائياً لشخص البطرك، لم تظهر نتيجة لهذا النظام. وأنتهى الأمر بأن عدل بمرسوم صدر ١٩١٢ وقد أعاد هذا المرسوم السلطة إلى البطرك في معظم الأوقاف.

وحدث بعد ذلك أن تحول ديوان أوقاف المسلمين إلى نظارة سنة ١٩١٣ فهاج بعض الأقباط وتحرك فيهم الميل إلى انتزاع أوقافهم من يد الإكليروس. فأيد بعضهم فكرة ضم الأوقاف إلى الحكومة، وعارضها بعضهم الآخر.

وأشتد الجدل بين أنصار الإكليروس وخصومه على صفحات الجرائد والمجلات. وتبودلت التهم، وكثر التشنيع على رجال الدين وبخاصة الرهبان وكتبت مقالات كثيرة تتناول حياتهم الخاصة وسلوكهم بالطعن والتجريح.

فمن ذلك ما كتبته مجلة «فرعون» [1] لصاحبها توفيق حبيب (١٨٨٠- ١٩٤١) سنة ١٩١٣ «وقد ظهر أن أجد رؤساء الأديرة بدد خلال أعوام قليلة مائة وستين ألف جنية. ولما طلب منه أن يقدم مستندات الصرف لم يقدم إلا بما قيمته أحد عشر ألف جنيه، والباقي أتضح أنه ذهب إلى حيث لا يعلم بمقرها غير الله سبحانه وتعالى».

«وليست هذه الحادثة هي الوحيدة، بل وقعت حوادث كثيرة من هذا النوع من جميع الأديرة».

***

وكان رأي رجال الإكليروس ينحصر في أن أوقاف الأديرة يجب أن تبقى للأديرة، لأن شروط الواقفين نصت على ذلك بصريح العبارة. وقالوا أن أملاك الأديرة جمعها الرهبان بعرق جبينهم من عمل المقاطف والحصر والصلبان التي كانوا يبيعونها ويقبل الناس على شرائها على سبيل التبرك.

***

وقد وجهت جمعية الإخلاص القبطية إلى المسيحيين الأرثوذكس رسالة [2] جاء فيها:

---

(١) عدد أكتوبر سنة ١١٩٣،

(٢) الوطن في ١٩١٣/٩/٥، ١٩١٥/٨/٧.

«تعلمون حضراتكم أن أن مسائلنا الطائفية، وعقدة العقد، وعقبة العقبات عندنا هي مسألة الأوقاف، وحق لها أن تكون كذلك. إذ هي تلكم الأموال الطائلة، والكنوز الثمينة، والخيرات الكثيرة التي تضيع هباء منثوراً بين أيدي نفر قليل من رؤساء الأديرة، لا يشبعون جوعاً، ولا يروون ظمأ»،

«ولو صرف جزء منها في وجهه لما شكا فقير عوزاً، ولا حرم تلميذ علماً، ولما أعوز مريض دواء، ولما رأينا راعياً دينياً جاهلاً. حينذاك تقر العيون البابة، وتثلج الصدر المكتئبة. أما وجود هذه الأموال الطائلة في أيدي الرعاة الدينيين فمدعاة إلى إهمال واجباتهم المقدسة، والتفرغ إلى إدراة شئونها مما لا يجعل لديهم مجالاً للتبشير والعبادة. وقد ورد في الإنجيل: لا يقدر أحد أن يخدم سيدين: الله والمال».

وأخذ بعضهم يوازن بين الدور الإيجاب الذي تقوم به وزارة أوقاف المسلمين بإزاء المنشآت الإسلامية، والدور السلبي الذي يقوم به المشروفون على الأوقاف القبطية بإزاء أبناء الطائفة. فكتب أحدهم تحت عنوان [1] «أوقافهم وأوقافنا» مقالاً جاء فيه:

«أيتها المدرسة الإكليريكية. يا منبع العرفان، ومهد اللاهوت، ومطلع شمس حقائق الدين. لقد ظلموك فبخسوك حقك، وغضوا أبصارهم عنك، فتضاءل شعاع نوزك».

([1]) الوطن في ١٩١٣/٩/٦، ١٩١٥/٨/٧.

«أنت عروس مدارسنا، وزينة معاهدنا. عشقناك فلم تتدلَّلي، وبُحنا لك بما بين الجوانح فعطفت علينا».

«أنت المورد السائغ الذي نرتشف منه كئوس الدين، والمَعين الذي منه نستمد اليقين، والقرص الذي يرسل شعاعاً يهدي الضالين. فأنت جدير بالعناية، حقيقة بالإصلاح. ولكن أهملوك فخفنا عليك أن ينضب مَعينك، ويخبو نور علمك؛ فَنُساء فيك وأنت عزيزة علينا».

«حدا بنا إلى ذلك ما قالته الجرائد من أن وزارة الأوقاف تمد دار الوعظ والإرشاد التي أسسها صاحب مجلة «المنارة» بخمسمائة جنيه في العام تتعاون بها على إصلاح حالها لتخرج للأمة الإسلامية الكريمة وعاظاً يقوَّمون الأخلاق، ويحضون على التحلي بالفضائل».

«فبماذا تمد أوقافنا المدرسة الإكليريكية وهي التي تعلق الطائفة عليها الآمال في تخريج الوعاظ الأكفاء الذين ينهون عن الرذائل ويحضون على الفضائل؟».

***

وقد رفع إبراهيم حنين البباوي قصيدة إلى بطرس باشا غالي سنة ١٩٠٩ [(١)] جاء فيها.

هيــات أن يتــولَّى عزمــك الكَلــلُ　　　أو أن يسود على نفس لك المَلَل

(١) الوطن في ١٩٠٩/١١/١٥.

فأنـت أنـت ولا أطريـكَ ذو هِمَـمٍ ... شـمَّاء سـار بهـا يـا بطـرسُ المَثـلُ
ولستُ أجحدك الرأي السديد فلم ... يـزل يُحدَّث عنه الحادث الجَلَلُ
وكم وكم لك في حَلِّ المشاكل مِن ... علْـم غزيـر بـه قـد أُعجِيـت دُوَلُ

***

أجـل! فمـا تـرى فـي حـال طائفـةٍ ... تكاد تودِي بها الأسقام والعِللُ؟!
في كل يوم لها شكوى ونحن بها ... ندري وأنت بها أدرى فما العمل؟
مـاذا تقـول؟ ومـاذا تَرتئيـه لهـا ... فـي أمـر مجلسـها المِلـيَّ يـا بطـلُ
هـذا الـذي كانـت الأقبـاط تَنْشُـدُهُ ... واليوم قد دبَّ في أعضائه الشللُ
ولـم يَعُـدْ قـط مـن نفـع نؤمَّلُـهُ ... فيهم ولا سيما بعد الأُلَى اعتزلوا
يشكو لك البعض من أعمال بطركنا ... وليت شَعْريَ ماذا يفعل الرجل؟!
شـابت نواصيـه مـن أفعـالهم هَلَعـاً ... وكـادَ يُـدْرِكُ هـذا المجلس الأجـلُ
حال يفضيض لها حزنا إذا ذُكرتْ ... قلبي ويمنعني من ذكرها الخجلُ
يُغريهم البعض مدفوعاً وما علموا ... بأنه الذئب يبغى الشرَّ لا الحَمَلُ
إذا كتبنـا فوَجَّهْنـا نصـيحتَنا ... بالأعتـدال لهـم قـالوا بـه خَبَـلُ
أو إن خطبنـا فقلنـا الأتحـاد بـه ... وفيـه خيـر لكـم غَضُّـوا ومـا قَبلـوا
سـل إن أردت فقـد تُنبيـك قـاعتُهم ... كم مرةٍ حضروا أو كم قد أكتملوا
وكـم وكـم مـن مـرار عـدة خرجـوا ... منها ولم يفعلوا شيئاً كما دخلوا
هُـمُ ونحـن إذا رحنـا نعـاتبهم ... يوماً عتابَ غَيُورٍ مخلصٍ حملوا
وهكـذا سادت الفوضى ويا أسَفي ... حتى لقد سَخِرت من حولنا المللُ
وهكـذا أصـبحت فـي مصـر سَـيِّئَةً ... أحوالنُا ولقد ضاقت بنا الحِ ْيلُ
مـولايَ أمـرك بعـد الله محتـرم ... فينـار وإنَّـا لـه لا ريـب نَمتثـلُ

فَمُرُ بما شئتَ نفعلْه على عجل ... إني أرى ههنا لا يحملُ المَهَلُ
وليس يحسن في عهد الوزير بنا ... أَلاَّ نفوزَ، وأن لا يدرَك الامـلُ
فَكَّرْ وَدّعْنِيَ في سِرِّي وفي عَلَنِي ... أدعو بتوفيقك المولى وأَبتهلُ

وقال (١):

علامَ الخلاف؟ وفيم العنادْ؟ ... فإنّا ضللنا طريق الرشادْ
أمَا آنَ أن يتصافي الكرام ... ويرعَوْا عهود الوَلا والوِدادْ؟
أما آن أن نتآخَى جميعاً ... لنحظى بنيل المُنَى والمراد؟
صلوا إن جهلتم ولا تغضبوا ... وقولوا متى الأنشقاقُ أفاد؟
كفى الأنقسام ويكفي الجفا ... بحقِّ الجدود وربَّ العبادْ
كفانا جدالاً فليس بعدل ... ولا من صواب و لا من سَدَادْ
أيرضيكمُ الحال أَنّا غدَوْنا ... حديثَ التهكُّمِ في كل نادْ؟
أيرُضيكمُ أن نُعَابَ وأنتم ... رجاء لأمتكم واعتمادْ؟
سؤال مهم وأما الجواب ... فأكبر ظني يشرُّ الفؤادْ
وإلا فإني لزمت الحيادْ ... وكنت بوّاد وأنتم بوَادْ

وقال (٢):

تروح فلا غيرَ قِيلٍ وقالْ ... وتغدو وليس سوى سوء حالْ
فماذا تظن إذا الأمر دامَ ... على ما تراه وطال المِطَالْ
إذا ما أختلفنا فماذا عساه ... يكون المصير بنا والمآلْ؟
أليس بَوَاراً؟ أليس بِعَارْ ... أليس دماراً؟ أليس وَبالْ؟

---

(١)الوطن في ١٩٠٨/٣/١٠.

(٢)الوطن في ١٩٠٨/٣/٣٠.

تقـــول صــــحيح، فهـــل هكـــذا	تكـــون فعـــال كـــرام الرجـــالْ؟
وهــل هكــذا يعمــل المصــلحون؟	وهــل هكــذا المكرمــات تُنــاَلْ
بَمِيـــدٌ، بعيـــد، وألـــف بعيـــد	مُحـــالٌ محـــالٌ وألـــف مُحـــالْ
وكنــــتُ اـــقطع حبـــل الرَّجـــا	ءِ وأطلبُ من ساعتي الأعتـزالِ
ولكننـــي خفـــت مـــن أن تقـــولَ	دعـــوه ولـــم يســـتطع فأســـتقال
وأنـــت الـــذي قلـــت لـــي فلـــ	وف تراني صبوراً على كـل حـالْ
وأنـت الـذي قـد أجـزت المقـال	وأفســـحت للأدبـــاء المَجـــالْ
فـــأرجوك بـــالله يـــا ســـيدي	لتنشـر لـي اليـوم هـذا السـؤالْ
أصـــلحٌ يـــا هـــؤلاء جميـــلٌ	ويكفـيكمُ مـا مضـى مـن جـدالْ
أصـــلح فَنُثْنـــى علـــيكم ونُهـــدي	إلـــيكم عقـــود الثنـــا مـــن لآلْ
وإلا خـــــلاف نـــــويتم عليـــــه	فـــأُعلن رأيـــي بخيـــر مقـــالْ
وأُعـــرب عـــن شـــر آمـــالكم	وعمـــا تريـــدون غيـــرَ مُبـــالْ

وكانت مشكلة الأوقاف هذه سبباً في عزل الأنبا كيرلس الخامس ونفيه إلى الدير سنة ١٨٩٣ حيث بقى مدة، ثم سمح له بالعودة إلى مباشرة أعمال منصبه. ولما عاد أكثر شعراء القبط من مدحه، وقوبل عند وصوله إلى محطة القاهرة مقابلة حافلة من أنصار الإكليروس وكذلك كانت سبباً في عزل الأنبا يوساب سنة ١٩٥٥.

وفي ٣٠ أعسطس سنة ١٩٦٠ صدر قرار جمهوري بتنظيم الأوقاف القبطية نص على استبدال الأراضي الزراعية الموقوفة على

جهات البر العامة. وأستثنى القرار من أحكام قانون أستبدال الأراضي الموقوفة على جهات البر:

الأراضي الموقوفة على بطرك وبطريركية الأقباط، والمطرانيات، والأديرة، والكنائس وجهات التعليم القبطية، وذلك فيما لا يتجاوز مائتي فدان لكل جهة. ومثلها من الأراضي البور. وتدير هذه الأوقاف هيئة تسمى «هيئة أوقاف الأقباط الأرثوذكس» برياسة البطريرك.

***

ونادى بعض الأقباط بوجوب إلغاء المجالس الملية ومحاكم الأحوال الشخصية للأقباط. فكتبت صحيفة «الوطن» في ١٩١٥/١/١٥ تقول: «ظهر رأي يقول إن الطوائف المسيحية لا حاجة لها بمجالس ملية، أو بقضاء شخص مستقل عن القضاء العام، لأن المجالس الملية، أو نظام البطريكخانات ما هو إلا نتيجة إخلال الأحكام في الدولة العثمانية وعدم الثقة في إمكانها حكم رعاياها المختلفى الأديان على نظام عادل واحد ينفذ على الجميع. وما دام أن علة ذلك النظام قد زالت من مصر؛ فأحر بالنظام نفسه أن يزول هو أيضاً».

ولكن قضاء الأحوال الشخصية بقى في يد البطركخانة حتى سنة ١٩٥٥، إذ صدر قرار يجعله من اختصاص المحاكم الوطنية، كما ألغيت المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين.

الباب الخامس

العلاقات بين المسلمين والأقباط

وأثرها في الأدب القبطي

حينما أشتدت الحركة الوطنية أدرك الإنجليز مبلغ الخطر الذي يتعرضون له من جراء تلك الحركة. ورأوا من صالحهم أن يفرقوا بين أبناء الوطن الواحد، ويوهموا الأقلية بألا حياة إلا في ظل الأحتلال. فالأحتلال وحده هو الذي يحميها من خطر الأكثرية، ويضمن لها كافة حقوقها.

فإذا أنقسمت الأمة إلى معسكرين، وأنشغل كل معسكر بمهاجمة الآخر، نصرفوا جميعا عن المطالبة بالأستقلال والجلاء، وهكذا يضمن الإنجليز لنفوذهم البقاء والخلود في وادي النيل.

وقد وجد الإنجليز في بعض الأقباط من يأتمر بأمرهم، ويضع نفسه في خدمة سياستهم. فبدأت صحيفة مصر في مايو [1] سنة ١٩٠٨ تنشر مقالات تهاجم فيها المسلمين هجوماً عنيفاً. مثال ذلك ما نشر بإمضاء «ناطق بالحق» وجاء فيه:

«... فيظهر من كل ما تقدم أن الأقباط هم المصريون الحقيقيون أصحاب البلاد بكل معنى الكلمة. وأن جميع الذين وطئت أقدامهم

(1) مصر في ٢٢-٥-١٩٠٨.

أرض مصر من بدء الإسلام إلى اليوم سواء من العرب، أو الترك، أو الفرنساويين، أو الإنجليز ليسوا في الحقيقة إلا احتلاليون».

«وأن الأصل في الوطينة هو للأقباط بلا نزاع، فهم دون سواهم حافظوا على جنسية آبائهم وأجدادهم المصريين الحقيقين، وعلى دينهم أيضاً. فعجيب أن يرى القبطي نفسه مضطراً إلى ترك هذا الدين الذي حافظ عليه في أظلم الأوقات».

«فإذا قال قائل إن البلاد إسلامية؛ وجب أن يعد مارقاً عن الوطنية. وإن قولاً كهذا جعلنا نسمى البلاد عن حق بلاداً قبطية، والتاريخ أعظم مؤيد لهذا القول».

«وفي الواقع ونفس الأمر إن تسمية البلاد إسلامية فيه درس لحقائق الأقباط، وأمتهان لهم في بلادهم مما لا يرضاه واحد منهم».

ويلاحظ هنا أن الكاتب تجاهل الأستعمار الروماني الذي خضعت له مصر أربعمائة سنة. وتجاهل الحقائق التاريخية التي يظهر منها وقوف الشعب القبطي موقفاً سلبياً من الفتح العربي، فلم ينهض لمقاومته بل سارع إلى الترحيب بالعرب. وأما ديانة آبائهم وأجدادهم فلم تكن المسيحية، وإنما كانت الوثنية.

***

وكانوا يأخذون على المسلمين اهتمامهم بالشئون الإسلامية، وعنايتهم بتعرف أحوال إخوانهم في البلاد الأخرى. وحاربوا فكرة الجامعة الإسلامية لأنها كما قالوا تتنافى مع فكرة الوطنية. فكتب أحدهم تحت عنوان «لا وطنية مع الدين، ولا دين مع الوطنية» مقالاً جاء فيه:

«إنك إذا فتحت كل الصحف الوطنية في أي يوم شئت، وأية ساعة أردت؛ فلا ترى فيها ولن ترى إلى ما شاء الله شيئاً عن أحوال مصر، والطرق الموصلة لرقيها وأستقلالها؛ مما تراه فيها وستراه إلى يوم القيامة من الرسائل الممتلئة حماساً وشعوراً في ذكر الإسلام والمسلمين في الهند والصين، وفي أفريقيا وأوربا، والأسباب الموجبة لاتحادهم والدافعة ليصلوا إلى عز لا يداني، ومجد لا يرام. إذا رأيا ذلك ألا يأخذك العجب؟ ألا تقول لنا: هيهات إن أفلحتم ما دمتم مشتغلين بأمور غيركم وشئونهم».

ثم تكلم عن الخطابة السياسية فقال.

«فإذا خطب أحدهم خلط بين الدين والوطنية، فجعل الوطنية المصرية عبارة عن الجامعة الإسلامية».

***

على أن أشد ما وجه إلى المسلمين من المطاعن ما جاء في مقال كتبه قبطي مغمور اسمه فريد كامل، ونشرته «الوطن» في ١٩٠٨/٦/١٥ وهو:

«مضت دهولا، وكرت أحقاب، والظلم سائد في العالم، والعبودية محكمة في الأعناق. والناس يئنون من نير الخسف والأسترقاق حتى في ظل المدنية، وتحت ستار الحضارة، وفي نفس بلاد النور والعلم، وباسم القوانين والنظامات الدستورية».

ثم قال:

«فإذا رجعت إلى تاريخ الإسلام في عهد زهوه وعزه، وعظمته ومجده، وأردت أن تستخرج من الدفائن المكنونة سر ذلك العز الخالي، وسبب تلك العظمة البالية، وكشفت مواطن الرجال الذين قاموا بالفتوحات، وأطلعت على دخائل وخفايا القلوب والسرائر في تلك الأيام الماضيات؛ لعرفت ان الأثرة هي التي أراقت الدماء، وأن الأنانية هي التي أزهقت الأرواح وطوحت بالمهج الغالية في هوة البوار. ولأدركت أن الأعتزاز بالقوة، والأستهتار بالضعف هما الحجران اللذان بنى عليهما ما يسمونه مجد الإسلام».

«ولا شك أن دول أوربا المسيحية، ومملكة اليابان الوثنية هي أيضاً تعمل عمل الإسلام في هذه الأيام، فتسطو كل منها على الأمم الضعيفة وتنزع منها نعمة استقلالها بدعوى أنها تجود عليها ببركة المدنية فلا تلبث قليلاً حتى تحكم قدمها في الرقاب، وتنشب في أحشائها الأظافر والأنياب».

ثم ختم مقالته بهذه العبارة «ليصعق المخالفون فكفاهم تعذيباً للإنسانية. كفاهم تمزيقاً لجسمها، كفاهم ما أنزلوه عليها من مجالدهم الجهنمية، وليسقط المنافقون والمكابرون».

***

كان هذا المقال دافعاً الشيخ عبدالعزيز جاويش إلى كتابة مقاله الشهير المنشور تحت عنوان «الإسلام غريب في بلاده» في اللواء بتاريخ ١٩٠٨/٦/١٦ وهو:

«أتت جريدة الوطن أول أمس بجريدة عظيمة ضاعفت بها سخط الناس عليها. فقد لوثت في ذلك اليوم صفحاتها بما أعتادت أن تلوث به وجهها كل يوم من قاذورات المطاعن، وأدران المسالب جاءت بتلك المقالة لذلك الكويقب الذي شهر بنفيه كل التشهير بما سجل عليها من الجهل بالتاريخ، والكفران بنعمة الإسلام عليه وعلى أسلافه. إذ لو كان الإسلام على ما جاء في تلك المقالة؛ لما سمح لفريد كامل وصاحب الوطن أن يتنقلا من أصلاب إلى أرحام حتى ظهرا في ذلك الزمن بأرواح شيطانية تقمصتها أجسام بشرية».

«انتشلكما الإسلام أيها الجاهلان من أيدي الروم بعد أن عَبَّدوكما القرون العديدة، وأنتما كالأنعام تتداولكما الأيدي بالأستخدام، والألسن بالسب، والأرجل بالضرب».

«رميتم بأنفسكم في أحضان الإسلام فحقن دماءكم، وأستحيا نساءكم وأولادكم، وذاد عن حياضكم. ولو كان الإسلام كما ذكرتم لسحقكم سحقاً، ولمحقكم محقاً، ولذرى بقايا رفاتكم في الهواء، وطهر الأرض المصرية من طلعتكم السوداء، ولا ستأصل ألسنتكم فلا تنطقون، وفرى أصابعكم فلا تكتبون. ولكن قبلتم عهده فآواكم، وأخذتم بذمته فأيدكم بنصره، وألحقكم بأهله، إذ جعل لكم ما لهم، وعليكم ما عليهم. ثم أباح لكم أن تتولوا تدبير أحكامكم والقضاء فيما بينكم إلا إذا تراضيتم أن ترفعوا بعض شأنكم إلينا مختارين أحكامنا، راضين قضاءنا. فكيف إذن تتعذب الإنسانية كما تقولون أيها الأغبياء بين أناس ذلك دينهم الذي يدينون له، وشرعهم الذي يعملون به؟؟ ».

«أقمت في أحضان الإسلام زهاء ثلاثة عشر قوناً يعلكم وينميكم حتى أزداد عددكم، وأمتلأت بالمال خزائنكم. ولو كنتم عشتم ربع ذلك الزمن مع الإنجليز لألحقوكم بالجنس الأحمر في أمريكا، والصنف الأسمر في أستراليا. فكنتم اليوم كالحيوانات العجم في الفنادق والقفاز، ترعون الكلأ، وتأوون إلى الكهوف».

«ولو كنتم من رعايا الملك ليوبولد في بلاد الكونغو لاتخذ من شعوركم حبالاً، ومن جلودكم نعالاً، وازق أجسامكم بالسياط وأنتم ترسفون في الأغلال، وتنوءون بالأحمال الثقال. ولو كنتم من أيرلندا لنبذكم الإنجليز نبذ الحذاء الخلق، ولأخرجوكم من دياركم مهينين مقهورين».

«عشنا في هذه البلاد دهراً طويلاً فكنا كما شاء لنا الإسلام إخواناً في الوطنية، شركاء في المرافق الحيوية، نتجاوز ونتزاور، ونتشاور ونتسامر، ونتعاشر ونتناصر. فما الذي بدل شئونكم وجعلكم غير ما كنتم؟ ألعلكم رأيتم المحتلين على دينكم فأردتم أن تبيعوا منهم بلادكم وذممكم، وتلقوا بأيديكم إليهم؛ لتقطعوا تلك الأوصال التي أرتبطنا بها القرون العديدة. كذلك فليفعل الخونة المارقون! ».

«علت صيحتكم حتى بلغت عنان السماء؛ تريدون التسوية في المناصب العالية الإدارية. وتقولون إن الإسلام هو الذي ذللكم وعبدكم، وحرمكم من تلك المراكز السامية. ثم تبجحتم فوصفتم المسلمين بالضعف والذلة والمسكنة ثم تهدتموهم أن آن أوان القصاص منهم».

ثم ختمها بقوله:

«اخسآ أيها المستهتران فإن أمامكما لحسابا إن أغفلته الحكومة فإن من ورائه أحد عشر مليوناً من المسلمين لا يفرطون فيه».

«وها نحن أولئك قد نبهنا الحكومة إلى واجباتها، وذكرناها بقانونها وحذرناها عاقبة التلكؤ والتباطؤ، فإن عليها من المسلمين جميعهم لرقيبا، وكفى به حسيبا».

***

وقه هذا المقال على المسيحيين وقوع الصاعقة. قالت صحيفة الوطن في ١٩-٦-١٩٠٨:

«وقعت كتابة الشيخ عبدالعزيز جاويش رئيس تحرير اللواء وقعاً أليماً على كل إنسان حساس، ونفس حرة، وضمير شريف. وأصيب المسيحيون في كل مكان بذهول شديد من جراء المريع على أذهانهم، لتمثيلها بشرفهم تمثيلاً فظيعاً، ولأنها أنغمست في بؤوة الرذائل والفساد والتعصب. فأخرجت للناس حاوية لكل قبيح من اللفظ، دالة على كل فساد في التربية، ونذالة في الأخلاق، ورداءة في الطباع، وخسة في النفوس».

«إن المسيحيين في مصر الذين لم تر أعينهم في أجيال الأضطهادات القديمة وجها أسوأ من وجه ذلك الإنسان، ولا وقرت أسماعهم أقوالاً تضاهي الأقوال الأخيرة في قلة الحياء والأدب؛ صعقوا من تلك القبائح والمنكرات، وظنوا أن بالرجل مسًّا من الجنون، أو أنه كتبها وهو في ذهول، بعيد عن الصواب».

«هاج الناس وماجوا طالبين مقابلة الشرير بشره، ورد مفاسده إلى نفسه تخليصاً لما ألصقه بشرف أسياده من الإهانة والعار. ولكنا نقول لهم إننا مهما أبتعدنا من الأدب، ومهما فتشنا في قواميس السفاهة والقباحة فلسنا نجد نقطة من بحر ذلك الذي جاء من كلية «أكسفورد»

أستاذاً في الهجو والطعن، وشيخاً في السب واللعن. وأصبح بقاؤه في أرض مصر عاراً عليها، وعلى بنيها المسلمين قبل الأقباط».

«إن هذا الدخيل الذي قذفته إلينا بلاد تونس؛ أظهر كوامن حقده، وهو ينفث سموم تعصبه ضد المسيحيين المصريين بأقوال مثيرة للخواطر، محرضة على الفتنة؛ تدل على أنه راغب في إبادتهم عن آخرهم، آسف على بقاء الباقين منهم إلى الآن».

***

وهاجم «أخنوخ فانوس» الشيخ جاويش هجوماً مراً في مقال نشرته «الوطن» بتاريخ ٩-٧-١٩٠٨ جاء فيه:

«... فإذا كان الرومان قد عبَّدوا مصر، وهي محط العلم والفلسفة والمدنية الباذجة، وتناولت أيديهم وأرجلهم الأقباط بالضرب؛ فقد فعلوا بأجدادك أكثر مما فعلوا بالقبط. لأن قومك معروفون في تاريخ الأمم بالبربر، وهم أخلاط أقوام لا مجد لهم ولا سلطان. وقد تولى السيادة على قومك: الأسبان وغيرهم حى فتح بلادكم الإسلام. وقد صبرنا على ديننا، وأما قومك فلم يستطيعوا على دينهم صبراً، فباعوه قبل أن يسلموا فيه سببا».

«فإن أعتبرتم أحتضان الإسلام للأقباط تعبيراً؛ فقد أحتضنكم كما أحتضنتم.»

وقال الكاتب إن الشيخ جاويش ليس قرشياً، وإنما هو من البربر، لأن سحنته تدل على ذلك. ثم قال:

«وأما إن حسبت للدين فيه مزية تفاضل وفخار لمن دان به؛ فأنت اليوم في هذا مرجوح لا راجح، حيث تسود المسيحية على جميع بقاع الأرض بسلطانها ونفوذها. ولو نسينا شأننا الوطني كما نسيت، وفاخرنا كما تفاخر الصلعاء بشعر بنت خالها، وكما فاخرت؛ لهززنا عليك أعطاف الخيلاء الباطلة كما هززت. وما كان لك إلى دفع نيرها من سبيل».

«بماذا تفاخرنا يا هذا وقد ساد عليك وعلى قومك الإفرنج؟ وفي فمكم الكمامات، ترزحون تحت الأثقال ولا يفسح لكم أن ترغوا. فأين كان أسدكم الرابض يوم ناحت بكم النوائح، وبكت العيون؟».

«سلمتوها وأنتم صاغرون تضط مفاصلكم جزعاً، وترجف قلوبكم وجلا. فلم ترفعوا في وجوههم عصاً تبدون بها أثر الحية عن حمى أودار أوذمار فبأي وجه لنا تُعيِّرون؟»

«إن أسيراً مثلك ومثل قومك كمثلنا، وذليلاً كذلنا، ومقهوراً كقهرنا؛ لأحق أن يبكي مع بكائنا، وينوح مع نواحنا، لا أن يقف على تل باطل يقارينا ويطاولنا ويفاخرنا؛ وهو مثلنا أعزل؛ لا قوة له ولا طول ولا فخر. فإن ذلك أدعى لحنان رب السماء عليه وعلى قومه من الوقوف موقف

عُتُوٍّ كاذب، وزع خائب. تلبس جلد الأسد، وتهجم علينا مكابرة، عتوا وجبراً بلا داع للهجوم».

والحق إن الشعب التونسي لم يستسلم للأحتلال الفرنسي، بل ظل يجاهد حتى ظفر بأستقلاله. ولبث محتفظاً بقوميته ولغته ودينه على الرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلها المحتلون للقضاء على كيانه وشخصيته.

***

وقد سعى عقلاء الأمة من الفريقين لوضع حد لهذه الخصومة التي لا تعود على أحد بفائدة. فعقدت اللجنة الإدارية للحزب الوطني في ١٩٠٨/٦/٢٠ وأصدرت قراراً جاء فيه:

حيث إن عقلاء العنصرين أظهروا أستعدادهم للأتفاق، وأنهم لا يجدون محلاً للمناقشات الداخلية بين عنصري الأمة؛ الأمر الذي يمقتونه من أعماق قلوبهم؛ فبناء على ذلك:

«يعلن الحزب الوطني الأمة المصرية على اختلاف أديانها أنه لا يوجد شقاق بين عنصريها. وأن كل جريدة وشخص مهما كان دينه يثير الخواطر بنشر الطعن على الأديان، أو على أي عنصر من عنصري الأمة المصرية، أو يطلب ما يكون من ورائه إيجاد البغضاء والشحناء بين عناصر الأمة؛ هو وحده المسئول عن عمله؛ فهو لا يعبر إلا عن فكره الخصوصي».

«والحزب الوطني؛ كما هي مبادؤه؛ يمد يده لجميع المصريين من أقباط ومسلمين وإسرائيليين، ويدعوهم إلى الإنضمام للمطالبة بحقوق الأمة من مغتصبيها، ويرجو الجميع أن يغلق هذا الباب».

ونشر فريد كامل مقالاً حاول فيه أن ينفي عن نفسه تهمة الطعن في الإسلام تحت عنوان: «وجادلهم بالتي هي أحسن» جاء فيه:

«لا يعجب اللواء إذا رآني أتوج ردي بهذه الآية المأثورة لأني قد أكون أعرف منه وألم بآداب الإسلام في الجدل. ولأني أريد أن يقابل القراء بين ما أكتب أنا اليوم، وما كتبه هو بشأن مقالتي التي نشرتها بعنوان «الإنسانية تتعذب» فيدركون أن هناك فرقاً بين أدب الكاتبين، وأدب الكتابين».

«زعم اللواء بأن مقالتي تضمنت طعناً في الإسلام، وتحقيراً لشأنه. فإن كان يعني بالإسلام: الدين الإسلامي، فقد أخطأ في الفهم، وتسرع في الحكم، لأن عنوان المقالة ومتها وتضاعيف سطورها خالية من ذكر الدين ظاهراً وباطناً».

***

«إني لا أريد أن أحاسبه على أقواله التي قذف بها من حالق أدبه، فتخطت دائرة الأدب. ولا أريد أن أقابله بمثل ما يستحق أن يقابل. ولكني أقول: إن مجد الإسلام لا يقصد به مجد الدين، بل مجد الدولة. والقرائن الدالة على هذا القصد جلية في المقالة كلها من أولها إلى

آخرها. بل هو لو سمح لذاته بمراجعتها لوجد أني عطفت حالاً على الدول المسيحية، ودول اليابان الوثنية، وقلت عنهما ما قلت عن دول الإسلام، من حيث إن هذه الدول جميعاً في ماضيها وحاضرها سواء تعتز بقوتها، وتغتر بسلطانها فتكتسح الأمم الضعيفة».

«ولو كنت أريد الطعن في الإسلام؛ وحاشا لله أن أفعل ذلك؛ لما ألحقت به المسيحية والوثنية. وأنا فضلاً عن كوني مسيحياً أحترم الأديان، وألوم بشدة كل من يعرضها في سوق الجدل والمناظرة».

***

وأخذ بعض الشعراء من المسلمين والنصارى ينظمون القصائد في الدعوة إلى المحبة والأتحاد، وترك الخصومة، والتخلي عن الأحقاد. فمن شعراء المسلمين الذين قاموا بهذه الدعوة عبدالرحمن شكري. قال:

***

(١) الوطنفي ١٩٠٨/٦/٢٠

بنــي البهايــل مــن عليــاء شــاهقةٍ	ومحتدُ الصيد لا تمشي له الرَّيبُ [1]
إذا تنـاءى بكـم عـن مجـدنا نسـبٌ	فـأنتم فـي مراقـي مجـدكم عـرَبُ
إن التـآلف لـم يتـرك لنـا نسـباً	يلـوي بكـم دوننـا مـن دونـه نسـبُ

(١) البهاليل: جمع بهلول وهو السيد.

أمـا وقـومي وقـومي خيـر مَأْلُكَـةٍ … إذا حلفتُ تدانى المجد والحسب[1]

إذا الأواصـر لـم تجعـل لنـا سـبباً … فحرمـة الـود فيمـا بيننـا سـبب[2]

إذا هفـــوتم رمينـــاكم بمعتنـــة … فـإن هفونـا فـلا يملككـم الغضـب

يـدان إن يقطعونـا تقطعـوا يـدكم … كـذاك نحـن لنـا فـي عـزكم أَرَبُ

إنـي علـى شـغفي بالأهـل يطربنـي … أنـي إلـيكم إذا فـاخرت أنتسـب

فإن فَخَرْتُ فبالصيد الأولي أسروا … حـوادث الـدهر لـم يخـذلهم الغلـبُ

كانـت لهـم دولـة غـراء ثابتـة … في مُرْتَقَى العز تبغى شأوَها الشُّهبُ

كنتم تُطشلُّعون فوق النجم من أنَفٍ … حتـى تـركتم سُـهَيلا قلبـه يَجِـبُ(٣)

مـا ولـتمُ وصـروف الـدهر آبيـة … حتى أدانت على أيديكم النُّوَبُ(٤)

وقد علقت صحيفة الوطن على هذه القصيدة بقولها:

«لا يسعنا إلا الإعجاب بما تضمنته هذه الأبيات الرشيقة من المعاني الشائقة، والمغازي الرقيقة. ويا حبذا لو تسابق الشعراء؛ وهم ملائكة السلام؛ في بث هذه الروح؛ روح التناصر والأرتباط بين العناصر الوطنية في الأفئدة بما لهم من القدرة على امتلاك نواصي القلوب، وما في أيديهم من السلطة على المشاعر. والأمل عظيم في أن إخواننا المسلمين يقدرون هذا التسامح الذي بدأ أولاً من جانب الأقباط حق قدره، ويمدون إلينا أيديهم كما مددنا إليهم أيدينا».

(١) المألكة، بضم اللام وفتحها؛ الرسالة.

(٢) السبب: العلاقة والصلة.

(٣) يجب: يخفق.

(٤) صروف الدهر: حوادث الدهر ونوائبه.

إن قول صحيفة الوطن بأن التسامح بدأ أولا من جانب الأقباط غير صحيح. فقد كان كتاب الأقباط هم الذين بدأوا بالهجوم على المسلمين كما مر بنا، وظلوا على الرغم من الأيدي التي مدت إليهم، والمحاولات الكثيرة التي بذلت في جمع الشمل وتوحيد الصفوف، ظلوا يعملون على تفريق الكلمة والهجوم على المسلمين هجوماً مراً كما يظهر ذلك من المقالات المتقدمة، ومما سيجيء فيما بعد من الشعر والنثر.

وقال عبدالرحمن شكري من قصيدة أخرى [1]:

ومــن البليــة أن نكــون وجمعنــا ... متقســـم والشـــامتون بمرصـــدِ
هــل ســركم يــومَ اللجاجــة أننــا ... نـدني على الأحقـاد عاديـة الغـد
لــولا اللجاجــة والمــراء وعصــبة ... رصــدت لكــل مؤلــف وموحــد

***

يـا ابـن الفراعنـة الأولى ورثـوا العلا ... إرثَ الأماجـد سـيداً عــن سـيد
فلـم نرجـعِ الفضـل الصـريح ودولـة ... يمشي إليها الخطب مشي مقيد
يــدحو عليهــا العــزُّ حُســن رُوائــه ... ويــردد الإســعاد صــوتُ مغــرد
هـــذا مقـــال شَـــبْته بنصـــيحة ... فِتلـــقَّ فيـــه رِقـــة المتـــودد

***

وقال محمود رمزي نظيم [2]:

أيُّ شـــيء أحـــبُّ مـــن أن ترانـــا ... عيســـوياً مصـــافحاً أحمـــدياً

(١) الوطن في ١٩٠٨/٤/١٠.
(٢) الوطن في ١٩٠٨/٤/١٢.

رُفعــت رايــة الهــلال علينــا وجــرى النيــل باسْــمِنا وطنيــا
أيهــا الشـعب لا تكـن فـي شـقاق وتقــدم وكــن شــجاعاً. قويــا
واجتمــع واتحــد فســعدك وافَــى صــرت بالأتحــاد شــعباً قويــا
سـوف يبـدو صـوت مـن النيـل عـال يسـمع الغـرب منـه صـوتاً شـجيا
صــوت شــعب مجاهــد لحيــاة شــهد الله إنــه كــان حيّــا

ونظم أحمد شوقي كثيراً في الدعوة إلى الأتحاد بين العنصرين، وجادت قريحته بشعر رائع. مثال ذلك قوله:

أَعّهِــدْتنا والقــبط إلا أمــة لــلارض واحــدة تــروم مرامــا
نُعلــى تعــاليم المســيح لأجلهــم ويــوقرون لأجلنــا الإســلاما
هــذى ربــوعكم وتلــك ربوعنــا متقــابلين نعــالج الأيامــا
هــذى قبــوركم وتلــك قبورنــا متجــاورين جماجمــاً وعظامــا
فبحرمــة المــوتى وواجــب حقهــم عيشوا كما يقضي الجوار كراما

وقد كثر مثل هذا الشعر عند أحمد شوقي.

***

ونظم بعض الشعراء المسيحيين قصائد في الدعوة إلى الأتحاد، فمن ذلك قول عوض واصف [1]، في الأحتفال السنوي بعيد إنشاء جمعية الشبان المسيحيين:

أبناهــا عبدالمســيح وأحمــدٌ والموســوىّ ولــيس ثَــمَّ دّخِيــلُ

---

(١) الوطن في ١٩٠٩/١/١٩.

لا فـرقَ بـين العـالمين وأرضُـهم وطــن وحيــد والجميــع ســليل

مـاذا جنـاه النـاس فـي نزعـاتهم يـا صـاحبي ومـا جنـى التفضـيل؟

هل في السماء مذاهب وعناصر هــل ثَــمَّ إلا صــاحب وخليــلُ؟

فعــلام نتخــذ الخــلاف صــناعة فـي الأرض وهـي لُحِيظـةٌ وتـزولُ؟

وقال شاعر قبطي آخر من قصيدة طويلة:

فالــدين لله يــوم الحشــر يســألنا عنــه ويســألكم والخلــق تــزدحمُ

مـا للديانـة دخـل فـي صـوالحنا بتنــا شــطوراً وبــات الغيــر يعتــنمُ

شـطر يضـيع وشـطر سـوف يتبعـه والشـرق فـي هـرج والغـرب يقتسـمُ

مـا للنصـارى والإسـلام قـد غفلـت عن شرعه الصفح، لا جان ولا تُهَمُ

مـا للجرائـد باتـت موقـداً وغلـت مراجـل الحقـد فيهـا وهـي تبتسـم

تخفي اللهيبَ عن الأعيان، تنكره وكــل ســطر بــه الأحقــاد تضــطرم

حمقـىَ تخـط بأفصـاب علـى ورق منهـا السـموم بهـا الأعمـار تنصـرمُ

رُمنـا الـودد، وقـالوا نعـم مـا طلبـوا شـدنا وشادوا على صرح ومـا نـدموا

لـولا الدعامـةكانت خدعـة لَبَقـتْ وكــل دار علــى رمــل ســتنهدم

***

وقال إبراهيم حنين تحت عنوان «القبطي يعاتب أخاه المصري العربي، ثم يتصافحان للسلام».

تعـالَ يُعاتِـبْ بعضُـنا الـبعض أَوَّلاً إذا كـان هـذا العتـب شـرعاً مُحَلَّـلاَ

ولــيس لشــيء مـا عتـابي وإنمـا لتعـرف مَـن منـا الـذي قـد تحـولا

وأي فتــى منــا أطــاع زعيمــه ولبــيَّ نِــداهُ دون أن يــتعقلا

كــذلك مَــن منــا أسـتبد برأيــه فــلاذ بأكنــاف الخصـومة والقِلَـى

ومن ذا الـذي أضغى لقـول شـقيقه ففسَّــرَ معنــاه بعكــسٍ وأَوَّلاَ

وأقسمَ إلا أن يناصبه العدا فأغمط من حق له وتعلّلاً

ولم يَدَّكِرْ عهداً ولم يرعَ حرمة من الوُدَّ ما أبهى وأسمى وأجملا

فشنَّ عليه غارة بعد غارة وظل على هذا العناد مُعَوَّلا

ولم يتركِ الأحقاد حتى آثارها كما لم يَدَعْ بابا إلى الهجر مُقفَلاً

وكم راح يرميه بكل نقيصة وأنحَى عليه لائماً مُقوَّلا

وهذه القصيدة ليست من باب الدعوة إلى الأتحاد، وإنما فيها أتهام للمسلمين بأنهم انقادوا انقياداً أعمى إلى بعض زعمائهم، وأنهم تعمدوا مواجهة المسيحيين بالخصومة، وأنهم هضموا حقوقهم، ولم يحفظوا عهد الإخاء والمودة الذي يربط بينهم وبين المسيحيين.

والحق إن شعراء المسيحيين لم يتجاوبوا كلهم مع شعراء المسلمين، بل لزموا جانب الصمت، أو نظموا القصائد في أتهام المسلمين بالظلم، والدفاع عن مزاعم أبناء طائفتهم. وذلك لأن نفوس الأقباط لم تكن قد تهيأت لقبول دعوة الأتحاد، وهذا راجع إلى دسائس المحتلين.

***

ولا شك في أن بعض عقلاء الأقباط وبخاصة مرقس حنا، وويصا واصف بذلوا جهوداً كبيرة لخلق جو تسوده المحبة والمودة، ولكن جهودهم لم يكتب لها النجاح في ذلك الوقت.

فمثلا حدث أن دعا أحمد لطفي السيد المسلمين إلى الأحتفال بعيد الهجرة النبوية في ١٣-١-١٩١٠ فكان من ضمن الحاضرين مرقس حنا الذي وقف وألقى خطبة جاء فيها:

«هذه السنة- يعني السنة الهجرية- ليست سنتكم فقط، بل سنة المصريين أجمعين، لأننا نرى هذا الأحتفال قد ضم بين جوانبه الشبيبة المصرية كلها. فقد أحتشدت فيه الشبيبة الإسلامية، وشاركتها الشبيبة المسيحية للأحتفال برأس السنة الهجرية لدين شريف مبدؤه أن محبة الوطن من الإيمان».

«وعلى هذا المبدأ أقول إنني مسلم ومسلم، جئت لأقول لكم كلمة صغيرة في مبناها، كبيرة في معناها؛ وهي: مهما قيل ويقال عن تقاطعنا وتدابرنا فنحن إخوان في الوطنية».

«إذا حدث خلاف بين مصريين ومصريين فلا يعد ذلك دليلاً على عدم وجود إخاء، وإنما هو من مستلزمات الحياة».

«أنا واثق بأننا لا نحيد كلنا- مسلمون وأقباط- عن ذلك المبدأ القويم، وخو أننا كلنا إخوان في الوطنية».

وبعد أن أنتهى من خطابه نهض الشيخ عبدالعزيز جاويش ونوه بالأخوة الوطنية التي تربط بين عنصري الأمة، فقوبلت كلمته بتصفيق

حاد. ثم إن جريدة الوطن فتحت صدرها لنشر الخطب والقصائد التي ألقيت في الأحتفالات بعد الهجرة النبوية.

ولكن جاء مقتل بطرس غالي في ٢١-٢-١٩١٠ فبدد تلك الجهود الطيبة. فعادت الحال إلى أسوأ مما كانت عليه. ومع ذلك فإن عقلاء الأقباط لم يتخلوا عن الدعوة إلى الصفاء.

***

قلنا إن الدسائش الإنجليزية هي التي أوجدت تلك الخصومة التي نشبت بين العنصرين. وقد وضع أخنوخ فانوس نفسه في خدمة تلك السياسة. قال سالم سيدهم تادرس في صحيفته «التيمس [1] المصري» سنة ١٩٠٨ تحت عنوان «كيف يخونون؟» ما نصه «لقد أصبحت- يعني أخنوخ فانوس- الشخص الذي إذا مر في الطريق قلنا: هذا أحد صنائع الإنجليز في مصر، والآلة التي يحركها المقطم. أتق الله أيها المجتهد في الباطل».

وكتب مقالاً آخر جاء فيه:

«ولكني أقول فقط إن مصلحتها- أي أنجلترا- دوام الحال الحاضرة، وبقاء الأحتلال إلى الأبد. وهي تستخدم لذلك بعض الخونة الذين لا ضمير لهم يردعهم عن العمل المتواصل لقتل روح الوطنية».

(١) عدد سبتمبر سنة ١٩٠٨.

«هؤلاء أعداء مصر، وهم لسوء الحظ من أبناء مصر، فيجب أن نتبرأ منهم، لأنهم بسوء فعالهم أنفصلوا عنا، فلا هم منا، ولا نحن منهم».

«يستخدم هؤلاء الخونة في صدر أمهم الحنون سهمين جارحين: هما سهم الدين وسهم السياسة. وهم يمزجونهما مزجاً ظاهراً، ويلصقون ذلك بأقوى حزب مصري قام إلى الآن، وهو الحزب الوطني».

***

وقد أنشأ أخنوخ فانوس هيئة سماها «مجتمع الإصلاح القبطي» وجعل وظيفتها إشعال روح الفرقة والخصومة بين العنصرين في جميع جهات القطر. وقد كتب ويصا واصف مقالاً في اللواء بتاريخ ٤–٦–١٩٠٨ محذراً إخوانه المسيحيين من مجتمع الإصلاح، ومما جاء في هذا المقال:

«... تشكلت جمعية سميت بمجتمع الإصلاح القبطي. فأنتخب لها رئيس الطائفة الإنجيلية– يعني أخنوخ– رئيساً. ثم دعتنا إلى الأنتظام في سلكها فسألناها: ما غرضك؟ وإلى أي شيء ترمين؟ إن كنت حزباً سياسياً فنحن لك أعداء ألداء، لأن السياسة يجب أن تكون بعيدة عن الدين. وقد وصلنا والحمد لله إلى أن جميع الأحزاب السياسية المصرية جعلت قاعدتها الأساسية التمييز بين الدين والسياسة، فلا معني لوجود حزب سياسي قبطي».

«فأجابت: إني بعيدة عن السياسة، والغرض من تشكيلها إصلاح الشئون الطائفية، بدليل أن كثيرين من أعضائي موظفون عموميون».

«فأعتراضنا عليها أعتراضاً وجيهاً؛ إذ قلنا لها إن للأقباط المصريين ثلاث طوائف، إحداها: أرثوذكسية، والثانية: بروتستانتية، والثالثة: كاثوليكية. فإصلاح أي طائفة تقصدين؟ وأنت تقولين إن بين أعضائك الأرثوذكسي، ورئيسك بروتستانتي. فلم تجبنا على هذا الأعتراض».

«إن مجتمع الإصلاح هذا اس على غير مسمى، لأني لا أحسب حساباً لبعض خدمة السكة الحديد الذين لم يدخلوا فيه إلا لعلمهم طبعاً بأن المسائل السياسية محرمة على المجتمع– يعني مجتمع الإصلاح».

***

إلا أن أخنوخ أستطاع أن يتملق عواطف المسيحيين ويظهر نفسه بمظهر الغيور على مصالحهم، المدافع عن حقوقهم. فرجحت كفته، وجاءته برقيات التأييد من أبناء طائفته في القاهرة والأقاليم. وقد نشر في صحيفة مصر كتاباً مفتوحاً إلى الأمة القبطية جاء فيه [1]:

«مجتمع الإصلاح القبطي العام يطالب الحكومة بالمساواة بين الأقباط وإخوانهم المسلمين في جميع الحقوق بلا تمييز بسبب الدين،

---

(١) الدستور في ١٨–٥–١٩٠٨.

وأن تعطي الوظائف مهما كانت لأرباب الكفاءة والأستحقاق من المسلمين والمسيحيين بصرف النظر عن الأديان والمذاهب».

فتلقى أخنوخ عدداً كبيراً من برقيات التأييد من المسيحيين في جميع جهات القطر، وأخذت صحيفتا الوطن ومصر تنشران هذه البرقيات في صدر صفحاتهما.

وكانت صحيفة اللواء لسان حال الحزب الوطني قد أهملت كل إشارة إلى مثل هذه الحركات منذ مقال «الإسلام غريب في بلاده» فلم ترد على الصحافة القبطية فيما أثاره أخنوخ فانوس بخصوص موضوع الوظائف. إلا أن صحيفة «الدستور» لصاحبها محمد فريد وجدي فتحت صدرها للرد على المسيحيين. فشرع عباس محمود العقاد ينشر المقالات الطوال سفها مزاعم أخنوخ فانوس ومن لف لفه وحذا حذوه من حمقى النصارى. قال تحت عنوان «مستقبل مصر على يد المسلمين».

«زين الغرور لهذه الفصيلة من الأقباط أن يوفدوا إلى إنجلترا وفداً يترجم عن إحساسها. وما هو إحساسها؟ إحساسهم أنهم يؤثرون العبودية على الأستقلال، وأنهم لا يعدون المطالبة بحرية مصر إلا هوساً وجنوناً. وأنهم مدلهون بحب الإنجليز، يضعونهم في هياكل آبائهم الأولين، ويعبدونهم آلهة من دون الله. كل ذلك ليكون أحدهم في يوم من الأيام مديراً أو وكيل مديرية يمضي الأوامر، ويعيد إلى ذاكرته مجد الفراعنة».

«ووهموا أن في ذلك وقيعة بالمسلمين. وهم لقصر نظرهم يحسبون أن المسلمين أعدائهم الالداء، وضرتهم في وادي النيل. وفاتهم أن إنجلترا تعلم قبل سواها أنها لم تدع في يد المسلمين نفعاً فيحبسوه، أو ضراً فيطلقوه. وأن الأمر في مصر بين الإنجليز، إن شاءوا رفعوهم إلى السماك، وإن شاءوا خفضوهم إلى الحضيض. وما حملهم على الأستهانة بهم وأستضعاف شأنهم إلا تذبذلهم وتزلفهم إلى كل من يتوهمون أن بيده نفعاً يرجى، أو ضراً يخشى حتى أصبحوا مثلاً في الخسة والأستمانة وموت الوجدان».

«هذه الفئة يتبرأ منها الأقباط قبل سواهم. فإن كان المسلمون يأنفون أن يكون في أبناء وطنهم مثل هذا الصغار، فإن الأقباط ألصق بهم، لأنهم عليهم من بابين: بات الوطنية وباب الدين».

***

وكتب مقالاً [١] آخر جاء فيه:

«يريد الأقباط أن تراعى الكفاءة في تعيين المديرين. ومعنى ذلك أنه لا بأس في أن يعين كل المديرين من الأقباط ما دام فيهم أربعة عشر رجلاً يصلحون لتولي هذه الوظيفة. وغداً يكون للأقباط مديرون ينصرفون بكلياتهم إلى تعضيد الجمعيات القبطية، وحشر التلاميذ إلى مدارسها، وإهمال كل ما عدا ذلك؛ كما يفعل موظفو الأقباط الآن».

---

(١)الدستور في ١٣-٨-١٩٠٨.

«ثم يعيدون الكرة بعد أيام، ويرمون المسلمين بالتعصب لأنهم لا يرضون عن تعيين وزير الداخلية من مديري الأقباط، كما هو الحال في المديرين المسلمين. فيضطرون إلى إجابتهم لأنهم لا يجدون حجة عليهم بعد أن فتحوا لهم الباب. وهناك الطامة الكبرى».

«يعمل هذا الوزير ما في وسعه لمحو أثر المسلمين من وزارته، واستبدالهم بأبناء دينه القبطي. لا يدع فرصة تمر إلا إذا أنتفع بها واستعملها في خدمة طائفته، وإن كان في ذلك ضرر بغيرها».

«إن راق هذا للمستسلمين فليصروا على ما هم فيه من السكوت والإغضاء. أما الأقباط فهنيئاً لهم ما يسلبون من حقوقنا، وهنيئاً لهم ما ينقصون من أطرافنا ونحن نتمتع بخيالات الحكمة والوفاق وأتحاد العناصر الوطنية، ولا أرى لها في عالم الحقيقة أثراً».

وكتب تحت [1] عنوان «كيف تذهب الأرواح والأموال في مصلحة السكة الحديد؟».

«... هذه سنة مطردة في مصلحة السكة الحديدية. فلا يجوز أن يبقى المسلم وإن أتقن عمله، وراقب الله فيما يعهد إليه. فمسيحية العامل تبرر سرقته واختلاسه، وإهماله وتدليله، وكل نب يأتيه مهما كانت تبعته جسيمة. وإسلامه جعل حسناته سيئات، وأمانته خيانة، وحذقه سخفاً، وجده توانيا وجموداً، وأدبه قحة، وطاعته عصياناً وهلم جرا».

---

(١)الدستور في ١٧-٦-١٩٠٨.

«هذا هو الحق الصريح الذي لا نرى أن غيره أولى بالظهور منه. ولذلك قلناه لعله يقنع قوماً لم يحسنوا إدارة الأعمال الكتابية فتطلعوا إلى الإدارية منها، وهي التي يعوزها العدل، وسعة الصدر، والترفع عن السفاسف، والنظر إلى الأمور بعين المصلحة العامة مع العلم وغزارو المادة. وقلما تجتمع هذه الصفات في رجب لا يحرك يده إلا لنفع أبناء ملته، وإيذاء غيرهم؛ مسوقاً إلى ذلك بدافع التعصب والحقد على المتدينين بغير دينه».

***

وشرع كتاب النصارى وشعراؤهم يردون على كتاب المسلمين فيما يتعلق بالوظائف. مثال ذلك ما نشرته صحيفة [1] الوطن بإمضاء حقوقي حر:

«لا تودون أن نرقى إلى وظيفة إدارية لا هي في العير ولا في النقير. فهلا سمعتم أو قرأتم عن تاريخ أسلافكم الذين قلدوا الأقباط أسمى المراكز العالية سواء كانت ملكية أو عسكرية؟» ثم أستشهد الكاتب ببعض كبار الموظفين الأقباط في عهد الدولة الفاطمية والأيوبية.

ثم قال «أما الآن فقد منع القبطي أو حرم عليه أن يكون مديراً بدعوى أنها وظيفة إسلامية لا وطنية، كأنه محتم على المدير أن يؤذن

(١، ٢) الوطن في ١٠، ١٢-٥-١٩٠٨.

فوق المأذنة قبل الصلاة، أو يكون إمامهم وقت الصلاة، أو يقوم فيهم خطيب الجمعة».

«على أن الحقيقة أن القبطي حرم من الوظيفة الإدارية لأنه قبطي وليس لأنها دينية كما أثبت. فهل بعد ذلك نرجو مجلساً نيابياً وقد دسنا بأقدامنا على العدالة والقانون؟».

وكتب آخر [١] تحت عنوان «واجبات الأقباط وحقوقهم» مقالاً جاء فيه:

«ثقوا أن الأقباط إن صمتوا اليوم لا يصمتون غداً. وقد رأوا أن الاجانب الذيين أستوطنوا الدولة الرومانية في بدء نشأتها حصلوا على الحقوق التي حرم منها الوطنيون، فكيف بهم وهم أبناء البلاد؟».

«لا يهدأ للأقباط فكر، ولا يطمئن لهم بال حتى ينالوا مطلبهم. وكيف تسوغون لأنفسكم أن تسدوا علينا منافس الحرية والحياة؟ أطبقا لقواعد تنازع البقاء؟ تنازع البقاء يقتضي أن تكون أبواب الرزق مفتوحة للجميعن وأن الفائز هو السابق».

«فإذا خرج تنازع البقاء من هذه الحدود؛ كان توحشاً لا شك فيه، لأن الأرواح تصبح مباحة، والأموال تنهب وتسرق، وغير ذلك مما نستقرؤه من الحوادث».

---

(١) الوطن في ١٢، ١٩٠٨/٥/١٠.

«أما نحن الأقباط فلا عار علينا إن قلنا إن اللو في أهتضام حقوقنا واقع علينا. إن تفرق قلوبنا، وعدم أتحاد كلمتنا، وسكوتنا وجبيننا ويأسنا. إن حب الذات، وحب الرياسة، إن عدم وجود روح الحياة فينا ومحاربتنا لأنفسنا، وأكلنا بعضنا بعضا كما تأكل الأسماك بعضها، وبعبارة أوضح إن ضعف رابطتنا الطائفية؛ كل ذلك أوصلنا إلى هذه الحالة التعيسة».

«إن العيب فينا ومنا. فيجب أن تتلافى هذه الأمراض وإلا سقطنا سقوطاً لا قائمة لنا من بعده. يجب أن نتحد ويلتصق بعضنا ببعض فنكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً».

«أنهضوا وألفوا الوفود لتطرق أعتاب سمو خديوينا المعظم. وإن لم تنجحوا فعليكم بالدول الأوربية ناصرة الإنسانية، وأولهن الدولة الإنجليزية».

***

وحدث أن نشر علي يوسف الجريدلي أقتراحاً على صفحات المقطم بتحديد نسبة للموظفين المسيحيين بمصلحة البريد، وذلك لأن معظم موظفي هذه المصلحة كان من النصارى. فرد عليه مسيحي بإمضاء «قبطي حر» قائلاً:

«حضرة[1] الأحمق علي أفندي يوسف الجريدلي».

---

(١) الوطن في ١٩١٠/١/٢٢.

«قرأت أقتراحك السخيف المنشور في جريدة المقطم السافلة بكل أستغراب وإني أتعجب من تعصبك القبيح حيث إنك تريد بهذا الأقتراح أن تحرم أسيادك الأقباط الموظفين بالبوستة من حقوقهم، مع أن حقوقهم هذه محفوظة لهم ومثبوتة بأقوى البراهين يا أبن الكلب يا حمار! ولكن قاطع الله تعصبك وتعصب أمثالك، ولعنة الله عليك وعلى المقطم أيضاً الذي وافقك على هذا الأقتراح ونشره لك. وإني أقول لك ولغيرك من المتعصبين إن الوظائف التي نحصلها في البوستة قد تحصلنا عليها بالأستحقاق والكفاءة، لأننا لسنا مثلكم كسالى بهائم».

«وإني وكل قبطي ينظر إلى أقتراحك هذا بكل أحتقار، حيث إنك تقصد به يا ابن الكلب أن المسلمين يهضمون حقوقنا، ولكن أقول لك: أنفقلوا، أنفلقوا، أنفلقوا».

وعجيب جداً أن تنشر صحيفة الوطن مثل هذا الكلام، ثم تتهم المسلمين بسوء الأدب وقلة الحياء!!

***

وقد إنحاز بعض الشعراء المسيحيين إلى الحمقى من أمثال أخنوخ فانوس وجماعته. فهذا أحدهم ينشر قصيدة في الوطن [1] بإمضاء الشاعر المتألم، جاء فيها:

---

(١) الوطن في ١٩٠٨/٨/١٩.

أمـا الحقيقـة فـي رأيـي ومعتقـدي فإنهـا الشـمس لا تخفـى علـى أحـدِ
لكنهـا الـنفس قـد ينتابهـا غـرض حينـا كمـا قـد تصـاب العـين بالرَّمـدِ
قمنا نرجَّى التساويَ في الوظائف لم نطلب سوى العدل، لم ننقص ولم نزدِ
قـالوا جنتـتم وقـاموا ضـد مطلبنـا بحجـة الـدين عـن غـل وعـن حسـد
قلنـا: ولا نبتغـي غيـر الكفـاءة مـن شرط عـن الحـق لـم نعدل ولـم نَحدِ
قـالوا: كفـرتم، وغـالوا فـي مسـبتنا مـن كـل لفـظ ومعنـى سـافل ورَدِي
قلنـا: أتقـوا الله فيمـا تنطقـون بـه وأنـت يـا شـيخهم يـا علَّـة النَّكَـدِ
هـاجوا علينـا ومـاجوا صـائحين بنـا ياليـت فرعـون لـم يولـد ولـم يَلِـدِ
قلنـا: مطالبنـا يـا قـوم عادلـة يـا قـوم حـق، فقـالوا: نسـبة العـددِ
قلنـا أخيـراً، ولا زلنـا نقـول لهـم إن البعوضـة تـدمي مقلـة الأسـدِ
ذُكـاءُ فيمـا نـرى دومـا إذا أحتجبـت يومـا تعـود إلـى الإشـراقِ يـوم غـدِ
وهـي الحقيقـة لا تخفـى وإن خفيـت فلـيس يـا سـادتي إلا إلـى الأمـدِ
هـو التعصـب قـد أعمـى عيـونّهمُ وهـو التحـزب للأديـان قـد وقـدِ
فحسـبنا الله فـي حـزب سياسـته لـم تُجْـدِ منفعـة، كـلا ولـم تفِـدِ
لا بـدع إن هتكـت أسـراره وإذا أخنـى عليـه الـذي أخنـى علـى لبَـدِ
فطالمـا نصـحته النـاس مشـفقة لكنـه لـم يطـق سـمعاً ولـم يُـرِدِ
وإنمـا الـذنب للمرحـوم أسسـه علـى طريقـة فـرق بيـنهم تَسُـدِ

وفي هذه القصيدة أتهام للمسلمين بالتعصب الذي أعمى عيونهم كما يقول الشاعر. وأتهام للحزب الوطني ومصطفى كامل. ولكن هل كان الحزب الوطني يمل حرمان المسيحيين من حقوقهم؟ هل كان الحزب الوطني يعين الموظفين ويرقيهم؟ ويقول الشاعر إن مصطفى كامل جعل شعاره التفرقة بين عنصري الأمة ليعود عليه نفع ذلك. وهذا كلام غير سليم، لا يصدر من عاقل منصف. وهو نوع من الهراء الذي لا يستحق

المناقشة. وهو يقول إن الوظائف لا ينبغي أن تراعى فيها النسبة العددية لأن العبرة ليست بالكثرة والقلة. فقد تكون القلة أشد مضاء وأعظم قوة من الكثرة. وعلى كل فهذا أحتمال قد يصح وقد لا يصح. وهو دون شك غير صحيح.

***

وقال جرجس [١] البياضي.

ماذا جرى في الكون حتى كشرُوا ... للقبط عن ناب من الثعبانِ
نزعوا الحياءَ وجاهزوا بعداوة ... حسبوا بها ربحا من الخسرانِ
خفروا لنا ذمم الجوار وخالفوا ... عهد الولاء وصحة الوجدان
أَأُساة مصر المدّعين قيادها ... أكذا تكون مباديء العمران؟
هل لم يرحب قبط مصر بفتحكم ... للقطر حين حللتُمُ بأمان؟
فبأيَّ شرع تنكرون حقوقهم ... وتقابلون الوُدَّ بالعُدْوَانِ؟
أقسمت. لو عاد الزعيم لدارِنا ... لرثى البلاد بمدفع هَتّانِ (٢)
أين الذي أوصى النبي به من!! ... معروف للأقباط والرهبان؟
كانت مبادؤه مساواةَ الأَنا ... مِ بكل حق دون ما رجحانِ
وكذا المواثيق التي خلفاؤه ... قد أبرموها خشية الطغيانِ
هذى العهود. بنصها محفوظة ... قد قصَّرَتْ عنها يد النَّسيانِ
لولا الوثوق بقبط مصرَ لما رأوا ... فيهم حليفاً صادق الإيمانِ
فالقبط أقدم أمة ترعى الوفا ... وتجود بالأرواح والأبدانِ
كم في سبيل أمانة وصيانة ... ضحَّوْا من الأَبطال والشجعان

---

(١) مصر في ٧-١١-١٩٠٨.

(٢) يقصد بالزعيم مصطفى كامل.

مـا أبعـد الشـحناء عـن غايـاتهم مهمــا تغيــر طــوارق الحــدَثان

مـا للمــذاهب والسياســة إنمــا مصـــر لنـــا والـــدين للـــديّانِ

الــدين حــرٌّ فــي المعابــد كلّهــا فــي مــأمن مــن جــور ذي عُــدوانِ

يـا مَـن يُتـاجِر بالمـذاهب لا عبـاً بعقـــول قـــوم لا يَعُـــون معـــاني

رفقــا بغوغـــاء أضـــلهمُ الهـــوى وأخـــشَ الإلـــه ونَصـــبةَ الميـــزانِ

والـــدين معنـــاه أعتنـــاق فضـــيلة وتجنـــب الإضـــرار بالإنســـانِ

والأتحـاد شـريعة الـرحمن فـي التـ وراة والإنجيـــــــل والقـــــــرآنِ

***

فالأَبيات الأَولى من القصيدة أتهام للمسلمين بأنهم أساءوا إلى المسيحيين وغمطوهم حقوقهم. ويقول الشاعر إن اقباط مصر رحبوا بالفتح العربي، وصاروا حلفاء للمسلمين، وأن النبي محمداً عليه السلام وصى بالإحسان إليهم، وكذلك الخلفاء الراشدين من بعده؛ يقصد عمر بن الخطاب الذي فتحت مصر في عهده. وقال إن مباديء نبي المسلمين وتعاليمه تنص على المساواة بين الناس، وإجراء العدل على الجميع. وأن العرب أطمأنوا إلى الأقباط ووضعوا ثقتهم فيهم فوجدوهم حلفاء مخلصين. وقال إن الأقباط يحافظون على العهود والمواثيق لأنهم عرفوا بالوفاء منذ القدم، وضحوا بأرواحهم في سبيل المحافظة على الأمانات. وقد طهرت قلوبهم من الضغائن والأحقاد. وظلوا متمسكين بتلك الصفة على الرغم مما تعرضوا له من الظلم والتنكيل. ثم نادى بوجوب الفصل بين الدين والسياسة، لأن الدين لله، والوطن للجميع. ثم

ندد بالذين يتخذون الدين تجارة، وبالذين يتلاعبون بالأديان أبتغاء منفعة ذاتية تعود عليهم، وحذرهم من عقاب الله.

***

ومع أن الشيخ عبدالعزيز جاويش أعلن أنه لم يقصد بمقاله «الإسلام غريب في بلاده» أن يتعرض لجميع المسيحيين، إنما تعرض فقط لفريد كامل ولصاحب «الوطن» إلا أن النصارى عن بكرة أبيهم أمتلأت قلوبهم بالحقد عليه. وهجاه كتابهم وشعراؤهم هجاء يحمل في طياته الكره والبغض، والرغبة في التشفي والأنتقام. وكانت «الوطن» تفسح صدرها لنشر هذا الهجاء. فمن ذلك قول أحدهم:

بـين عبـد العزيـز فـي مصـر وعبـد العزيـز فـي مـراكش
نسـبة فـي الخـلال والإثـم والشـقا والتنـاقشْ

فاحفظ العهد واتق الله في اللوا يا ابن جاوشْ وقال آخر من قصيدة:

قلنا أتقوا الله فيما تنطقون به وأنت يا شيخهم يا علَّة النَّكَدِ

يقصد عبدالعزيز جاويش.

وكتب أحدهم [1] مقالاً جاء فيه:

---

(١) الوطن في ١٥-٧-١٩١١.

«... فهو غراب البين ينعق بالشؤم والبلاء، وجذوة تضرم نار الشحناء، ووباء أصيب به جسم المجتمع المصري، وواسطة للتفريق وتشتيت الجمع، وشهادة حية على أن في مصر داء عقاما. وحجة للأجانب على قصور المصري وعدم أستحقاقه للدستور».

«إن هذا الشيخ الذي قضى سوء الطالع على مصر أن تصاب بوجوده قابض على سياسة الحزب الوطني، يحرر المقالات بأسم هذا الحزب، ويبس خبائته في أكثر الأحيان لباس الوطنية والدين، ولكنه عدو لكليهما بما ينفث من سمومه في كل حين».

«... كل هذا لم يكف المحرض التونسي. كأنه لم يوَّلد حتى الساعة بغضاً في صدور المسلمين لهذه الطوائف والأمم المسيحية، حتى أن الرجل نشر آخر آيات سمه، وأسقم زلات قلمه في مقال نشره عن البروتستانت، وهم كما يعلم التونسي، طوائف مسيحية راقية عظيمة. إن هذا الشاويش التونسي المعجب بشاربيه، العامل على خط القطر المصري إلى الحضيض، المستأجر للتخريب والتدمير قال أقوالاً تعد عاراً على الصحافة المصرية. قال المحرض التونسي إن البروتستانت ينمون روح التعصب الممقوت، وأنهم يعمدون إلى الحيل. وقد أستفووا عدة آلاف من أقباط مصر، وحولوهم إلى مذهب البروتستانت. فهو هازيء بالأمريكان والأقباط معاً في هذا الهراء السقيم».

***

ووجه صاحب «الوطن» خطاباً مفتوحاً إلى العميد البريطاني في ٢٦-١٢-١٩٠٨ نشره تحت عنوان «النفي النفي» قال فيه:

«مولاي السير».

«إنك تمثل في وادي النيل الدولة البريطانية التي دخلت هذه البلاد لإصلاحها. فلذلك لا أجد بدا من الأعتقاد بغيرتك على صالح هذه البلاد كما يقضي الواجب والذمة والضمير».

ثم تكلم عن الضائقة المالية واضطراب الأمن، وقال إن سبب هذه المصائب: محمد بك فريد، والشيخ عبدالعزيز جاويش، وإن الأمة تطالب بنفيهما.

***

ولم تنحصر مطالب المسيحيين في المساواة في الوظائف، بل تجاوزتها إلى أمور أخرى. كتب «حقوقي حر» في الوطن مقالاً سنة ١٩٠٩ جاء فيه:

«القبطي ملزم ككل وطني أن يدفع الضرائب والأموال بكل أنواعها. فكان يجب بمقتضى القانون العام أن ينتفع بها بقدر ما ينتفع بها المسلم. ولكن الحكومة المصرية التي تعتبر نفسها مسلمة أكثر منها وطنية أظهرت تحيزاً لفريق من رعاياها دون فريق. فأسست دوراً علمية دينية خصوصية لذلك الفريق تصرف عليها من أموال الأمة كلها كمدرسة

القضاء الشرعي، ومدرسة المعلمين الناصرية «دار العلوم» والكتاتيب «المدارس الأولية» ومدارس معلمات الكتاتيب، ومدرسة البوليس حتى أوجب ذلك إستياء المنصفين».

«آمنا أن مدرسة المعلمين الناصرية، ومدرسة القضاء الشرعي والكتاتيب غسلامية، لأن الشريعة الإسلامية والدين يعلمان فيها، فليس للأقباط حق في دخولها وإن كانت نفقاتها تؤخذ من جيوب الأمة كلها. ولكن لماذا يمنع القبطي بواسطة منشورات سرية من الدخول في مدرسة البوليس، وهي مدرسة عمومية للأمة، لا يعلم فيها دين ولا شريعة؟ إنها لأمور تضحك منها الجهلاء، ويبكي منها العقلاء».

ويجب أن نعلم أن مدرسة البوليس كان يسيطر عليها الإنجليز في ذلك الوقت، بل إنهم يسيطرون على وزارة الداخليى أن يعين مسيحياً في وظيفة مأمور مركز. وأما شكوى الأقباط من حرمانهم من الألتحاق بمدرسة القضاء الشرعي فهي التي تستحق الضحك.

***

وكان المسيحيون قد فكروا في عقد مؤتمر قبطي سنة ١٩١٠ ليتبادلوا وجهات النظر فيما يتعلق بمطالبهم ويرفعوا بها مذكرة إلى الحكومة المصرية ودار الأحتلال. إلا أن مقتل بطرس غالي قد أجل أنعقاد هذا المؤتمر. وفي سنة ١٩١١ ظهرت عندهم فكرة المؤتمر من جديد. وبهذه المناسبة كتب الشيخ جاويش مقالاً لا يقل شدة وعنفاً عن

مقاله «الإسلام غريب في بلاده» ونشره بمجلته «الهداية [1]» ومما جاء فيه:

«أما ما توهتموه من أن المسلم أخذ يكيد لكم المكايد، ويبيت لكم السوء؛ فأنتم تعلمون أن هذا ليس من طباعه ولا مألوف عادته. ولو كان المسلم ممن يجمل الضغائن ويسع صدره الحقد لما نسى لكم ما فعلتموه أيام الأحتلال الفرنسي لهذه الديار، حتى أعوزت المحتلين القوة والجنود، فتقدمتم إليهم طائعين فرحين، فألفتم جيشكم الذي كان على رأسه كبير منكم. ثم لما أعوزهم الزاد والمال ألتزمتم لهم بيوت المسلمين، وقد كنتم كتابها ةأمناء خزائنها ومصرفي شئونها. ألتزمت تلك البيوت فأستبحتموها ولم تذروا لها حرمة إلا أنتهكتموها، حتى أن أحدكم كان يتفقد ما يقدمه له أفراد الأسرة الإسلامية من مصوغاتهم وجواهرهم وصنوف عليهم؛ فيعدها واحدة واحدة، ثم يحاسبهم على ما غاب منها وهو بها أعلم، فإنه الذي أشتراها بيده وعرف مكانها يوم كان أميناً على خزائن الأسر، مديراً لشئونها. فماذا أنسى المسلم أمثال هذه الحادثة سوى أنه كريم جواد هين لين؟».

«أرأيتم لو وضع منكم مدير على رأس مديرية ما، وأخذ يجمع حوله الوكيل القبطي، والكتاب الأقباط، والقضاة الأقباط، ووكلاء النيابة والمهندسين الأقباط والمحامين الأقباط، والتجار الأقباط، والفلاحين الأقباط؛ فمن ذا الذي ينصف المسلم المسكين إذا وقع بين مخالب

(١) عدد فبراير سنة ١٩١١.

هؤلاء؟ وأنتم تعلمون ما يصيب المسلمين اليوم على يد الموظفين الأقباط دون أن يجتمعوا ذلك الإجتماع. أين يذهب المسلم إذا تحولت مديريته مستعمرة قبطية ذلك شكل حكومتها؟».

«أأخبرك أيها المظلم بما في برنامجك، وبما مر الآن في صدر؟ أنا مخبرك وكاشف سرك. يترك هذا المسلم أطيانه وعقاره ويتأبط هراوته ومزادته إن تمكن منها، ثم يخرج مسرعاً إلى بلد آخر. ولا يزال المسلمون يخرجون سراعاً على ذلك النحو، وعلى نحو ما نرى في مصالح الحكومة منذ جيل حتى تخلو المديرية لبني اطائفة».

«ثم تثولون في الباقية ما قاله بعضكم يوماً ما وقد هنىء بوظيفة سليمة: هذه بضاعتنا ردت إلينا».

***

ولم يكن البطريرك راضياً عن هذا المؤتمر، فأصدر منشوراً [1] جاء فيه:

«... إلا أن جعل المفاوضة على مثل هذه الصورة، ودعوة الجم الغفير من أبناء الطائفة للاجتماع والمفازضة في مثل مدينة أسيوط؛ ربما يوجد إشغال البال، ويسبب قلق الخواطر لعدم تعود أهالي تلك الجهات عموماً على مثل هذه الأجتماعات التي لا تخلو من أمور قد يحدثها

(١) المؤيد في ٤-٣-١٩١١.

بعض أصحاب قلو النظر في العواقب وشفقتنا الأبوية، ومحبتنا الكبيرة نحو الجميع تدعونا إلى إبداء النصيحة لأبنائه الأعزاء بأن ينظرون في نصالح طائفتنا المحترمة بغير الطريقة الشارعين فيها؛ أي حشد الجم الغفيير في مثل المدينة المذكورة حتى لا تكون مساعيهم في رق الطائفة عرضة للتقول، ولا يحدث عنها ثوران النفوس والتهج».

وقد أرسل البطريرك صوراً من هذا المنشور إلى المطارنة، ومع كل صورة خطاب لإبداء النصيحة لأبناء الطائفة بأن يعدلوا عن عقد هذا الإجتماع الذي لا تضمن عواقبه.

إلا أن مطران أسيوط لم يستطع أن يقاوم التيار فأضطر إلى أن يفتتح المؤتمر بكلمة قصيرة لم تتضمن سوى الدعاء لأبناء الطائفة بالتوفيق، ثم الدعاء للمصريين أجميعين، وللخديو.

***

وكان المعتمد البريطاني السير الدون غورست قد وقف في وجه تطرف المسيحيين بالمرصاد. فقام بزيارة لبعض مديريات الوجه القبلي التي يكثر فيه النصارى، ولما رجع من رحلته أوعز إلى مراسل روتر بنشر النبأ الآتي:

«زار السير [1] الدون غورست المديريات التي يكثر فيها الأقباط، وبحث فيما يسمونه المطالب القبطية بحثاً مستفيضاً، فوجد أنه ليس

---

(١) المؤيد في ٢٠-٢-١٩١١.

للقوم شكوى جدية خارج مدينة مصر. وهو يقول إن الأقباط والمسلمين يعيشون بالصفاء معاً إذا تركوا وشأنهم. وإن أشد الأمور ضرراً بالأقباط أعتبارهم طائفة قائمة بنفسها. ووجد السير الدون غورست أن مطالب الأقباط المتعلقة بالتعليم منظورة في مجالس المديريات في كل جهة بما يحق لها من الأهتمام».

ولما أطلع المسيحيون على هذا التصريح هاجوا وماجوا، وأرسلوا البرقيات الكثيرة إلى الصحف البريطانية محتجين أشد الأحتجاج على ما نشره مراسل روتر. وأخذوا يحملون على المعتمد البريطاني ويفندون أقواله.

وأخيراً أضطر السير الدون غورست بعد إلحاح، وبعد أن تلقى برقية من وزارة الخارجية البريطانية بموافقتها على عقدئ المؤتمر– إلى السماح للمسيحيين بالإجتماع في مدينة القاهرة، فأبوا إلا أن يكون أجتماعهم في أسيوط، وذلك ليثبتوا أن شكوى النصارة ليست منحصرة في سكان القاهرة المسيحيين، بل عامة في جميع أنحاء القطر. ولأن مدينة أسيوط– كما ذكروا– عاصمة الأقباط. فوافق على ذلك بعد غطلاعه على برنامج المؤتمر، ولكنه أضمر في نفسه العداء لهذه الحركة كلها، ووطد العزم على مقاومتها. وكان قد أبدى تخوفه للحكومة البريطانية من قيام المسلمين بحركة مضادة، وعقد لهم أسوة بالمؤتمر القبطي، وحينئذ تزداد العلاقات بين العنصرين سوأ، وربما يقضي الأمر إلى ما لا تحمد عقباه.

وقد خصص السير الدون غورست حيزاً كبيراً من تقريره عن سنة ١٩١١ للكلام على حركة المتطرفين من المسيحيين قال:

«شغلت [١] شكاوي رجال من القبط من معاملة القبط بالنسبة إلى معاملة مواطنيهم المسلمين محلا منيفاً في الجرائد المصرية مدة من الزمن. ثم أزدادت دائرة الأنتباه إليها أتساعاً بعقد المؤتمر القبطي الذي ذكرت أخبار مداولاته ملياً في أنجلترا. وأذكر هنا على سبيل العرض أن الذين نظموا هذا المؤتمر هم فئة صغيرة من أرباب الأطيان الاغنياء بالوجه القبلي، لم يدعوا أنهم يمثلون أكثر من أثنى عشر ألفاً من سبعمائة الف قبطي في مصر».

«وقد أقاموا أنفسهم بأنفسهم نوايا عن أبناء طائفتهم مع وجود فرقة نافذة الكلمة منه لا تستصوب عملهم بل تخطئه، ومن جملتها البطريرك الذي هو رأس الكنيسة القبطية بمصر».

ثم قال «إن بطرس باشا الذي يعد تقلده لمنصب ناظر أزماناً متطاولة في وزارات متعاقبة، وتقلده رياسة النظار أخيراً، دليلاً يدحض دعوى من يدعى أن الأكفاء من الأقباط ممنوعون من تقلد الوظائف العالية».

«وعندي أن أعتبار فريق من الأهالي جماعة منفصلة عن غيرها خطأ لابد وأن يضر أخيراً بمصالح الأقباط. ولا شبهة في أن مصالحهم المادية

---

(١) نقلاً عن المؤيد في ١٩١١/٥/١١.

لم تكن في وقت من الأوقات أصلح مما صارت عليه في السنين الأخيرة رغماً عما يدعونه ويشكون منه من عدم المساواة. وما من أحد أستفاد أكثر منهم من الإصلاح الذي أدخل إلى القطر المصري على يد الأحتلال البريطاني. كما يستدل من أن كثيرين من أغنى الأهالي وأوسعهم أملاكا في هذه البلاد هم من الأقباط».

ولما ترجم هذا التقرير ونشر ثارت الصحف القبطية وأخذت تكتب المقالات الطويلة في الرد عليه. وأتهمت المعتمد البريطاني بأنه يتحيز للأكثرية الإسلامية ويحابيها على حساب الأقلية. وأفتتحوا بلندن المكتب القبطي للدعاية والإعلان، وكسب عطف الرأي العام البريطاني، والأستنجاد به لتحقيق آمالهم والظفر بمطالبهم. ووضعوا على رأس هذا المكتب «قرياقص ميخائيل» يعاونه «لويس أخنوخ فانوس» الذي كان يدرس في أنجلترا في ذلك الوقت.

وشرع هذا المكتب يتصل بالصحف البريطانية وبأعضاء مجلس العموم وقد حملت الصحف البريطانية على السير الدون غورست حملات عنيفة، وناقشت تقريره مناقشة حادة، ووجه بعض النواب أسئلة محرجة إلى وزير الخارجية.

***

وكانت مطالب الأقباط التي عرضوا لها في المؤتمر تنحصر في:

١– تعليم الدين المسيحي للطلبة المسيحيين بالمدارس. وقد تحقق هذا الطلب سنة ١٩٥٥ في ظل الأستقلال. حققته حكومة وطنية مستقلة، لا دار الأحتلال البريطاني، ولا وزارة الخارجية البريطانية.

٢– أن تنفق الحكومة على محاكم الأحوال الشخصية للنصارى، لأنها تنفق على المحاكم الشرعية. ومع أن المحاكم الشرعية كانت تدر رسوماً تزيد على نفقاتها، إلا أن مطلب الأقباط هذا قد تحقق سنة ١٩٥٥ فأصبحت المحاكم الوطنية تنظر قضايا الأحوال الشخصية للمسلمين ولغير المسلمين.

٣– تقرير يوم الأحد عطلة رسمية بالنسبة للموظفين المسيحيين في جميع المصالح الحكومية، وكذلك بالنسبة لطلبة المدارس والمعاهد. وأعتبار أيام الأعياد المسيحية عطلة رسمية يعفى المسيحيون فيها من الذهاب إلى أعمالهم. وقد أجيبوا إلى طلبهم فيما يتعلق بالأعياد، فصرح لهم بالتغيب في خلالها، أما العطلة الأسبوعية فظلت كما هي أسوة بالبلاد التي وجدت فيها أكثرية وأقلية، ونزلت فيها الأقلية على حكم الأكثرية.

٤– زيادة عدد الموظفين المسيحيين، لأن نسبة عدد المتعلمين المسيحيين يبلغ ٣٥٪ من مجموع المتعلمين، فيجب أن يغالوا من الوظائف بمثل هذه النسبة. وقد أصبحت هذه الشكوى منتهية الآن، لأن

ديوان الموظفين يجرى التعيين في الوظائف عن طريق الأمتحان دون النظر إلى الأعتبارات الدينية.

٥- إعطاء المسيحيين حق الترقية الإدارية إلى الوظائف الإدارية الكبرى كوظائف مديري الأقاليم. وقد عارض الإنجليز هذا الطلب. قال السير الدون غورست: «إذا عين قبطي في وظيفة إدارية عالية وجد أن معظم الأهالي أعداء له، لا يعاونونه ولا يطيعونه:» وقال: «إن الأختبار أظهر عدم كفاءة الأقباط لهذه الوظائف مع أهليتهم للوظائف الأخرى، لأنهم خالون من الصفات الإدارية، وقد جربوا في خفر السواحل والسجون فلم يفلحوا».

والحق إن الوظائف الإدارية الكبرى في جميع بلاد العالم لا يشغلها إلا أبناء الأكثرية.

***

وقد نظم شعراء المسيحيين قصائد كثيرة في تحية المؤتمر نذكر منها قصيدة [1] بولس الشماع وهي:

بشَّــر بنــي فرعــون بالســرَّاء ... فــاليوم يــومُ ســعادة الأبنــاء

رمسيس قم وأنظر لمؤتمر حوى ... مــن كــل واد أنجــب النجبــاء

أنـا إن طربـت فإنمـا مـن نخـوة ... تعلــو بنــا فــي سُــلَّم العليــاء

أنـا إن سـررت فإنمـا مـن نهضـة ... تقضـي علـى التفريـق شـر قضـاء

(١) الوطن في ٩-٣-١٩١١.

إن الشـعوب إذا توحـد أمرهـا فــازت بــلا تعــب ولا غوغــاء
ويـد الإلـهِ مـع الجماعـة إن هـمُ خـــدموا بصـــدق طوِّيـــة وولاء
نُوّابَنـا سـيروا بنـا نحـو العـلا إن العـــلا بتـــآزر وإخـــاءِ
وأستعصــموا بـــالله لا تتفرقـــوا إن التفـــرق أصـــل كـــل بَـــلاءِ
وحذار أن يقف القنوط أمامكم فيعـــيقكم عـــن رفعـــة وعَـــلاءِ
ودعـوا الرئاسـة للصـغار إذا هُـمُ ســـلكوا ســـبيل أمانـــة وَوَفـــاءِ
قولوا لمن نسج الغرور مقاَلهم كـــالعنكبوت يـــزول بـــالأنواءِ
خيـر لكـم وبلادكـم لـو تنهجـو نَ علـــى صـــراطٍ مســـتوٍ وإخـــاءِ
فالـدين للـديَّان جـل جلالـه والنيـــل مشـــترك بغيـــر مِـــراءِ
لنضـيف للتـاريخ خيـر مـآثر بيضـــاء مثـــل مـــآثر الآبـــاءِ
فلكم من الشعب الأمين تحية ولكـم مـن الـرحمن خيـر جـزاءِ

فبعد أن عبر الشاعر عن سروره لعقد المؤتمر؛ دعا المسيحيين إلى ترك ما بينهم من خلاف جرت وقائعه بين الإكليروس وخصومه بسبب الأوقاف وغيرها. وأشاد بقيمة أتحاد أبناء الطائفة النصرانية، ونادى بضم صفوفها، لأن الأتحاد هو الطريق إلى نيل المآرب، وتحقيق المطالب، وهو السبيل إلى النجاح. ثم قال إن المسلمين أغتروا بكثرتهم، والكثرة لا تغني عن الكفاءة. وأشار على إخوانه بأن يطلبوا المساواة في الوظائف لأن الوطن للجميع، أما الدين فلله. وختم قصيدته بأن حيا الأعضاء بأسم الشعب المسيحي، ودعا الله أن يجزيهم خير الجزاء.

***

وقال رياض غبريال [1]:

بنى القبط إن القبط نُجلٌ عيونهم ... على أفُقِ الآمال تعلو وتنظرُ
بنى القبط أفنينا السنين ولم تزل ... رغائبنا مثل الضمائر تُسترُ
تفاخرت الدنيا بآبائكم فهل ... توارثتم المجد الذي كان يُذكر؟
سلوا ما حوا آياتهم من شمائلٍ ... وصبر وإقدام، فهل نتبصر؟
قليل عديد الأكرمين، نعم عسى ... يكون لنا هذا القليل الموَقرُ
ألا أيُّهذا «المجمع» القادم الذي ... بأسيوط يمسي ليلة فُيبكَّرُ
تظل بكم هذى العيون شواخصاً ... تحييكُم الأقباط طُرًّا وتفخرُ
وفيكم سَرِيٌّ عاقل عامل كذا ... كريم يدٍ عنه المكارم تُنْشَرُ
كذاك لبيب يعرف الناس لُبَّه ... وفيكم خطيبُ القبط ليثٌ غضنفرُ
إذا الليل أخفى مُبتغاكم فإنما ... نهار غد يبدي الجميل ويظهرُ
لكم سُنّة الإنجيل نُصْبَ عيونكم ... هي سُنة الإخلاص والعدل تشهرُ
هي سنة الإنصاف والبِرَّ والنُّهي ... وحب ذوي القُربَى ومن بات ينفِرُ
ومن يك لا ينفك يظهر حبّه ... إلى رُمزة الاعداء، هل يتقهقرُ؟
نناشدكم بالله ألاَّ تفرّقوا ... وسيروا على التحكيم، والحق أقدرُ
ولا يغوكم شيطان حب رئاسة ... يغر ويغري من يطيع فيحقر
ولا تفترق آراؤكم إنَّ حولكم ... عيون بني الأقباط باتت تحدَّرُ
وكونوا بنى آبائكم إن تصرمت ... حبال تشدوها فلا تتنثَّرُ
كذا واذكروا أن الكبير صغيركم ... وأصغركم في خدمة القوم أكبرُ
بذا تكرمون الحق والأمة التي ... دعتكم إلى غاياتها فتذكَّروا

(١) الوطن في ٦-٤-١٩١١.

حدث أختلاف بين المسيحيين حول رياسة المؤتمر. فقد أرادها أخنوخ فانوس لنفسه، زاعماً أنه لسان النصارى الناطق، وقلبهم الخافق، والمحامي عن حقوقهم، والساعي إلى تحقيق آمالهم. ونازعه فيها «بشرى حنا» مدعياً أنه صاحب الفكرة في عقد المؤتمر، وأنه أول من رفع صوته بذلك، وأنفق المبالغ الطائلة في سبيل الدعاية له، والإعداد لأستقبال أعضائه. وأخيراً تقررت الرياسة له حسما للنزاع.

وقال نصر لوزا [(1)] من قصيدة:

ولكن إذا سرتم بجد إلى النُّهي ... فلا تسكتوا يا قوم عن نيل مَغنمِ
وهُبُّوا بإقدام إلى ذروة العلا ... فما دانت الأوطار إلا لِمُقْدمِ
وها سلَّم المجد المؤثَّل فأرتقوا ... وهل تُرتقَى العلياء إلا بِسُلَّمِ؟

ولم يكن بعض عقلاء الأقباط مرتاحاً إلى ما يقوم به المتطرفون من إخوانهم. قال تادرس [(2)] وهبي:

يا لقومي وقد دجا ليل خطبٍ ... بين آل الإنجيل والفرقانِ
كان للنازعين فيه إلى الشـ ... ـرَّ كما يعلم الإله يدانِ

أكبرتْهُ الأهواء ما أنزل الله بها من الأنام من سلطانِ

فلُيوالِ الإرشادَ والنصح فينا ... كلُّ ندب على الهدى معوانِ
ولنفض النزاع، فالصلح خير ... ولنشيِّدْ دعائم العمران

(1) مصر في ٢١-٢-١٩١١.

(2) الوطن في ٣-٢-١٩١١.

ولـنمكَّن عهـد الإخـاء وَأولَـى بمراعـــــاة شـــــرطه أخـــــوانِ
ولنــدَعْ كــلَّ مــا أجــدَّ خلافــاً مـــن شـــئون الـــدَّين للـــدَّيَّانِ

وهذا اتجاه طيب، ودعوة حق يسودها الإخلاص والصفاء، وَيمتزج بها الود وَالوفاء، وَلكنها قوبلت من المتطرفين بالجفاء، وَلم تجد منهم إلا الآذان الصمَّاء.

***

وقال إبراهيم حنين في الدعوة [1] إلى أتحاد العنصرين: من قصيدة طويلة:

كـلاًّ وَلا شـيءَ غيـر المجـد ننشـده فلـيس فـي غيـره للـنفس تهيـامُ
نســعى إليـــه وَنرجـــو أن يوفقنـــا فـي السـعي ربٌّ لنـا بالغيـب عـلاَّمُ
نسـعى إليـه بجـزم جهـد طاقتنـا وَلـيس مـن دأبنـا في السـعي إحجام
هـذا وَلـيس سـوى التوفيـق ينقصـنا فهــل تُــرَى فيــه للتوفيــق أقــوامُ؟
هـــلاَّ تُخَصـــصْ لتوفيـــق ألســـنة وَهـــل تطـــوَّع للتوفيـــق خُـــدَّامُ؟
هـل أرِع القـوم فأرتاحـت خواطرنـا هـل أسـرع القـوم أقبـاط وإسـلام؟
الله لـــو أســـرعوا، الله أكبـــر لـــو قـــاموا بـــواجبهم، الله لـــو قـــاموا
هناك نحسو كئوس الحب نحن وهم فـــلا يكيــــد لنـــا واشٍ ونمَّـــامُ
ولا يجِـــدُّ جفـــاء بيننـــا أبـــداً فـــلا يكـــون لمـــا نبنيـــه هـــدَّامُ
هنــاك يــرقص قلــب العــز مبتهجــاً هنـــاك تخفـــق للإينـــاس أعـــلامُ
هنـاك تظهـر شـمس البشـر مشـرقة هنـاك جُـرح الصـفا والصـفو يَلتـامُ

(١)الوطن في ١٦-١-١٩١١.

هنــاك يُنْظَـرُ بــدر الأنــس مكــتملاً — هنــاك تصــدق فــي الآمــال أحــلامُ
هنـاك تصـدح موسـيقى الهنـا فرحـاً — هنـــاك تُســـمع للإســـعاد أنغـــامُ

وقد أرفض المؤتمر القبطي بعد أن قرر تأليف لجنة برياسة أخنوخ فانوس لرفع مذكرة بالمطالب القبطية إلى الخديو، ورئيس النظار، والمعتمد البريطاني. وقد ألتمست اللجنة من الخديو أن يحدد لها موعداً لمقابلته وتقديم المذكرة إليه، فرفض طلبها وأشير عليها بأن تقدم مذكرتها إلى رئيس النظار. كما رفض المعتمد البريطاني مقابلة أعضاء هذه اللجنة.

***

وشرع المسلمون في الإعداد لعقد مؤتمرهم الذي أطلقوا عليه أسم «المؤتمر المصري» وأختاروا رياض باشا رئيساً له. وقد أفتتح المؤتمر أولى جلساته في يوم ٢٩ أبريل سنة ١٩١١، وفي ١٨يونيو توفى رياض باشا وتأجلت جلساته أياماً، ثم أسؤنفت. وفي رياسة رياض باشا للمؤتمر يقول أحمد شوقي من قصيدة طويلة في رثاء الفقيد:

ويرمي الدهر نادِيَ عين شمسٍ — ولا يحمـــي لـــواءهم الرُّمـــاةُ
طلعتَ على النَّدِيّ بعينِ شمسٍ — فوافتهـــا بشمســـين الغـــداة
على مـا كـان يغـدو القـوم فيهـا — تــوافى الجمــع وائتمــر الشــراَةُ
تملكهــم وقــارُك فــي خشــوع — كمــا نظمــتْ مقيميهــا الصــلاةُ
رأيـا وجـوه قومـك كيـف جلَّـت — وكيــف ترعرعــت مصــر الفتــاةُ

أجيلَ الرأي بين بديك حتى تبينتِ الرَّزانة والحَصاةُ (١)

وأنت على أعنتهم قدير وهم بك في الذي تقضي حُفاةُ

إذ أبدى الشباب هوى وزَهْواً أشار إليه حلمك والأناةُ

فهلاً قمت في النادي خطيباً لك الكلم والكبارُ الخالداتُ؟

تفجر حكمة التسعين فيه فآذان الشبيبة صادياتُ

تقول متى أرى الجيران عادوا وضُمَّ على الإخاءِ لهم شَتاتُ

وأين أولوا النهَي منا ومنهم عسى يأسُون ما جرح الغلاةُ؟

مشت بين العشيرة رُسْلُ شرٍّ وفرقت الظنون السيئاتُ

إذا الثقة أضمحلت بين قوم تمزَّقتِ الروابط والصلاتُ

***

وقد أشتدت الحرب القلمية بين الصحف الإسلامية من جهة، والصحيفتين القبطيتين: الوطن، ومصر من جهة أخرى. قال زكي واصف[٢]:

ما للجرائد أصبحت مملوءة بالطعن في الأقباط دون حسابِ

من غير ما ذنب جنينا، لم نسيء أحداً بلفظ أو أقلَّ عتابِ

قلنا مساواة بلا نظر إلى الـ ـأديان والأسماء والألقابِ

قامت جرائدكم علينا قومة وعلا الصراخ وفاق أعلى سحابِ

أجريمة في شرعكم يا سادة طلب التساوي؟ صرحوا بجوابِ

ماذا جرى حتى سعيتم ضدنا ترمون إخواناً لكم بحرابِ

(١) الحصاة: الرأي والعقل.

(٢) حفاة: جمع حفى، والمراد هنا العالم الذي يستقصى في طلب العلم.

(٢) صاديات: عطشي.

(٤) الوطن في ١٩١١/٣/٢٥.

هــذى الــبلاد بلادنــا ووئامنــا حتمــا يقلــل ســلطة الأغــرابِ

أَوَهــل نســيتم للنبــي وصــية تلــك التــي قــد دونــت بكتــابِ؟

أوصــيكم بــالقبط خيــراً إنهــم عَضُــدُ لكــم فــي شــدة وصــعابِ

وكان يقود الحملة ضد المسلمين أخنوخ فانوس، وجندي إبراهي صاحب «الوطن» وقد بذلا ما في وسعهما، ووجها إلى الصحف الإسلامية أقبح الشتائم، وأقسى عبارات السباب. مثال ذلك ما كتبه جندي إبراهيم تحت عنوان [1] «أيها القاريء المحترم» وهو:

«أقرأ «الأهالي» أسبوعاً برمته ولو ثقل الأمر عليك، وكان ذلك الأسبوع أطول عليك من العصر الصخري».

«وأقرأ جريدة «العلم» أسبوعاً آخر متصبراً متجلداً، ولو أن قراءة «العلم» تهيج الأعصاب، وتذهب بصبر الصادقين».

«وأقرأ هذا «المؤيد» الدنس النجس يومين فقط، فإننا لا نستحل أن نكلفك قراءته أكثر من مرتين خوفاً على صحتك وآدابك».

«أقرأ هذه الجرائد كما قدمنا، وإذا كنت أيوباً جديداً ولك صبر البطاركة الأولين فطالع أعداد «اللواء» السقيم و«مصر الفتاة» الغليظة و«الجريدة» الجامدة الباردة».

---

(١) الوطن في ١٩١١/٦/٢٧.

«وإذا كنت مخاطراً براحة بالك، وبسعة صدرك إلى حد الجنون في المخاطر فأقرأ مجلة «المنار» وأكتف بمقالة واحدة منها، فإنك لا تقدر على حمل الجبال كلها فوق كتفيك. وربما أصابتك أعراض الكولرا من قيء وإسهال قبل أن تعمل برجائنا. فإن قراءة كل هذه السماجات والسخافات ليست من الهنات الهينات».

«قرأت ما تقدم، فقل لنا بحقك ماذا تجد فيها؟ أو ما الذي يبقى في ذهنك من معاني كلامها في هذه الأيام؟».

«لقد حكم الزمان الجائر علينا بمطالعة هذه المطبوعات. ومازال القوم في كل يوم يتهمون الأقباط بدسيسة أو مؤامرة جديدة. وما في جرائدهم غير وصف هذه الأشياء والتخوف منها مع أن الأقباط عقدوا مؤتمراً علنياً، وطلباتهم معروفة من سنين، وجرائدهم غير مقصرة في الصراحة. فلسنا ندري بم تقوم المؤامرة! وعلام الدسيسة التي يتخوفون منها، ويعيروننا بها الآن؟!».

«ولو أنهم أعتبروا سرد المطالب القبطية دسيسة ومؤامرة، وأكتفوا بهذا الوهم الصبياني الذي يدل على صغر العقول، وسخافة المدارك، لخف الأمر، وأمكن الإغضاء عنه، ومعاملة قائليه بالحلم والصبر. ولكن الجماعة ما زالوا في هذا الهوس يتخبطون، ويخلطون في كل صغيرة أو كبيرة، حتى أنهم إذا أمطرت السماء قالوا دسيسة قبطية. وإذا أشتد حر الشمس زعموا أن ذلك مؤامرة مسيحية».

وكتب جندي إبراهيم مقالاً آخر [1] تحت عنوان: «رمتني بدائها وانسلت» جاء فيه:

«هذا المثل ينطبق على الصحف الإسلامية التي قُدَّ وجهها من الصخر وأخصها «المؤيد» لأنها تفعل الفعلة وترتكب الجريمة، ثم لا تخجل من إلصاقها بالصحيفتين القبطيتين».

«نحن نعلم أن الصحيفتين القبطيتين قد خلقتا لكي تكونا قذى في عين تلك الصحف، وشجى في حلقها، وشوكة في جنبيها، لأنهما واقفتان بالمرصاد للدساسين والمخانلين، والذين يحاولون أن يعيشوا من أخس الطرق على حساب الأقباط. فتكشفان دخيلتهم. وتفضحان أمرهم، وتسدان باب الربح الحرام في وجوههم. ولكن من الغريب أن تلك الصحف لا تكتفي بالإفتراء على الصحيفتين وحدهما. بل إنها تجاوزتهما بالإفتراء على الموظفين الأقباط في دوائر الحكومة، وأختلاق التهم الشائنة، وتجسيم الهفوات الصغيرة، ومتابعة المساعي الخفية، والوشايات السافلة أمام الرؤساء وأصحاب السلطة للنكاية بهم».

«وأقرب مفترياتها عهداً أتهامها للمعلمين الأقباط في نظارة المعارف بأنهم يظهرون التعصب ضد الطلبة المسلمين في الأمتحان الشفوي، حتى أن المؤيد الذي هو أخبث عدو للأقباط أخذ يكرر هذه

---

(١) الوطن في ٢٧-٦-١٩١١.

التهمة على أشكال شتى لكي تنتج التأثير المطلوب، ويظن من يقرأ تلك الصحيفة الكاذبة أن في الأمر شيئاً».

«على أنا أثبتنا أن تهمة التعصب والتشيع في الأمتحانات العمومية ثابتة على بعض المشايخ من جهة لأن هذه هي فطرتهم التي فطروا عليها. ومن جهة للعيان؟».

«ولماذا ينظر الآن حضرة مدير الجريدة إلى الأقباط ومطالبهم المعروفة كما ينظر المحارب من أعلى عليين وحوله جيوش الأكثرية الكثيفة إلى أقلية ضعيفة مغلوبة على أمرها، يخالها خصماً محارباً؟».

«لماذا يسهو حضرة الأستاذ عن حكمته ويشط عن أدبه؟ أليس من السداد والأدب أن يتناقش أبناء الوطن ويتحاسبوا فيما بينهم بالأدب واللطف؟ أم أن العجرفة والأنتفاخ في القول من مستلزمات المحق في قوله؟».

***

وكتب أخنوخ فانوس [1] مقالاً آخر موجهاً إلى أحمد لطفي السيد، جاء فيه:

«ألا أحذروا من الكبر والعتو حذركم من معاقرة الخمر، فإنه ينفخ الأوتار ويشدها للشر ثم للبتر. كونوا مصريين فقط، لا أكثرية مسلمة، ولا

---

(١) مصر في ١٩١١/٢/٢٨.

أقلية مسيحية. وتواضعوا مع إخوانكم، وتقاسموا اللقمة كأخوة فيما بينكم بسلام وقسط، فإن ذلك أولى بكم، وأضمن لفلاحكم».

هذه بعض أمثلة مما كتبته الصحف القبطية. أما الصحف الإسلامية فإنها لم تستخدم عبارات نابية، ولا ألفاظاً جارحة كالتي جاءت في الصحف القبطية، لأنها لم تكن في حاجة إلى ذلك، فكانت تكتفي بالمناقشات المنطقية، والأدلة العقلية. وتسوق الإحصائيات عن عدد الموظفين المسيحيين في المصالح الحكومية. مثال ذلك ما جاء في المؤيد بتاريخ ٦-٣-١٩١١.

«إذا كان عددهم- أي المسيحيين- في مديرية أسيوط لا يتجاوز ٣٠% بمقتضى الغلو والمبالغة في الحساب، إذا كان الأمر كذلك وهم يسمون أسيوط عاصمة الأقباط، فكيف يكون حال مسلمي مديرية أسيوط لو كان عدد الأقباط فيها سبعين في المائة والمسلمين ثلاثين؟ بل كيف يكون حال مسلميها إذا كان عدد الأقباط فيها تسعة وتسعين في المائة كحال المسلمين من سكان مديرية الغربية أو المنوفية؟».

«اللهم ننظر إلى حالة الأقباط الآن وهم أقلية لا تزيد على سنة في المائة، ورعية محكومة منذ ثلاثة عشر قرناً، والموظفون منهم مع ذلك في مجموع المصالح المصرية يزيد عددهم على ستين في المائة، ثم هم مع هذا يجمعون جموعهم ويتآمرون سراً وعلناً ضد المسلمين. ويرفعون شكواهم إلى إنجلترا بأنهم مظلومون مضطهدون مسلوبون مهانون.

فيقول: لو كان ما للمسلمين الآن من كثرة وسلطة شرعية هو للأقباط لما وجد المسلمون منهم مكاناً من وادي النيل يقطنون فيه، بل يكسحونهم إلى مجاهل صحراء ليبيا كسحاً إن بقى لهم ظل في الحياة».

«لقد كان الأقباط قبل الأحتلال الإنجليزي لا يفكرون في مثل هذه المزاعم التي يزعمونها الآن، ولا يتجاسرون على أن يعتبروا لهم عاصمة في البلاد تقابل عاصمة الحكومة الإسلامية. فلعلهم يعتزون بالأحتلال الإنجليزي ظناً منهم أن هذا الأحتلال يغير من صبغة الحكومة الإسلامية شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى وتحل مخلها حكومة مسيحية».

هذا مثل مما كانت تكتبه الصحف الإسلامية وعلى رأسها المؤيد. فهل يستحق المؤيد أن يوص بأنه نجس دنس؟؟

***

ويلاحظ أن سياسة غورست نحو الأقباط لم تختلف عن سياسة كرومر إلا في شيء واحد؛ وهو أن كرومر كان يفتح بابه لكل صاحب شكوى، ويقابله بلطف، ويتحدث إليه بكل معسول. أما غورست فإنه رفض أن يقابل زعماء الأقباط وأظهر نحوهم جفاء شديداً، لأن سياسته كانت تهدف إلى القضاء على الحركة الوطنية، أو بعبارة أدق على الحزب الوطني. والقضاء على الحزب الوطني لا يتحقق إلا بصرف الناس عنه وإبعادهم عن زعمائه. فلو أنه أظهر أقل عطف على المسيحيين لكان ذلم مدعاة إلى نفور الأكثرية الإسلامية منه وألتفافها حول الحزب

الوطني. ومن المعلوم أن إنجلترا لم تحتل مصر للدفاع عن مصالح طائفة معينة، ومحاباتها على حساب طائفة أخرى، وإنما أحتلتها تحقيقاً لمطامعها الذاتية وإشباعاً لحاجاتها الإستعمارية.

وقد تنفس المسيحيون الصعداء حينما جاءت الأنباء بوفاة غورست في صيف سنة ١٩١١ وفرحوا فرحاً لا مبرر له بقدوم اللورد كتشنر، وأستقبلته الصحافة القبطية بالمدح والثناء.

البابُ السَادسُ

الحركة الوطنية وأثرها في الأدب القبطي

١- من سنة ١٨٨٢- ١٩١٩

إذا نظرنا إلى الأقليات في مختلف الدول وجدنا أنها تقف من الاكثريات موقف الشك والحذر؛ نتيجة للمظالم التي وقعت عليها في عصور الأستبداد والطغيان ولم يكن موقف المسيحيين في مصر ليختلف عن موقف هذه الأقليات.

كانوا يعارضون النظام الدستوري معارضة شديدة، ويرفضون بإصرار فكرة إنشاء مجالس نيابية، لأن هذه المجالس تؤدي إلى تحكم الأكثرية الإسلامية في الأقلية المسيحية. وتوهموا أن حقوقهم ستهضم، ومصالحهم ستداس بالأقدام. وقد نشرت صحيفة الوطن سنة ١٩٠٩ مقالاً تحت عنوان: «الأقباط والدستور [١]» جاء فيه:

«لا حاجة إلى التكرار والإعادة، وسرد الأسباب التي تحمل الأقباط على تحمل مخالفة إخوانهم في طلب الدستور الآن. فإن الذي نراه كل يوم من غارات الجرائد الإسلامية عند ذكر حوادث لها علاقة بالأقباط، ومن سعي الأحزاب الإسلامية لحصر المنافع وأحتكار الوظائف

(١) الوطن في ١٥/٨/١٩٠٩.

وإبعاد الأقباط عنها بمثل ما يجرى سراً وجهراً في بعض النظارات. وإن الذي يسمعه الأقباط عند كل أحتكاك في هذه القرى ولا سيما في الجنازات القبطية، وفي زفاف الذين ينتحلون الإسلام من رعاع القبط لغرض قبيح، أو في غير هذه الأحوال، إن هذا كله يكفي لإقناع أهل الارض بأنه إذا أعطى المصريون حق الحكم الذاتي، وجمهورهم وجرائدهم على الحالة الراهنة؛ لجارت الأكثرية بالأقلية، وسحقتها بأسم الدستور، وعادت إلى أستعبادها وإذلالها. فالأقلية تخاف من هذا الستور ما دام في مصر الآن ما فيها من الأميال والخواطر، ولكنها لا تكره الدستور كرهاً مطلقاً».

«بقى أن نذكر «المؤيد» الأغر بخطأ ظاهر كره، إذ قال مراراً إنه ليس في الوجود فئة تختلف في طلب الدستور لبلادها، أو تتخوف من عواقبه. وهو يزعم أن الأمة القبطية تفردت بهذه الخطة، وزعمه بعيد عن الصواب».

«فلا بد أن يذكر القراء حالة المسلمين في الهند، وقد أصابهم ما أصاب الأقباط هنا حتى إنهم لما سمعوا من سنتين أن في نية الحكومة الإنجليزية إعطاء الهند حق الحكم الذاتي؛ قاموا وأعترضوا نفس أعتراض الأقباط، وكان المؤيد أكبر ناصر لهم. فقوله بعد هذا إن الأقباط ساروا على خطة لم تسلكها أمة أخرى تماد في الشطط».

«ومن هذا القبيل مسلمو قبرص. ربما يذكر القراء أيضاً أنهم قدموا العرائض لإنجلترا يطلبون فيها ألا يجاب طلب الأكثرية من أهل تلك الجزيرة، والأكثرية مسيحية، ولا ينشأ في قبرص مجلس نيابي، لأنهم يؤثرون حكم الدولة الإنجليزية على حكم الأكثرية من الأورام. وقد أشتهر هذا الأمر في حينه، ووافقت جرائد مصر الإسلامية على خطة الأقلية في قبرص. وأما في نفس الوطن المصري فالجرائد الإسلامية لا تريد أن تعترف بحق الأقلية، ولا تنصفها في أمر من الأمور».

«هذه أرلاندا وأهلها من الطبقة العليا ذكاء وتمدنا. ولكن معظم أهلها من الكاثوليك، وفيها أقلية من البروتستانت في ولاية الستر؛ تعرف بأسم الحزب الأورانجي: فالأورانجيون ما زالوا من قدم كلما طلب الدستور لأيرلندا يخالفون في الطلب، ويعارضون ويصرون على إبقاء أيرلندا تابعة لمجلس النواب الإنجليزي وحكومة لندن، لأنهم يخافون أن تضيع حقوقهم فيما إذا نالت إيرلندا الدستور وصار الأمر فيها للفريق الكبير».

«إن خطة الأقباط في الدستور المصري هي خطة الصدق والشرف والأمانة، وإنها خطة طبيعية لا يجوز لأحد أن يعدها عاراً على الأقباط».

***

وفي مارس سنة ١٩١٠ زار مصر مستر روزفلت؛ أحد رؤساء جمهورية الولايات المتحدة الأمريكة، والقى خطبة في الجامعة المصرية جاء فيها:

«تربية [١] الفرد وتعليمه حتى يصير صالحاً للعمل يستغرقان أعواماً طويلة، وهكذا تربية الأمة وإعدادها حتى تنجح في واجبات الحكومة الذاتية لا يتأتيان في عشر سنوات، أو عشرين سنة، بل يلزم لهما أجيال متعاقبة. إن بعض الدجالين الجهلاء يزعمون أن مجرد إعطاء دستور على الورق ولا سيما إذا جعلت له مقدمة ترن ألفاظها في الآذان؛ يجعل الأمة قادرة على الحكم الذاتي، وليس الأمر كذلك أبداً».

ثم قال: «إن جامعتكم جامعة وطنية لا تعرف عقيدة دون أخرى، وهذا كما يجب أن يكون. إذا ذكرت المساواة بين المسلم والمسيحي، فإنما أذكر ذلك على أعتقاد أنه حينما يكون المسيحي هو الأقوى؛ فالواجب عليه أن يعامل المسلمين بالعدل والإنصاف، وكذلك حينما يكون المسلم هو الأقوى فالواجب أن يعامل المسيحي بالعدل والإنصاف».

وسافر روزفلت إلى لندن وألقى خطبة طويلة عن السودان ومصر. فكان مما قاله عن السودان:

---

(١) نقلاً عن «تاريخ الأقباط فيي القرن العشرين» لرمزي تادرس ١٥١/٢ وما بعدها.

«الغرض الأكبر الذي كان أولئك السودانيون يرمون إليه بأستقلالهم وحكم أنفسهم بأنفسهم؛ لسوء الحظ؛ هو القضاء على كل الأديان الأخرى ما عدا دينهم واتخاذ الحرية التامة في المتاجرة بالعبيد. لكن هذا لا يعد نجاحاً، إنما النجاح الحقيقي فيما أنتهى إليه حكمحك- يعني الإنجليز- لتلك البلاد، بعد أن دالت منها دولة المهدوية. ذلك النجاح المدهش الذي لا أظن مطلقاً أن بلداً من بلاد العالم كله نال مثله، إذ أنتقل من منتهى الشقاء والفساد إلى أصح أنواع الحياة القومية، ولم يكن ذلك إلا في أثنتي عشر سنة فقط، منذ دخل تحت حكم السلطة الإنجليزية. ولا حاجة إلى القول إن تلك البلاد السودانية كانت إلى ذلك الحين مستقلة وحاكمة نفسها بنفسها، فليس كل أستقلال ولا كل حكم. فقد كان أستقلالها من قبيل أستقلال الذئاب في حظيرة واحدة، ينحر همها في نهش بعضها بعضاً، والسطو على الغير».

وقال عن مصر «إنكم- يخاطب الإنجليز- لستم فقط خفراء على مصالحكم في مصر، بل خفراء على مصلحة المدنية عموماً. فقد قدمتم لمصر أفضل حكومة رأتها منذ ألفي عام، وربما أفضل حكومة رأتها من بدء التاريخ، لأنه لم يذكر مطلقاً أن الفلاح المصري كان يعامل ما عومل به منذ الأحتلال الإنجليزي من العدل والرحمة وتحت حكومة خلت من كل فساد وهمجية. غير أن الحوادث الأخيرة ولا سيما حادثة مقتل بطرس باشا غالي بما تقدمها وما رافقها وما جاء بعدها من الحركات والنزعات؛ دلت دلالة واضحة على أنكم أخطأتم في بعض نقط حيوية بحيث تضنعون حسناً إذا أصلحتموها. وما كان هذا الخطأ لأنكم أفدتم

المصريين قليلاً، بل لأنكم أفدتموهم كثيراً. ولكن مصلحة المدنية تقضي لسوء الحظ علينا جميعاً أن نعامل الشعوب الغير متمدنة، ولا سيما الشعوب المتعصبة معاملة غير مألوفة عندنا، متذرين على الدوام بأن معاملة الرفق واللين والضعف في مركز كمركزكم في صر يضر بأكثر مما تضر معاملة الشدة والظلم. وليس بين العصا المرضوضة التي يتوكأ عليها العدل والحق ما هو أضعف ولا أسهل كسراً من عصا اللين».

هذا ما جاء في خطب روزفلت من المطاعن القبيحة في المصريين والسودانيين. وقد هاجت الصحف الإسلامية هياجاً شديداً، وحمل الكتاب والشعراء على روزفلت حملات شعواء، كما حمل عليه بعض الكتاب الإنجليز.

إلا أن المسيحيين في مصر أظهروا بإزاء هذه المطاعن الفرح والسرور، وقابلوها بالغبطة والحبور. ووضعوها على العين والرأس إذ لم يجدوا فيها من بأس، ودقوا في الكنائس الأجراس. وشكروا المسيح بكل قول فصيح، ومجدوا مريم البتول بكل لفظ مقبول. فنشرت صحيفة [١] الوطن بحروف كبيرة عنواناً هذا نصه «روزفلت– على الطائر الميمون يا نصير الحق، ويا منصف الأقلية من الأكثرية».

وتحت هذا العنوان برقيات كثيرة من مختلف الهيئات المسيحية فيها مدح عظيم لروزفلت، منها:

(١) الوطن في ٣١-٣-١٩١٠.

١- برقية من مدير جريدة الوطن، ونصها: بأسم الأمة القبطية بأسرها نشكركم على خطابكم السامي في الجامعة المصرية.

٢- برقية من جمعية الرابطة المسيحية ونصها: بلسان الشبيبة القبطية نقدم لكم واجب الشكر للنصائح الذهبية التي ألقيتموها علينا. ونسألكم أن تذكروا مصر في بلادكم النائية.

٣- من الطلبة الأقباط في مدارس الحقوق والهندسة والطب: نحن طلبة الأقباط بالمدارس العالية. نتشرف بأن نرفع إلى مقامكم عظيم تشكراتنا القلبية لما زودتمونا به في خطابكم النفيس بالجامعة المصرية من النصائح الغالية، والتصريحات الصادقة الحرة. ثم إننا بأسم الحق والعدل والمساواة نسألكم أن ترفعوا صوتكم على الدوام بالأنتصار للضعفاء، والدفاع عن حقوق الأقلية في مصر وأين وجدت. إمضاء ٢٥٦ طالباً قبطياً.

ومدحوه شعراً ونثراً. فمن ذلك ما قاله [١] رياض غبريال، وقد عرض في قصيدته لرحلة الصيد التي قام بها روزفلت في ربوع السودان، فقال:

أهلا بروزفلت العظيم ومرحبا	أكرم به ضيفاً أتى ونزيلا
للصيد جئت من المغارب سائحاً	تبغى إلى أرض العبيد وصولا
فقطعت أبحاراً وجبت فيافيا	وكأنها كانت لديك سهولا

(١) في ٣٠-٣-١٩١٠.

وهناك في بحر الغزال وأرضه … حل الركاب المغربي حلولا

طوراً يغازلك الغزال وتارة … تنحو فتصطاد الفرى والفيلا (١)

ومعفر الليث الزؤور بغيظه … قد جاء نحوك يطلب التمثيلا

يطوى صدور الأرض طية؟؟؟ … يطأ الثرى ويدكها تذليلا

لو كان هذا الليث يعلم أنه … يُلْقيِ شجاعا لا يهاب حؤولا

أو كان يدرك أنه في رثِيهِ … يلقى الرَّدَى والحتفَ والتنكيلا

النأى يهديء غيظه مستسلماً … وجرى يهرول هاربا مخذولا

غرَّته قوَّته فجاء مكافحاً … وقربت قربا ظنه التطفيلا

حتى إذا تم التقاؤكما معاً … حكم السلاح بأن يموت قتيلا

متخضبا بدم التغرّر ساقطا … وكأنما قابلته مشكولا

أسد على أسد وليس بنادر … أن يقتل الأسد العظيم هزيلا

فاز الذي أتخذ الشجاعة خُلَّةَ … عّظُمَ الذي أتخذ السَّداد خليلا

ما كل من زعم الرآسة فائزاً … فيها وما كل الرجال نبيلا

أهدى الزمان لأرض كولمبوس رُزْ … فلتَ العظيم مؤمَّلا ومُنيلا

أهدى الزمان كلامه فهدى به … من خير منطقة الرجال عقولا

أهداهمُ آراءه وكأنما … آراؤه كانت لهم تنزيلا

وكأنها التوراة في سلطانها … لا تقبل التحويل والتأويلا

أو أنه كان الرسول لأمة … إن قال قولا حبذا ما قيلا

نطقت بسؤدده البلاد تَغَنَّيا … بلغ الفرات دويُّةُ والنيلا

ياليت شعري هل لنا كم رأيه … أنموذج يستقطع التضليلا؟

أو هل لنا من خير أقوال الحجى … ذكرى نرتلها غدا ترتيلا؟

***

(١) الفرى: الحمار الوحشي.

وكان يعارضون بشدة وعناد طلب المصريين الخاص بجلاء قوات الأحتلال وذلك لأنهم توهموا أن حياتهم ورفاهيتهم رهينة بوجود النفوذ البريطاني. فهم بخير ما دام الإنجليز في مصر. وأما إذا غادروها فأغلب الظن أن الأكثرية الإسلامية ستنكل بهم، وستبعدهم عن الوظائف، وستضطهدهم كما كان يفعل الحكام في العصور الخالية؛ هكذا كانوا يعتقدون. وكانوا يقولون إن الحزب الوطني لا يدعو إلى الأستقلال، وإنما يريد إجلاء الإنجليز المسيحيين ليعيد البلاد إلى السيادة العثمانية. وقالوا إن فكرة الجامعة الإسلامية التي كان ينادي بها الحزب الوطني لا تؤدي إلا إلى إرجاع مصر إلى الحكم التركي. وأخذوا يوازنون بين أحوالهم في العصور الماضية، وما صاروا عليه في ظل الأحتلال. وقد كتب أحدهم في الوطن [١] سنة ١٩٠٩ مقالاً جاء فيه:

«قامت القيامة، وبلغت الشقشقة عنان السماء بطلب جلاء الأحتلال عن مصر؛ مؤكدين أن لا تعصب بين المصريين، وأن روح المساواة والإخاء ترفرف بجناحيها فوق الربوع. فأين ذلك الإخاء؟ وأين تلك المساواة التي يتمشدقون بها ما دامت حقوق الأقباط مهضومة إلى هذا الحد؟».

«كيف ننفي صفة الظلم وهي كامنة في الصدور كمون النار في الهشيم؟ فإذا ما كتموها مرة ظهرت مراراً. وما كان هذا التكتم إلا برقعاً شفافاً لا يلبث لأقل حادث حتى يتم خارجه عما بداخله. وما دام هذا

---

(١) الوطن في ١٥-٩-١٩٠٩.

حالنا وتلك أفكارنا فلا وطن ولا وطنية. وأما ما يسمونه إخاء ومساواة فما هو إلا لفظ بلا معنى».

وكانوا يطرون الأحتلال ويتغنون بفضائله ومناقيه، وما أداه للبلاد من خدمات. مثال ذلك ما كتبه رمزي تادرس، وهو:

«ونتج عنها- يعني الثورة العرابية- الأحتلال الإنجليزي الذي وطد الأمن في مصر، وأحيا فيها العدالة، وصيرها أمة متعلمة متحضرة غنية بعد أن كانت تهيم في دياجي الفقر والجهل والفوضى وسوء النظام».

ولما كان الحزب الوطني هو الذي يتزعم في ذلك الوقت حركة المطالبة بالحياة النيابية والأستقلال، فقد واجه رجاله حملات عنيفة متتابعة من كتاب المسيحيين وشعرائهم. حملات مملوءة بأقبح أنواع الشتائم والسباب. قال رمزي تادرس [1].

«على أن تلك الحضارة التي بسطت أنجلترا رواقها في وادي النيل بقوة رجالها وجهادهم المتواصل لم تبدد ميول الحزب الوطني القديم من الصدور، ولم يخفت صوته. فأعاد نفر من المتمصرين الحركة العرابية الأولى بصوت أشد، وقام ينازع الإنجليز في الوظائف التي يشغلونها ليتربع فيها، ويستعمل سلطته للتنكيل بالأمة، وإعادة المظالم الماضية، والأضطهادات الغابرة».

---

(١) الأقباط: في القرن العشرين ١٣/٢.

«فَهِم أدعياء الوطنية مرمى السياسة الأوروبية، ورأوا فيها تنشيطاً لإنجلترا على إتمام إصلاحاتها في الديار المصرية، ولكنهم لم يقتنعوا بما رأوا، بل أخذوا يضربون على نغمة الجلاء ظاهراً، وعلى نغمة المطامع باطناً فأنحاز إليهم بعض الموظفين الذين لم تؤهلهم كفاءتهم لنيل الوظائف العالية، وفريق من الرعاع والتلاميذ الذين لا يفقهون معنى الوطنية والوطن. ثم تمادوا في خطتهم إلى درجة نحطوا فيها بالمقت والإهانة على كل من يقول إن الوطنية الحقيقية تأمرنا نحن المصريين بإكرام النزلاء والأعتراف بفضل االإنجليز، واقتباس العلوم الحديثة منهم، والأقتداء بهم في حضارتهم وأعمالهم. وقد لا ينبغي لنا التعجب من تهورهم إلى هذا الحد البعيد، ليس لأنهم أهل وهم وخيال، بل لأنهم لا يعرفون الوطنية سوى كره الإنجليز وبغض الأجانب، حتى لتجدن أشدهم ذكاء، وأكثرهم علما ومعرفة بأحوال الأمم الراقية وطرق أرتقائها، يفضل أن يرى مصر– وهي ليست وطنه الأصلي– قاحلة قفراء، وأبناؤها فقراء جهلاء من أن يرى إنجليزياً أو أجنبياً يعمل على عمرانها وزيادة مواردها ورفاهيتها ».

***

وكان الحزب الوطني يضم فئة قليلة جداً من عقلاء المسيحيين وعلى رأسهم ويصا واصف الذي خلعت عليه الصحف القبطية لقب

«يهوذا ااسخريوطي» وأوسعته طعناً وتجريحاً. من ذلك ما كتبته صحيفة الوطن [1]:

«هذه الفئة القليلة الصغيرة من الأمة القبطية؛ الذين شذوا عن قياس أمتهم العام، وجعلوا يتقربون من الفريق المتطرف في عدا القبط، المنحط عليهم بالنقد والسخط، الطالب حرمانهم من الوظائف الحكومية».

«إن أفراد هذه الفئة القليلة من القبط لم يلقوا في طول البلاد وعرضها جريدة توافقهم على أفكارهم ويوافقونها غير اللواء الذي أشتهرت حملاته على الأقباط، والذي زور عليهم ما زور، وأفترى في كل هذه السنين. فهم ينمقون المقالات الباردة للواء، وقد جعلوه لسان حالهم كما أنه لسان حال الحزب المتطرف في طلب الجامعة الإسلامية والسيادة الإسلامية. فبارك الله لهم فيه، وبارك له فيهم».

إن الأمة القبطية تعرف مالها وما عليها، سواء خرج منها الأفراد الشاذون أو لم يخرجوا. وسواء أستعان اللواء بالمارقين من أبنائها عليها أو لم يستعن. ولطالما مرق الأفراد من حكم الأمم، وطالما قام في الأرض رجال من أمثال يهوذا الأسخريوطي، يعيشون من مصدر يخونونه؛ فلم تنهدّ الدعائم، ولا ماتت الأمم من فعال هؤلاء المارقين».

«دع القبطي الذي شذ عن قياس قومه يقول ما يشاء، ودعه يخدم مصالح نفسه بأية الطرق التي يضر ظاهرها بأمته الأصلية. إنه لن يلحق

(١) الوطن في ١٩٠٨/٦/٥.

بهذه الأمة ضرراً يمكن ذكره، ولن ينال رضى الفريق الناقم على أمته، المصادر لها، الميال إلى أسعبادها، ولو أضاء أصابع يديه ورجليه، ولو علق نفسه بحبل أطول من حبل يهوذا الأسخريوطي، فما هو بأول من شذ وشرد، وحاد عن سواء السبيل».

***

ولما عين اللورد كتشنر معتمداً لبريطانيا في مصر أواخر سنة ۱۹۱۱ أستقبله كتاب المسيحيين وشعراؤهم بالمدح الجزيل. قالت صحيفة الوطن [١]:

«هذا هو اللورد كتسنر أمير الخرطوم، هذا فاتح السودان، ومذل التعايشي والقاضي على دولة الدراويش».

وقالت [٢]:

«اليوم يصل القطر المصري رقيبه المظفر، وعميد احتلاله الأكبر. اليوم تقصف المدافع من قلاع الإسكندرية تحية للبطل الغضنفر أمير الخرطوم، اللورد كتشنر».

«اليوم يهتز قضاء النيل، وتدوي البلاد بخبر القدوم المنتظر. اليوم يبدأ الدور الثالث من أدوار الأحتلال الإنجليزي في مصر، فليستعد

(١) الوطن في ١٩١١/٩/٢٨.
(٢) الوطن في ١٩١٢/١٠/٥.

الناس لما أعدت الأقدار، وسطرت في تاريخ الأدهار. وليكن رجاء الخير غاية الكل. إن الخير مضمون في هذا الدور الجديد بإذن الله، وعليه الأتكال في كل حال».وكتب جندي إبراهيم [(١)] في الصحيفة المتقدمة تحت عنوان ضخم وهو: «أماني وآمال في عميد الأحتلال» قال:

«عاد إلى مصر شبابها الرائع، وعيشها السائغ بعودة اللورد كتشنر. وعادت إلى البلاد حركتها ونشاط أعمالها، لأنه منها بمثابة القوة المحركة من الآلة الدائرة، أو الباخرة السائرة، أو السفينة الطائرة. هو منها بمثابة الروح من الجسم، والعقل من الرأس. بل هو ملاكها الحارس، وصديقها الصادق، وربانها الحاذق يهيىء لها مرابع الرخاء ومرانع الهناء. ويوردها موارد الراحة والرفاهية، ويخلع عليها لباس الصحة والعافية».

«فلا غرابة إذا توجهت ركائب الآمال إليه، وتعددت وجوه المطامع والرغبات الصالحة بين يديه. ولا عجب إذا دلفنا إلى جنابه الرفيع بأماني الرعية التي يحرص على مصلحتها، ويسعى جهده إلى إسعادها وإنماء ثروتها».

وقال الشاعر المسيحي عزيز بشاى [(٢)] تحت عنوان: «فخامة اللورد كتشنر».

عـــاد الهمـــام وفـــارس الميـــدانِ   وأخـو العـلا والفضـل والإحسـانِ

---

(١) الوطن في ١٩١٣/١٠/٣.

(٢) الوطن في ١٩١٣/١٠/٣.

والخـائض الغَمَـرَات فـي يـوم اللقـا والفـاتح الأمصـار والبلـدانِ
والمسـتغاث بجاهـه والمرتجـي والمنصـف المظلـوم واللَّهفـان

***

شـرَّفت مصـر فرحبـت بقـدومكم عشـرون مليونـاً مـن السـكانِ
شدُّوا الرحال إلى ركابك كي يروا الـ ـأسد الهصـور وفـاتح السـودانِ
رفعـوا الأيـاديَ للسـماء وأنشـدوا يـدعون للـورد بكـل لسـانِ
نطـق الجمـاد بفضـلكم متـأثراً ولسـان حـال الطيـر والحيـوانِ
فلأَنـت أعظـم فـاتح فـي أمـة رفعـت منـار العلـم والعرفـان
ولأنـت أعظـم عامـل فـي دولـة بلغـت عنـان المجـد كـل أوان

***

أنقـذت فلاحـاً وصـنت حقوقـه مـن جـور أهـل الظلـم والطغيـان
علمتـه التـوفير والتفكيـر فـي غـدر الزمـان وطـارق الحـدّثان
أوصـلت مـاء النيـل لـلأرض التـي قـد خانهـا حـظ مـن الفيضـان
فتـدفقت فيهـا الحيـاة وأصـبحت مـن كـل فاكهـة لهـا زوجـان
ومحـاكم الأخطـاط أعظـم خدمـة فـي صـالح الفقـراء والأعيـان
سـاد السـلام وولـت الفوضـى وقـد شـعر الجميـع براحـة وضـمان

***

لا زلـت تقـتحم الصـعاب وتمتطـي قمـم العـلا والمجـد كـل زمـان
ونعيـد للـوطن العزيـز مكانـة كانـت لـه فـي غـابر الأزمـان
فأسـلم وُقِيـت الشـر مـن كيـد العـدا متأيـداً بعنايـة الـرحمن
وأنظـر إلـى المسـتخدمين فـإنهم أحـرى بنظـرة رحمـة وحنـان
هـم ينظـرون إلـى مكـارم كتشـنر نظـر العليـل لصـحة الأبـدان

وقال جندي إبراهيم صاحب جريدة «الوطن»[1].

اهـــلا بمقـــدمك الكـــريم ومرحبـــا	فـالقطر مـن قـدم إليـك لقـد صـبا
لعبـــت بـــه الأغـــراض لعبـــة ظـــالم	هيهـات غيـر الظلـم أن يتطلبـا
فتقـــاطع الســـكان بعـــد تَـــوَادهِم	وتفرقـــوا بميـــولهم أيـــدي سَـــبا
فـاقطع بحزمـك حبـل كـل دسيسـة	وأفصـم عُـرى الأغراضـوأجعلها هبا
فلأنـت موسـى اليـوم فيـك نجاحنـا	بســداد رأي لا بســيف مــا نبــا
فأعـد إلـى هـذى الـبلاد حياتهـا الـ	ـأولى بعـدل كـم وكـم قـد أطربـا
وأرفـــع منـــار الحـــق بعـــد ســـقوطه	فـالقبط لا يرجـون غيـرك مأربـا

ولم يستفد المسيحيون من كتشنر أية فائدة. فإنه رفض أن ينظر في طلباتهم التي نادوا بها أيام غورست. وفي أيامه حدث شقاق عظيم بين الأقباط حول موضوع الأوقاف القبطية، ورفع إليه خصوم الإكليروس مذكرة بوجهة نظرهم وألتمسوا منه أن يتدخل لحل هذه المشكلة حلا عادلا، فأعتذر لهم عن التدخل. وبذلك كسب عطف الإكليروس حتى أنه لما مات غريقاً في صيف سنة ١٩١٦ أقام البطريرك صلاة على روحه في الكنيسة المرقسية الكبرى، وأغلق الأقباط متاجرهم، وكذلك أغلقت المدارس القبطية أبوابها.

وإذا كان شعراء المسلمين قد أكثروا من مدح السلطان عبدالحميد وغيره من سلاطين آل عثمان، ووصفوهم بالعدل والإنصاف، وخلعوا عليهم الفضائل والمناقب التي لا أساس لها من الواقع؛ فإن شعراء

(١) الوطن في ١٩١٢/١٠/٥.

المسيحيين لم يجدوا أية غضاضة في مدح ملوك الإنجليز. قال قسطنطين داود من قصيدة طويلة [1]:

يا جورج يا حامي ذِمارَ السلم قد تُوِّجت إذ للتاج أنت مُؤَهَّلُ
فحكمت مملكة بحسن سياسة تجلو المشاكل والصعابَ تُذَللُ
حقاً فإنك ذلك الفرد الذي أبداً يحل المعضلات ويفصلُ
بسديد رأيك قد أدرت شئون دَوْ لَتِكَ العظيمةِ ساهراً لا تغفلُ
والعدل والإنصاف ما بين الورى في كل ملكات عنهما لا تعدلُ
ولذا سموت على الملوك بأسرهم شرفاً وموطئك السماك الأعزل
وكذا بلادك في العلا والعلم والـ ـعمران صار لها المحل الأول
أصبحت بحراً بالمعارف زاخراً وغدوت غيثاً بالعواطف يهطلُ
شجعت أهل العلم طراً بالندى وبما عليهم دائماً تتفضلُ
يا طالبي الإنصاف هذا المنهل الصَّـ ـافي، وهل من بعد ذلك منهملُ؟
يا طالبي الإسعاف عذا دوحة الـ ـعافي التي كلَّ الأنام تظللُ
لله مملكة سمت بك وأعتلت فوق السماك وعنه لا تتحول
دامت شموس سنائها بالسعد طا لعة كشمس سمائها لا تأفلُ

وقال قسطنطين نوفل من قصيدة طويلة [2]:

قد جاءه التاج ميراثاً يزينه فأصبح التاج فيه اليوم مزداناَ
سلطانه امتد في الدنيا على أمم لو خُيروا ما ارتضوه إلاَّهُ سلطاناَ
يحمي حمَى الدين كي تُهدى زواجره مَن ليس يرهب في دنياه ديَّاناَ
يا عاَهلا تحسد الأرضَ السماءُ به تتويجك اليوم عيد فيه بُشْراناَ

---

(١) الوطن في ١٩١١/٦/٢٣.

(٢) الوطن في ١٩١١/٦/٢٧.

هـاك الملائـك فـوق العـرش حاثمـة عليـــك تســـتنزل الآراء رضـــواناَ
جـاءت تهنئـك الـدنيا ومـن ملكـوا قيادهـا فـي الـورى يـا خيـر دنيانـاَ
فأســتقبلنهم جـــوار منـــك مرســلة يبيـت فـي وصـفها المنطيـق حيرانـاَ
بيضـــاء رائـــدة، ســـوداء ســـائدة كم أخضعت ف الورى بيضاً وسوداناَ
البحـر قـد ضـاق عنهـا وهـو متسـع والبـر تحـت حماهـا بـات عمرانـاَ
إنـي تقـيم يقـيم العـدل مَضْـرِبَةُ وحيـث ترسـو تـؤاخي الأسـدُ حملانـاَ
يـا أيهـا الملـك المرهـوب جانبـه زدت اتَضـاعاً لـذاك ازددت سـلطاناَ
الهنـد تـذكر مـا أوليـت مـن نعـم ومصـر مـا عرفـت للفضـل نكرانـاَ
وهـؤلاء «بُـوَيْر» القـوم قـد وجـدوا بعـدل حكمـك بعـد القهـر سـلواناَ
مـن كـان مثلـك بـالتقوى تـدرّع لا تقـوى عليـه صـروف الـدهر عـدواناَ
مـولاي مـدحك أولـى الشـعر مفخـرة لـذا بمـدحك قـد أصـبحت ولهانـاَ
فعـش طـويلا لخيـر النـاس إنهـم سـواك للخيـر لا يرجـون إنسـاناَ
وأقبـل تهـاني قسـطنطين عبـدِكَ مَـنْ يَعُـدُّ مـن الرضَـى فخـراً ونيشـاناَ

وقـال سـليم عبـد الأحـد مـن قصـيدة طويلـة فـي مـدح الملـك جـورج الخامس[١]:

يـا صـاحب العـرش الرفيـع عمـادُهُ المسـتظل بجانبيـه السـؤددُ
تعلـو لصـولته الشـعوبُ وتنحنـي قدَّامَـه رُكَّـبُ الملـوك وتعبـدُ
عـرش تؤيـده السـفائن دونهـا شُـمُّ الجبـال الراسـيات وتَعْضُـدُ
الشـامخاتُ السـابحاتُ تَعُـجّ مِـن أثقالهـا لُجَـجَ المحـيط وتُزْبِـدُ
يـا ابـن الجبـابرة العظـام ونسـل مَـن ثلـوا عـروش الفـاتحين وبـدَّدُوا

(١) الوطن في ١٩١١/٦/٢٥.

وعلــت لهـــم فــوق المجــرَّة رايــة ... نـــزل الســـماك بظلهـــا والفرقـــد
أوتيــت مجــداً مــن جــدودك ذكــره ... يفنــى الخلــود، ولا ســواه يُخَلَّــدُ
وورثـــت عـــرش الفـــاتحين وإنمـــا ... لك في قلوب الناس عرش أمجدُ
قامــت حواليــك الملــوك وأنــت فــي ... مجـد تخـر لـه العـروش وتسـجدُ
مجـــد إذا قـــيس الخلـــود ففتـــرة ... تفنـى وعرشـك فـي القلـوب مؤيـد

***

يـــا باســـطاً ظـــل الســـلام وناشـــراً ... للعـدل أولويـة بفضـلك تشـهدُ
فخـــر الملـــوك ســـيوفهم مســـلولة ... وفخـار سـيفك أن سـيفك مغمـدُ
ولَـــرُبَّ ممجـــد لا يـــدوم وصـــولة ... تفـي فينسـاها الزمـان ويجحـدُ
تطـــوى بقاياهـــا الـــدهور وتختفـــي ... آثارهـــا فـــي اللاحقـــين وتفقـــدُ

***

يـا صـاحب التـاج المرصـع حبـذا ... تـــاج بآيـــات الجـــلال مؤيـــدُ
لــك صــولجان الملــك يــوم تهــزه ... تجـد الملـوك لـه تقـوم وتقعـدُ
آلــت إليــه مــن جــدودك دولــة ... شـماء يغبَطهـا الزمـان ويحسـد
تبقـــى علـــى مـــرَّ الـــدهور فإنهـــا ... ملـــك لـــه يـــوم القيامـــة موعـــدُ
ملـــك تضـــيق الأرض عنـــه وإنمـــا ... هو مثل عرشك في القلوب مشيدُ
مـــا إن تغيـــب الشـــمس عنـــه لأنـــه ... ضـخم برحـب الخـافقين مرطَّـدُ
تحميـــه رايـــاتٌ عليـــه خوافـــق ... وتـرد عنـه الحاسـدين وتبعـدُ
صـــاغوا لـــك التـــاج الجليـــل فإنـــه ... مـا لاق بالتيجـان غيـرك سـيد
تـــاج جـــواهره مـــآثرك التـــي ... يشـدو بهـا هـذا الزمـان وينشـدُ
فاهنـــأ بـــه أبـــداً ودهـــرك غافـــل ... وأنعـم بعرشـك والحـوادث رُقَّـدُ
ظـل الإلـه عليـك مـا طـال المـدى ... يهـديك فـي سـبل الكمـال ويرشـدُ

وقال نصر لوزا الأسيوطي [1] تحت عنوان «إلى جلالة ملك بريطانيا، وأمبراطور الهند والنيل» في ٢٣ ديسمبر سنة ١٩١٤:

دانت لحكمك في الورى الأيامُ ... ومشت تؤيد عدلَكَ الأحكامُ
أخضعت كل الأرض فأبعث عسكراً ... للشهب تخضع مثلها الأجرامُ
وأنشر جنودك في البلاد فإينما ... حلت يحل الأمن والإنعامُ
ما من بلاد للسلام مريدة ... إلا أتاها من لَدُنك سلامُ
لله درك من مليك تزدهي ... من مجده الأيام والأعوام
لله درك قد سموت إلى السهى ... وغدا مكانك ليس ثَمَّ يُرَامُ
بُلّغت في الأمصار حكما نافذاً ... لا النقض يعقبه ولا الإبرامُ
وَطَّدْت عدلك في ممالك سلمها ... جَوْرٌ يُرَوَّعها به الحكامُ
والعدل يقهر في البرية أنفساً ... لا الرمح يقهرها ولا الصمصامُ
إن الشعوب إذا صفا لك وُدُّها ... ليست وإن جار الزمن تُضامُ
وإذا تعدَّت بالهوى سبلُ الهُدى ... فمماتها طولَ الحياة زُؤَامُ
دافعت عن حوض الضعيف بجحفل ... النصر حتما حيث سار لِزَامُ
جيش يدك الراسيات إذا مشى ... وتُراع منه بأسدها الآجامُ
النصر يمشي خلفه وعدوه ... أني يسير حتوفه قُدَّام
هو للهزيمة إن أمرتَ هزيمة ... يوم النزال وللحِمامِ حِمَامُ
جيش إذا أستل الصوارم ينمحي ... بالليل من لمعانها الإظلامُ

***

مولاي أخضعت القلوب وأصبحت ... طوعا لك الأرواح والأجسامُ
لك جحفل في أرض مصر رابض ... خفقت بنصرك فوقه الأعلامُ
هو ساهر يحمي الكنانة بينما ... سكانها في غبطة نوَّامُ

(١) الوطن في التاريخ المذكور.

ســتنال مصــر هناءهــا لمــا غــدا بيــديك لــوطن العزيــز زمــام

حمــدَتْ رعايتــك الكنانــة وأنبــرى يثنــى عليــك النيــل والأهــرامُ

وتحــدثت بفعالــك الغــراء مــا بـين الـورى الأعـراب والأعجـامُ

إن النصــارى بــايعوك ومــثلهم قــد بايعتــك لعــدلك الإســلامُ

يـدعو لنصـرك فـي الكنيسـة بطـرك ويجـل ذكـرك فـي الصـلاة إمـامُ

والطيــر غــرد فــي الكنانــة بــالمنى وتمايلــت لورودهــا الأكمــامُ

مصــر العزيــزة أخلصــت فــي حبهــا ومــديحها بــك مبــدأ وختــامُ

***

هذه القصائد تزخر بالعواطف الصادقى، وتفيض بالمشاعر المتوقدة والأحاسيس الملتهبة. وفيها صورة جلية لنفسية المسيحيين، وما كانت تنطوي عليه جوانحهم من ميل شديد إلى الإنجليز، وحب خالص لهم، وتعلق بهم ولا عجب في ذلك فهم يجتمعون معهم في العقيدة الدينية. ويخطيء كل الخطأ من يظن أن الإنسان قادر على التجرد من العواطف الدينية. وإذا سلمنا بذلك، وسلمنا بحق الشعراء المسلمين في مدح سلاطين آل عثمان؛ وجب علينا والحالة هذه أن ننظر إلى مدائح شعراء الأقباط في ملوك الإنجليز بعين التسامح وبخاصة وأن العصر الذي نظمت فيه كان التعصب الديني على أشده بين العنصرين هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نجد بعض شعراء المسلمين مثل حافظ إبراهيم، وأحمد نسيم وغيرهما قد مدحوا ملوك الإنجليز.

وشعراء الأقباط صادقون كل الصدق حينما يصفون ملوك الإنجليز بالقوة والبأس وأتساع الملك الذي لا تغيب عنه الشمس. وحينما يتحدثون عن الأساطيل والجيوش البريطانية. أما شعراء امسلمين فكانوا

إذا تناولوا هذه الأمور بالنسبة للسلطان عبدالحميد تكلفوا القول، وتخيلوا ما لا وجود له، متجاوزين الحقائق المؤلمة التي كانت تحيط بهم وتقرع آذانهم، وتنذر بزوال البقية الباقية من الإمبراطورية العثمانية. وكأن شعراء الأقباط أحبوا أن يردوا ضمنا على المدائح السلطانية، وينقضوا على شعراء المسلمين قصائدهم في هذا الموضوع.

ولم تخل مدائح النصارى هذه من مبالغات، بل ومن طعن في المشاعر الوطنية. أنظر إلى قول نصر لوزا عن جيش الأحتلال:

هو ساهر يحمي الكنانة بينما ... سكانها في غبطة نوام

فهل حقا نام المصريون فرحين آمنين مطمئنين حينما وضعت مصر تحت الحماية، وأعلنت الأحكام العسكرية سنة ١٩١٤، وسيق شبان المصريين إلى ميادين القتال، ونهب الإنجليز ثروات البلاد بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد؟

وأنظر إلى قوله:

ستنال مصر هناءها لما غدا ... بيديك للوطن العزيز زِمامُ

أي أن مصر ستحظى بالسعادة والرفاهية، لأنها أصبحت تحت حماية الإنجليز. وأنظر إلى قوله:

يدعو لنصرك في الكنيسة بطرك ... ويجل ذكرك في الصلاة إمامُ

فقد كان أئمة المساجد يذكرون أسم السلطان العثماني باعتباره خليفة للمسلمين، ويدعون له بالنصر. فلما وضعت مصر تحت الحماية البريطانية في ديسمبر سنة١٩١٤ حذف اسم السلطان من الخطبة. فالشاعر المسيحي يقول إن أئمة المساجد يدعون لجورج الخامس ملك الإنجليز، ويذكرون أسمه في خطبهم مقروناً بالإجلال والتعظيم. وفي هذا ما فيه من إيلام لعواطف المسلمين، وتجاهل لشعورهم الذي كان حساساً جداً في ذلك الوقت بالنسبة لهذا الموضوع بالذات.

***

وفي موضوع أمتداد أمتياز شركة قناة السويس وقفت الصحف الإسلامية صفا واحدا تعارض هذا المشروع معارضة شديدة، في حين أن المسيحيين كانوا يؤيدونه. وقد كتب (١) سلامه موسى مقالا جاء فيه:

«نحن في حاجة إلى نقابات زراعية ومدارس وخزانات وإصلاح أراضي. فمن أين نأتي بأموال لهذه المرافق؟ وقد بلغت الضرائب أعلاها على الفلاح وكادت تبهظه».

«إنهم يعرضون علينا مبلغاً كبيراً من المال نحن أشد الحاجة إليه. فلا يجب أن نرفضه حتى نقيم الحجة على خسارة الصفقة. فهل نرى

---

(١) المقطم في ١٤-٥-١٩١٢.

المبلغ قليلاً أو نظن أننا نربح بدخول القناة في حوزتنا بعد أنقضاء مدة الأمتياز أكثر مما نربح بما عرض علينا؟».

«فإن كنا نأمل مليماً واحداً من القناة حين وضع يدنا عليها بعد نصف القرن الآتي، فإنما نأمل القبض على العنقاء. ولماذا؟ لأن الشركة الحاضرة تضرب الرسوم الفادحة معتمدة في ذلك على قوة إنجلترا وفرنسا، لأن أكثر مساهميها من أبناء هاتين الدولتين. فهما يحميان القناة، ويلزمان كل من يأبى أن يدفع بالدفع والإذعان. فالقوة هي رأس ال القناة الحقيقي».

«وإذا أنتهى عقد الشركة ودخلت في حيازتنا؛ أبى أصحاب السفن أن يدفعوا ملماً واحداً لنا؛ وساعدتهم دولهم على ذلك، وعجزنا نحن عن إلزامهم بالدفع. ومهما يقل فينا القوالون إننا بناء الأهرام، وأشرف الخلق والأنام؛ فإننا لعجز ونعجز حينئذ عن رد أسطول ألمانيا حينما يريد المرور مثلا مجاناً».

«فالخطة المثلى الآن للفرد وللأمة هي خطة المصالح. ومصلحتنا أن تكون لنا قوة، أو نستند إلى قوة في أستغلال هذه القناة. وليس ثم طريق مثلي لهذا الأستغلال إلا بالإستناد إلى قوة فرنسا وأنجلترا بالأتفاق مع الشركة».

وقد عاش سلامه موسى حتى شاهد تأميم شركة قناة السويس، وإنهاء أمتيازات الشركة الأجنبية. وشاهد نجاح النصريين في إدارتها

وتمصيرها. فلعله تذكر ما كتبه سنة ١٩١٢ في هذا الموضوع، لعله سخر من نفسه. ومن العجيب أن المشروع الذي أجمعت الأمة على رفضه، ينبري بعض كتاب الأقباط للدفاع عنه والدعوة إلى قبوله في عبارات تقتل الهمم وتميت العزائم.

***

ذكرنا أن المسيحيين قابلوا كتشنر حين قدومه إلى مصر بالحفاوة والترحيب، وعلقوا عليه آمالاً كبارا. وذكرنا أن كتشنر لم يعرهم أي التفاف، وذلك لأن جو السياسة الدولية كان ملبدا بالغيوم، وكانت نذر الحرب العالمية الأولى قد بدأت تظهر في الأفق. فأدرك المسيحيون أنه لا فائدة ترجى لهم من الأعتماد على الإنجليز. وراو الخير كل الخير في الأئتلاف مع المسلمين، وفي حلول الوئام بين أبناء الوطن الواحد محل العداوة والخصام. قال رمزي تادرس:

«والشاهد لذلك أن الأحوال العامة في البلاد كانت خلال المدة التي أعقبت المؤتمرين القبطي والإسلامي؛ بمثابة تيار خيالي لا صفة له ولا هيئة سوى تخبط عام تخلل صفوف الأمة كلها دون أن تلحظ أسبابه ونتائجه حتى أنها كانت تدور في دائرة واحدة مرماها التهيج الفكري بلا قصد ولا سياسة اللهم إلا مقارعة بعضها بعضاً مقارعة قولية عنيفة إن لم تؤثر في بنيان الجامعة القومية المتين، فقد أراحت الستار عن الجهل المتفشي بين الأقباط والمسلمين، وأثبتت للملأ أجمع أنه ليس من

حادث وقع في مصر وبرهن على أنها لا تزال في أول أدوار الأرتقاء أكثر من هذا الحادث عينه».

«على أن النتيجة الحسنة التي جاءت مطابقة لأميال العقلاء وكسحت أمامها كل البذور المسممة تثبت لنا أمراً آخر جديراً بالألتفات؛ وهو أن الأنعطاف الطبيعي بين الأقباط والمسلمين لا يمكن أن يزو مهما حدث من الحوادث. ولذا أرى من الضروري أن يعتمد الأقباط في نيل مطالبهم على إخوانهم».

ثم قال: «وبالإجمال فإن مشاهدات الأحوال تدل على أن لا ينطوي هذا العام- ١٩١١- في سجل التاريخ قبل أن يحمل في جوفه صفحة بيضاء تثبت للذرية القادمة أن الأمة المصرية أمة حية لا تعرف ديناً غير الوطن، ولا مذهبا غير الإخاء، ولا عقيدة غر التسامح والوئام».

وقال صحيفة الوطن في ١٥-١-١٩١٥ «إن الطوائف المسيحية يجب أن تخرج من عزلتها شيئاً فشيئاً، وتندمج بقدر الإمكان في المجموع الوطني، فلا تحرص إلا على معتقدها الديني، وما كان له مساس بهذا المعتقد من الأمور».

***

مر بنا أن المسيحيين كانوا يودون دوام الأحتلال البريطاني. ولكن من الحق أن نقول إن المسيحيين لم يكن لهم يد مطلقاً في إدخال الإنجليز مصر. وإنما الذي أدخلهم كما هو معلوم هو الخديو محمد

توفيق والخونة من المسبمين. ولم يكن للمسيحيين يد في تمكين الأحتلال من البقاء أكثر من سبعين عاما، وإنما الذي مكن له سبيل البقاء هذه المدة الطويلة هم الخونة من المسلمين الذين تعاونوا معه بألسنتهم وأيديهم. وتاريخ الوزارات المصرية في عهد الأحتلال معروف. قال حسين [1] رشدي باشا رئيس الوزارة المصرية في تصريح له لمندو صحيفة الفارد الكسندري في ٢٤-١٢-١٩١٥ ما نصه:

«بصفتي وزيراً أصرح بأن مصر؛ إذا فرض ولم تكن حاصلة على مساعدة ومعونة أنجلترا؛ لوجب أن تفتش لها على دولة قوية وصديقة مثلها لتكون عوناً لها. وإني أقول مرة أخرى بأننا لا نستطيع أن نعيش وحدنا، ولا يمكن لمصر أن نستقل عن سواها استقلالا سياسياً، وذلك لأن موقعها الجغرافي، وحدودها الغربية المتصلة بالصحراء، ومركزها بإزاء القنال، وكونها طريقاً للهند، كل هذه العوامل تجعلنا مطمعاً للغير».

«إني أريد أن تكون لمصر حماية تعطي لإنجلترا حق المراقبة المطلقة على القنال، وحق المراقبة المالية أيضاً. ولكني أريد بأن تبقى في مصر حكومة حرة ذات حاكم مستقل، ووزارة وهيئة نيابية مستقلتين كذلك».

ولم يشرح لنا حسين رشدي كيف يمكن أن تقوم في مصر حكومة حرة مع وجود الحماية البريطانية، ومع وجود جيش الأحتلال.

---

(١) (١٨٦٣_١٩٢٨).

وكانت صحيفة المنبر لصاحبها أحمد حافظ عوض تنشر أحياناً ما يؤيد وجهة نظر المسيحيين في تمسكهم بالأحتلال البريطاني. فقد كتبت مقالاً تحت عنوان «ما يقوله المسلمون في الهند يقوله الأقباط في مصر» ونقلت في هذا المقال مثالا مما تنشره مجلة عليكرة لسان حال مسلمي الهند (١٦-٧-١٩٠٨) وهو:

«... على أن الدين الإسلامي يأمرنا في الوقت ذاته أن نطيع أولي الأمر منا. وفوق ذلك فإن الحرية التي نتمتع بها تحت ظل الحكومة الإنجليزية لم ننل مثلها قط حتى في أيام ملوك الإسلام. وهناك كثير من إخواننا المسلمين يعيشون تحت ظل حكم ملوكهم أو حكامهم المسلمين، ومع ذلك لا يتمتعون بعشر معشار ما نتمتع به من الحرية».

كان الأدباء المسلمين الذين مدحوا الأحتلال وأطروه، وطعنوا في الحزب الوطني وهجوه قلة ضئيلة مأجورة، تتكلف القول، وتجرى أقلامها بعكس ما تنطوي عليه جوانحها. أما الأدباء المسيحيون الذين سلكوا فكان أدبهم يزخر بالعواطف الصادقة، والمشاعر المتوقدة.

٢- مقتل بطرس غالي وأثره في الأدب القبطي

أخذت الحركة الوطنية في مصر تنمو يوماً بعد يوم، وأشتد السخط على الإنجليز أشتداداً عظيماً بعد حادثة دنشواي. وكانت الصحافة تعمل في غيركلل ولا ملل على إذكاء الروح الوطني بين طبقات الأمة، وبخاصة طلبة المدارس الثانوية والفنية والعالية.

وأنتهى الأمر بأستقال لورد كرومر سنة ١٩٠٧ وخلفه السير الدون غورست؛ فنهج في سياسته منهجاً أراد به أن يقضي على الروح الوطني قضاء تاماً، غير حاسب حساباً للتغير الزمني، والتطور الأدبي والمعنوي الذي أصبحت عليه البلاد في ذلك الوقت.

وأسندت رئاسة الوزارة إلى بطرس غالي، فكان أداة طيعة في أيدي المحتلين، إذ أنه أصدر قانون المطبوعات الذي ضيق على الصحافة وكمم أفواهها.وقد ألفت مظاهرات، وألقيت خطب، وأنشدت قصائد تفيض بالإحتجاج والسخط على مسلك الوزارة البطرسية إزاء الصحافة.

وقد أتجهت أنظار المحتلين إلى الحيلولة بين الطلبة والأستغال بالسياسة. فبثوا الجواسيس في المدارس والمعاهد ليتتبعوا حركات الطلاب، ويعرفوا المحرضين على التظاهر. وطفقوا يضعون العقبات في سبيل إنشاء المدارس. قال السير الدون غورست في تقريره عن سنة

١٩٠٩ «وما دامت المدارس نقطة الدائرة التي تدور حولها مساعي المضللين السياسيين، فلا مناص من إبطاء تعليم الشبان المصريين».

فأنت ترى أن سياسة غورست كانت تضييقاً وأرهاقاً على طول الخط. وكان من سوء حظ بطرس غالي أن تولى تنفيذ تلك السياسة.

على أن السبب المباشر لمقتل رئيس النظار؛ هو موقفه في الجمعية التشريعية حين عرض مشروع أمتداد أمتياز قناة السويس. فقد دارت مناقشة حامية بين بطرس غالي، وإسماعيل أباظه حول رأي الجمعية: أهو رأي قطعي أم أستشاري؟ فأبى رئيس النظار أن يتقيد بكلمة صريحة. وطال الأخذ والود بينه وبين زعيم المعارضة على غير جدوى. وكان إبراهيم ناصف الورداني حاضراً في تلك الجلسة، وقد ذكر السيد علي الشمسي أنه رأى رأي المتهم وقد أمتقع وجهه، وأشتد حنقه. وأعترف الجاني بأنه صمم على مقتل رئيس النظار منذ تلك الليلة.

والحقيقة التي لا لبس فيها ولا غموض أن مشروع القناة هذا قد أغضب الرأي العام غضباً شديداً وأشتركت الأمة كلها- عدا الأقلية القبطية- في الدعوى إلى رفض المشروع لما يجره على البلاد من الخسائر. وأخذ الكتاب والشعراء والخطباء يحثون الرأي العام على الثورة في وجه الحكومة التي كانت تحتضن المشروع وتدافع عنه.

وقد أنتهت هذه الحملات كلها بتلك الحادثة المؤلمة التي ذهب صحيتها بطرس غالي. قالت صحيفة الأهرام بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ ما نصه:

«أمس الأح الساعة الواحدة بعد الظهر أهتزت القاهرة، بل أهتزت البلاد كلها، لطلق ست رصاصات من يد شاب وطني على عطوفة رئيس النظار بطرس باشا غالي، وهو خارج من نظارته يستعد لركوب عربيته. أطلقها عليه فتى وطني أسمه إبراهيم ناصف الورداني، لا يتجاوز عمره الثالثة والعشرين فقبض عليه في محل أرتكاب الجريمة، وربط بحبل، وسجن في إحدى غرف نظارة الحقانية. واستلمه سعادة النائب العمومي للتحقيق معه».

وما كاد هذا النبأ ينتشر حتى سرى الرعب وعم الخوف وأقفلت المحلات التجارية، وقر الناس في بيوتهم. وذهب الخديوي عباس الثاني إلى مستشفى ملتون بباب اللوق حيث كان الرئيس قد نقل إليه لعلاجه، فأثر هذا العطف في نفوس الأقباط، فقابلوه بالشكر والأمتنان. ونوه به شعراؤهم وكتابهم. فمن ذلك قول كامل مرقس:

نيـران للقـبط لـم يُخمـد لهـا لهَبـا — إلا دمـــوعُ أميـــرٍ، دام مولانـــا

وقال بسطا شاى منوهاً بعطف الخديو:

وميلكنـــا المحبـــوب يُبـــدي نحـــوه — عطـفَ الشـفيق ودمعـةُ محـدورُ
رب الأريكـة كـم لكـم مـن نعمـة — مـلأ المسـامع ذكرُهـا المـأثورُ

ماتت نفوس القبط من حزن وقد أحيا رجاها عطفك المشكورُ

ومنها يخاطب الفقيد:

أعلمت ما أبدَى المليك من الأسَى لما تحقق موتَك الجمهورُ؟
سكب الدموعَ عليك وهْيَ غزيرة وبدا على الوجهِ الكريم بُسورُ
أأزيدُ علمَك بالمليك وفضله أنت الذي بِخُلَى المليك خبيرُ؟

وقد خرجت جنازة الفقيد في مشهد رهيب. وكانت الأجراس تدق فتزيد القلوب حسرة، وتذيب النفوس لوعة. وجاءت وفود الأقباط من الأقاليم للأشتراك في تشييع الجنازة. ومشى الناس خاشعين مطرقين، وقد خنقتهم العبرات، وتصاعدت منهم الزفرات.

***

وكان عبد الخالق ثروت– إذ ذاك– نائباً عمومياً. فجد وأجتهد في تحقيق الجريمة. وأعترف الجاني بأنه قتل بطرس باشا لأنه خائن لبلاده. وقد ذكر أن خيانته تبينت في حادثة دنشواي، وفي أتفاقية السودان، وفي تعاونه مع الإنجليز في القضاء على الروح الوطني بإصدار قانون المطبوعات، والتضييق على الطلبة حتى لا يشتغلوا بالسياسة، وأخيراً في موقفه من مشروع قناة السويس.

وقام عبدالخالق ثروت بمهمته في التحقيق خير قيام. فأصدر أمره بتفتيش دار الحزب الوطني. وألقى القبض على البارزين من رجال هذا الحزب، وحقق معهم تحقيقاً دقيقاً، كما ألقى القبض على ثمانية من

أصدقاء الجاني بتهمة أشتراكهم معه في الجريمة. وقد جرى التحقيق الأول مرة في تاريخ القضاء المصري بصفة سريى، وأحيط بالكتمان الشديد. فترتب على ذلك رواج الشائعات الكاذبة رواجاً لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد. وتولدت بين المصريين حالة نفسية خاصة سببت متاعب كثيرة. قالت صحيفة المقطم في ١٦ فبراير سنة ١٩١٠:

«نحن لا نشكو من الكتمان التحقيق ما دام الكتمان يسهل السبيل، ويعين على الوصول إلى كشف الحقيقة. ولكنا نرجو أن سعادة الفاضل النائب العمومي يراعي حالة الهيجان المتسلط على الخواطر والأذهان في هذه الأيام، ويسعف الصحف بتسكينه. ورد المياه إلى جواريها الأولى. وذلك بإعطاء ما يمكن إعطاؤه من الأخبار المحققة التي يرى أن أمرها قد أنتهى، ولم يعد لها شأن في التحقيق حتى ينقي نشرها جو القطر من بعض ما يكدره الآن من الإشاعات الهائلة والأراجيف المثيرة المنتشرة في كل مكان».

ومن أمثلة المتاعب التي جرها هذا الحادث على الجمهور ما نشرته المقطم بالتاريخ المذكور وهو «... وكذلك سولت النفس الأمارة بالسوء لبعضهم أن يهبط أسعار البورصة أمس. فأذاع فيها أن حضرة عزتلة إبراهيم بك الهلباوي قتل في محطة العاصمة بيد باغ أثيم. وأنتشر خبر السوء هذا بسرعة البرق، فتراكض الناس من البورصة إلى المحطة حيث علموا أن الخبر كان كاذب، وأدركوا قصد الذي أشاعه، ولكن بعد أن

كان الخبر قد طار على جناح البرق إلى بورصة الإسكندرية، وأثر تأثيره فانزل أسعار الأسهم في البورصتين معاً».

هذه هي الحالة الاجتماعية والنفسية التي باتت عليا البلاد في الأيام الأولى لهذا الحادث. رعب وفزع، وهلع وجزع، وشائعات عن مؤامرات تخلق خلقاً، وتلفق تلفيقاً، وتذاع بين الناس. وجواسيس منتشرون في كل مكان، وأعتقال وتحقيق. لقد أظلم الجو وأكفهر، وأصبحت الحالة تنذر بأوخم العواقب.

***

أما الأقباط فقد أشتد حزنهم، وأرتفع عويلهم، وعظم عليهم الخطب، وأنهكوا في إقامة الصلوات على روح الفقيد، وفي عمل المآتم في سائر جهات القطر. ولا عجب في ذلك فإن بطرس غالي أحتل عند الأقباط مكانة لم يصل إليها أحد من قبله، وذلك للأعمال الجليلة التي أداها إليهم. قال رمزي تادرس:

«قل بين رجال الأمة المصرية ونوابغها من خدم أمته كما خدمها صاحب الترجمة. فهو أبو الإصلاح بين الأقباط، ومؤسس دستورهم، ومحيي جامعتهم، ومؤلف شتاتهم، ورسول البر والإحسان بين فقرائهم. فإليه وحده يرجع الفضل في تشكيل المجلس المالي، وتأسيس الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨٢، وتعضيد سائر الجمعيات القبطية والأعمال الخيرية والأدبية فيها».

«ولك تكتف رحمة الله بذلك، بل طبع على إنقاذ المعوزين وتعضيدهم حتى لم يخل عمل خيري من تبرعاته الكثيرة التي أنهالت على سائر الجمعيات الخيرية؟ ومما يؤثر عنه أنه أول رجل في مصر أرشد الأمة إلى أن مساعدة الفقير خير وأبقى من إحياء الحفلات. والقيام بأود عدة عائلات فقيرة بائسة خير من إنفاق المال على الخمر والمأكل وسماع الألحان. يثبت ذلك انه أبطل إقامة مهرجان لزواج أولاده سنة ١٩٠٦ ليحيى بنفقاته عشرات من البشر. تبرع بثلاثمائة جنية للفقراء بدلاً من المظاهر الباطلة، فأبقى له ذكراً صالحاً ومجداً حقيقياً. بل وضع بعمله هذا المبرور حجر الزاوية في مبدأ كاد أن يتناسى، وهو مبدأ محبة الإنسانية والبر بالفقير والمعدم».

وقد وضع شعراؤهم بهذه المناسبة كثيراً من الترانيل والترانيم المحزنة التي تسيل العبرات. مثال ذلك ترنيمة جاء فيها:

فَلْتـــــذبْ منــــاَ القلـــــوب	ولمــــــــاذا لا تــــــــذوبْ
إنمـــــا الـــــدنيا غــــرورْ	لـــيس فـــي الـــدنيا ســـرورْ
جرَّعـــــت بطـــــرس غـــــالي	غيلـــــة كـــــأسَ المنـــــونْ
فَلْنُعَـــــزَّ اليـــــوم مصـــــراَ	وبنـــــى الأقبـــــاط طُـــــرَّا
ولْنُــــــرَدّدْ منـــــه ذكـــــرا	كلمـــــا دالـــــت قـــــرونْ
طيـــــــب الله ثَـــــــرَاهْ	أجـــــــزل الله قِـــــــرَاهْ

ومن ترنيمة للقس عيد تادرس:

ثـــــلاث مـــــرات وفـــــدْ	قاتْلــــــه ولـــــم يجـــــدْ
فـــي نفســـه حـــولا وقـــد	ضـــاعت قـــواه واضـــطربْ
فمـــادَ وهْـــوَ فـــي ذهـــولْ	والوجـــه منـــه فـــي ذبـــولْ
فظنـــــه الباشـــــا يقـــــولْ	خيـــــراً، فـــأمَّنَ واقتـــــربْ
قـــد كـــان يقتلـــه الرصـــاصْ	وهـــو يفكـــر فـــي اختصـــاصْ
خيـــر الـــبلاد ولا منـــاصْ	فأستشــــــهد الله ولـــــبْ

هذه أمثلة مما كان يترنم به الأقباط في كنائسهم في تلك الأيام حينما كانوا يذهبون للتعبد والصلاة. لقد أسبغوا على بطرس غالي صفة القداسة، ووضعوه في مرتبة الشهداء. وكانوا يرددون هذه التراتيل من قلوبهم أعماق رجالا ونساء، كباراً وصغاراً؛ ودلائل على وجوههم بادية.

وقد ذكر صاحب الترنيمة الأخبرة في شيء من التفصيل كيف حاول الجاني تنفيذ ما عزم عليه، وبيان ذلك أنه تردد ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يضطرب وتخونه قواه. وفي المرة الرابعة تقدم إلى رئيس النظار الذي أعتقد أن الورداني جاء يشكو إليه أمراً، فأقترب منه آمناً مطمئناً، فإذا بالجاني يعاجله بإطلاق النار عليه.

***

وقع مقتل بطرس باشا على الأقباط وقوع الصاعقة، فأرتفعت أصواتهم بالبكاء والعويل، وأكثروا من لطم خدودهم، وشق جوبهم، وأظهروا حزناً كبيراً، وجزعاً عظيماً. ولبسوا شارات الحداد، وألفوا

مظاهرات، وعقدوا اجتماعات أبدوا فيها سخطهم الذي لا حد له على الحزب الوطني الذي كان القاتل ينتمي إليه. ولقبوه بحزب الطيش والضلال، وشرعوا يكتبون المقالات، ويلقون الخطب وكلها تحريض للمحتلين على تشديد النكير على المصريين وأخذهم بالقسوة المتناهية، والتنكيل برجال الحزب الوطني الذي ينشر الفوضى والأضطراب، والذي حرض على قتل بطرس باشا. وطعنوا في صلاحية المصريين أجمعين للحكم الذاتي والنظام الدستوري. وهذه برقية نقدمها كمثال لما كانوا يرسلون من برقيات: «أقباط السلمية بنجع حمادي يندبون حظهم، ويذرفون الدمع على الذين يريدون إعطاء المصريين الدستور، ويشيرون على عموم الأقباط بتحديد يوم لأجتماعهم فيه للإلتجاء إلى عموم الدول الأورباوية للنظر فيمت آلت إليه حالتهم».

وكتب أحدهم مقالاً جاء فيه: «... مصر تصيح مولولة قائلة: ألا شلت يمينك أيها الولد المسموم بسموم المتهورين؛ الذين ملأوا رأسك الطائش، وقلبك المرن بسخافات يحلو لك بإتمامها الموت، حتى تقرظ كما قرظ ذنجرا من قبلك. لقد جريتم على البلاد مصائب هائلة، ونكبات متكاثرة؛ منها الأزمة المالية، وزيادة الحامية البريطانية التي كنت أبغضها، فصرت أرحب بها اليوم ».

وكتب ميخائيل فانوس المحامي مقالاً جاء فيه: «... رأى– أرى الله– أقواماً ماكرين، لهم نيات شريرة، وتدابير شطانية، فجعل هذا الحادث درساً ليفقه أصحاب السلطة، ويتنبهوا حتى يضعوا الشيء في

محله، فلا يتركوا الحبل لينفقه أصحاب السلطة، ويتنبهوا حتى يضعوا الشيء في محله، فلا يتركوا الحبل على الغارب للمهيجين الأدنياء ألخ...».

وترى آخر يكتب فيقول: «أنطلب الدستور والأمة غارقة في بحار الجهل وسوء التربية؟ أنطلب الدستور والسواد الأعظم لا يميز الثمرة من الجمرة. إن وجدنا النواب أمامنا فلا نجد الأكفاء الذين يرشحونهم ألخ..».

***

لا شك في أن هؤلاء الكتاب قد أهطأوا خطأ كبيراً، وضلوا ضلالاً بعيداً. ووجه ضلالهم: أنهم أخذوا المصريين أجمعين بجزيرة فرد واحد. والوجه الثاني: أنهم نظروا إلى الموضوع نظرة عنصرية خالصى. فأعتبروا القتيل عميدهم وزعيمهم ورئيسهم. وأعتبروا المسلمين متعصبين ضد الأقباط؛ لذلك قتلوا زعيمهم تمهيداً للقضاء عليهم جميعاً. والذي قرأ ما كتبناه عن موقف الأقباط من الحركة الوطنية ١٨٨٢-١٩١٩ لا يعجب مما صدر من كتاب الأقباط بمناسبة مقتل بطرس غالي.

لقد وقعوا عامدين متعمدين في خطأ فاحش؛ فإن بطرس غالي لم يقتل على أنه رئيس طائفة، بل قتل على أنه رئيس حكومة. ولو كان بدله مسلم لما عصمه إسلامه من أيدي الطائشين. وقد شهد بذلك السير الدون غورست في تقريره الصادر في مارس سنة ١٩١٠ فقال: «أما

الباعث على أرتكاب الجريمة فسياسي. ولم يكن للقاتل ثأر شخصي على القتيل، ولا كان مدفوعاً بعامل التعصب الديني إلى أرتكاب الجريمة».

وقد بذل الخديو عباس حلمي الثاني ما في وسعه للتخفيف من وقع هذا المصاب. فزار عائلة الفقيد، وعين الأبن الأكبر نجيب باشا غالي وكيلاً لوزارة الخارجية. كما بذل عقلاء الأقباط جهوداً مشكورة في وضع الأمور في نصابها، وإظهار الحقائق للسواد الأعظم من أبناء الطائفة القبطية. ونخص بالذكر في هذا المقام: مرقس فهمي باشا الذي ألقى جملة خطب كان فيها مثالاً النزيه المنصف، والوطني المخلص. فمن إحدى خطبه التي نشرت سنة ١٩١٠ قوله: «.. إذا قتل الورداني متعصباً وحده، أو مع شركائه؛ فليس ذلك دليلاً على أن كل المسلمين أرادوا هذا القتل لسببه، ولا على أن المسلمين يريدون أن يقتلوا المسيحيين تعصباً».

«بلادنا بلاد الهدوء والسلام، تدعونا إلى السكينة والصفا والوفاء، ذللك عاش المسلم أخاً للمسيحي. إذا حصل بينهما خلاف؛ فإنما يكون خلافاً سريع الزوال، لا يلبث أن ينقضي».

«إذا كان كل خلاف بين الفريقين ضاراً بكل منهما، فتلك دلالة قاطعة على أن فائدة كل منهما لا يمكن أن يكون لها وجود في الواقع إلا بالأتفاق والأتحاد الحقيقيين».

«إن هذا التضامن هو روح الوطنية، وروح كل اجتماع. فلا وطن بدونه، ولا مسلمين بدونه، ولا أقباط بدونه».

وكيف نصيف المنقبادي مقالاً طويلاً جاء فيه: «... ومن الواضح المحسوس الذي يلمس باليد، ويرى بالعين، ولا ينكره إلا الذين أعمى الجهل أو سوء النية بضيرتهم؛ أن الورداني لم يقتله لأنه قبطي، بل لأنه رئيس الوزارة، ولأنه ظن أنه خان مصر وأضر بها، فأستحق القتل. ولو كان محله مسلم، وظن فيه ما ظن لقتله أيضاً. فلماذا– والحالة هذه– هاج بعض الأقباط وأرعدوا، وأمطروا تلغرافات الأحتجاج، وتظاهروا، وكل هذا بصفتهم أقباطاً؟ ألخ...».

***

وهكذا أنقسم الأقباط إلى فريق: فريق العقلاء المخلصين؛ وهؤلاء كانوا يكتبون عن عقيدة طاهرة، وينطقون بالحق الذي لا ريب فيه. تحركهم روح وطنية ساميو، وعاطفة قومية نبيلة. فوفقوا موقفاً مشرفاً في وسط هذا الليل الدامس. وطفقوا يبصرون ويرشدون، ويعظون وينصحون. أنا قصار النظر فكانت في الغالب تحركهم أيد خفية. فلم يراعوا لبلادهم حرمة، ولم يقيموا لوطنهم وزناً، فأنطلقوا بولولون ويصوتون؛ حتى ملأوا الجو صياحاً وعويلاً، وأسرفوا في الأتهام، ونادوا بالويل والثور، وعظائم الأمور؛ ناسين أو متناسين أن التسامح والتواصل شعار الديانة المسيحية.

فإذا تركنا الأقباط إلى شعرائهم؛ وجدنا أن هؤلاء الشعراء لم يتعدوا طور الحزن والبكاء. أجل! لقد كان الشعر القبطي في ذلك الوقت خير تر١جمان للحالة النفسية الحزينة الباكية التي أضحت عليها تلك الطائفة. فإذا قرأت ما نظمه شعراء الأقباط؛ فإنك لن تجد غير الدموع والعويل، والندب ولطم الخدود، وشق الجيوب، والسخط الشديد على القاتل المجرم الأثيم. والدعاء عليه بأن تشل يمينه. ولكن ما الفائدة من الدعاء عليه بأن تشل يميه في الوقت الذي كان حبل المسنقة ملتفاً حول عنقه بإحكام؟

مثال ذلك قول تادرس وهبي:

مـا رأينـا كمثلـه مـن وزيـر	بلَّـغ القطـرَ سـعيهُ المـأمولا
أنشـأته كنانـة الله شـهما	ذا يَـدٍ فـي سياسـة الملـك طـولى
نازعتنـا فيـه الليـالي وودت	لـو جـادت بـه القـرون الأولـى
أصـطفاه العبـاس للملـك ذخـراً	فـامتطي غـارب المعـالي ذلـولا
وأرتضـاه إذ لـم يجـد مِـن سـواه	فـي صـعاب الأمـور قـط بـديلا

هكذا وقف الشاعر يعدد مآثر الفقيد، وينوه بمناقبه وفضائله. وقد أسهب في ذلك الوقت لينفي عن بطرس باشا تهمة الخيانة التي وجهها القاتل إليه، وجعلها سبباً لتبرير جريمته. وأستخدام الشاعر ألفاظ وعبارات ذات إيحاء خاص، مثل قوله: «واصطفاه العباس» وقوله: «وأرتضاه إذ لم يجد من سواه بديلا» فكيف يكون خائناً من أصطفاه

العباس وأرتضاه لرياسة الوزراء! ولكن هل كان أمر أختيار رئيس النظار والنظار بيد الخديو عباس؟

وقال:

يـا حليـف الشـقا دنيـا وأخـرى ... كيـف حللـت قتلـه تحلـيلا؟!
لســت منــه ولا قلامــة ظفــر ... فلـــك الله خائنـــا مـــرذولا
علـــم الله أن بطـــرس غـــالي ... كـان فيمـا يلـي قئـولا فَعـولا
لـم يحـاول أمـرا يضـر فريقـا ... أو يســوم الــبلاد وقـرا ثقــيلا

ومنها:

ولْنُـــــرَدَّدْ تأبينـــــه وكأنـــــا ... منــه نتلــو التــوراة والإنجــيلا
ولنرتِّـــــلْ كـــــل آن وأيـــــن ... مـــا حيينـــا أعمالـــه تـــرتيلا
ولنـــزر دائمـــا مقامـــا حـــواه ... ولظْنُقَبِّـــلْ رفاتَـــه تقبـــيلا
وليضــــع ل عــــارف بعــــلاهُ ... مـن بنـى مصـر فوقـه إكلـيلا
ولنعـول علـى الأميـر المفـدّى ... فـي دم بـات مهـدراً مطلـولا
فـإذا أقـنص فالقصـاص حيـاة ... وهـو نـص لا يقبـل التـأويلا

وختمها بقوله:

ثـم أنشـد بـين القبـور وأرّخ ... مـات وأمصـر بطـرس مقتـولا

وفي هذه الأبيات ترى الشاعر يوجه اللوم والسخط الشديد للقاتل الذي وصفه بأنه حليف الشقاء في الدنيا والآخرة. وذلك لأنه خسر الدنيا بما سيلقى من الجزاء؛ وهو الإعدام. وخسر الآخرة لأنه ذاهب إلى

جهنم. ثم أخذ يخاطب القاتل ويذكر له أن بطرس باشا بريء مما أتهم به من الخيانة. وأنه لم يسبب ضرراً لبلاده أو لأمته ثم أخذ الشاعر يرتفع بشخص الفقيد إلى مراتب القديسين فدعا الأقباط إلى أن يحجوا إلى قبره، ويقبلوا ضريحه، ويحملوا إليه الأزهار والورود تكريماً للفقيد وتحية له. ثم دعا إلى التغني بمآثر بطرس، وترديد مناقبه وفضائله كما تردد التوراة والإنجيل. وهذا تقديس ليس بعده تقديس. ثم أتجه إلى الخديو، وأعرب عن رجاء الطائفة القبطية في أن يوقع القصاص على المجرم، وأن تأخذ العدالة مجراها. وأشار إلى آية ١٧٩ من سورة البقرة وهي «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب» وقال إن هذا النص واضح المعنى بحيث يؤخذ على ظاهره. والذي دفع الشاعر إلى طلب إعدام القاتل هو الشائعات التي روجها بعض الناس عن محاولات تبذل عند الخديو ليعفو عن القائل، وربما قام بعض المصريين بكتابة عرائض وإرسالها إلى الخديو طالبين فيها الصفح عن الجر.

وقال بسطا بشاى:

مُـدَّت إليـه بـالأذى يـد سـافل	شـلَّتْ يمينُـك أيهـا المغـرورُ
أدريـتَ أي جنايـة أحـدثتها	فـي مصـر يتلوهـا أذى وثبـور؟
أدريـت أي خسـارة ألحقتهـا	بـالقطر، كـم فـي طيِّهـا تـأخير؟

والشاعر هنا بعد أن دعا على القاتل؛ أخذ يشير إلى ما عسى أن يصيب البلاد من جراء هذا الحادث. فالفتنة التي وقعت بسببه بين

المسلمين والأقباط لم تكن في صالح المصريين، بل كانت في صالح المحتل. وكان الخير كل الخير أن ينصرف المصريون أجمعون إلى كفاح الإنجليز الذين هم أساس الداء، وأصل البلاد.

والشاعر هنا يخاطب القاتل ويقول له: إنك قتلت بطرس باشا لتخدم وطنك، ولكنها جلبت له الضرروالبلاء من حيث لا تعلم.

ومنها:

قد كان هذا البعد يدعو ربَّه	أن لا يُلِمَّ بشخصك المحذورُ
فأصوغ للأوطان درَّ تهاني	تزهو بنظم العِقد منه نحورُ
فأبى الردّى إلا أغتالك عاجلا	وعدا على المدح الرثا المسطورُ
فنظمته من أدمعي إذ خانني	فيك النظام وعقَّني المنثورُ

وهذا نوح وبكاء يسوقه الشاعر وقد أذابت الحسرات نفسه، وفتت الحزن كبده، وفاضت دموعه على خديه. وأنظر إلى قوله (والخطاب للخديو).

ماتت نفوس القبط من حزن وقد	أحيا رجلها عطفك المشكور

فهو يقول إن القبط ماتوا من شدة الأسى، وفرط الحزن على هذا المصاب. وأن الخديو رد إلى هذه النفوس الميتة الحياة، وبعث فيها الأمل بما أبداه من عطف على عائلة بطرس باشا.

وقال جرجس البياضي:

نـور عيسـى فـي وجهـه يتجلَّـى كهـلال يلـوح فـوق السـماء
دقَّ النـاقوس حزنـاً عليـه دقـة القلـب مـن جـوى البُرَحـاءِ
وجرى الحزْنُ في الصليب فأمسَى مُطرِقـا بالغلامـة السـوداء
حملتـه الآبـاء وهـو حـزين فسـرى الحـزن بعـد فـي الأبنـاء
إن قتـل الـوزير فينـا فـداء للخطايـا، أكـرم بـه مـن فـداءِ
نبـأ رَوَّع الخلائـق جمعـاً ليتـه لـم يكـن مـن الأنبـاءِ

وهذه الأبيات تمتاز بجو ديني مهيب أسبغه عليها الشاعر. فأنت ترى نور عيسى متجليا في وجه بطرس باشا. وعيسى هو الله في نظر هذا الشاعر. فكأنه يقول إن نور الله تجلى في وجه بطرس غالي، ولاح كما يلوح الهلال فوق السماء. وهذه أعلى مرتبة يصل إليها القديسون والشهداء. ويقول الشاعر إن الناقوس دق حرنا على بطرس، وكانت دقاته تشبه القلب الذي أشتد عليه المرض. واصليب أطرق أسفا عليه، وجلل بالسواد من أجل هذه المصيبة. فكل شيء بدا حزينا باكيا. وهذا الصليب الحزين المجلل بالسواد قد حمله الآباء من رجال الدين؛ فسرى حزنه إليهم، وأنتقل من الآباء إلى أفراد الطائفة جميعاً. فأصبح الحزن عاما شاملا. ثم جعل مقتل بطرس باشا فداء ما أرتكبه الأقباط من الخطايا والآثام. فكأن بطرس غالي بالنسبة لأقباط مصر كالفادي (المسيح) بالنسبة لجميع المسيحيين في العالم.

وقال أحدهم على لسان بطرس باشا:

لقـد قـذفوا الرصـاص علـيَّ زعمـاً	بـــأني خـــائن أهلـــي وقطـــري
وقـد جـاءوا بهـا خمسـاً شـدادا	تـــزق مهجتـــي وتشـــق صـــدري
ومـا فطنــوا وقــد ســلبوا حيــاتي	إلـى مـا فيـه سـرُّ نجـاح مصـرِ
أضـــاعوني وأي فتـــى أضـــاعوا	ليــــوم كريهــــة وســــداد ثغــــر

وهذا كان لسان حال الأقباط، فهم يبرئون القتيل من كل شائبة، وينزهونه من كل عيب. ويقولون إنه كان يعمل لخير البلاد وسعادتها. والأبيات مؤثرة إلى حد بعيد، لأن القتيل هو الذي يدافع عن نفسه، وكأنما نسمع صراخه وأنينه.

قال شاعر قبطي آخر:

لـو أحـل الأقبـاط قـدرك مـنهم	مهجـة القلـب أو حَـدَق العيـونِ
وأقـاموا لـك التماثيـل فـي دار	وديــــــر، وبيعــــــة للــــــدين
لـم تّفُـوا قـدرك اعتبـارا ولكـن	وضـعوا الكنـز فـي المحـل الأمـين
إنمـــا أنـــت خيـــر كنـــز رأينـــا	ونـــراه علـــى ممـــر الســـنين
طلسم المجد فوق يمناك سطر	لـيس للقـبط غيرهـا مـن مُعـين
فقليـــــل عليـــــك قـــــولي إذا	أنسـاك يومـا إيـاي تنسـى يمينـي

فأنظر إلى هذا التقديس والتبجيل، وأنظر إلى ما كان يتمتع به بطرس غالي في نفوس القبط من الجلالة والمهابة، والأحترام والحب الذي لا حد له. إن الأقباط لم يبكوا على أحد من عظمائهم بقدر ما بكوا على بطرس غالي. ولعل الكيفية التي ألقى بها حتفه كانت سبباً فيا

أسبغ عليه من قدسية. والمتأمل في هذه الأبيات يلمح بوضوح وجلاء مبلغ الخسارة الجسيمة التي حلت بهؤلاء القوم. فالشاعر يقول إن القتيل كان خير كنز لأبناء طائفته، يفيض جوده عليهم، ويغمرهم بكرمه ليل نهار.

وقد تضمن البيت الاخير آية من كتاب المزامير وهي «إن نسيتك فلتنسني يميني مز ١٢٧:٢٢٥».

***

إن مقتل بطرس باشا الذي هز البلاد هزا عنيفا؛ لم يهز خواطر الشعراء المسلمين، ولم يحرك وجدانهم؛ فألتزموا الصمت التام. ولم ينطق أحد منهم ببيت واحد يترجم فيه عن شعوره إزاء هذا الحادث. فما السر في ذلك؟ ألام هذا الحادث من الحوادث التافهة التي تقع كل يوم فلا تحرك خاطرا، ولا تولد إحساسا؟ كلا، بل كان أول حادث من نوعه في تاريخ البلاد. أجل! حتى شوقي شاعر الأمير لم يحرك خاطره هذا الحادث، ولم تحرك خاطره دمعة الأمير التي ذرفها على بطرس غالي. وشوقي كان صديقاً حميماً للفقيد، وهو القائل:

فـــــي منـــــازل غـــــالي فزنـــا بصـــفو الليـــــالي

لقد وفر علينا مرقس فهمي مئونة البحث عن السر في جمود كبار الشعراء إزاء هذا الحادث، فقال في إحدى خطبه:

«... تنازعنا في نسبة بطرس باشا: من منا خسره؟ أو من الذي كان يملكه؟ هذا يقول: بطرس للأقباط. زذلك يقول: إنه مسلم، لأنه بصفته ناظرا في الحكومة المصرية مدة خمسة عشر عاما؛ كان شيخا للأزهر في كل هذا المدة. ولم يمن له أي وظيفة شرعية عند الأقباط، فهو مسلم حكما وعملا، بل هو شيخ المسلمين!!».

«قسمت هذه المناقشة البلد إلى شطرين: أقلية تدعي أنها وحدها التي أصيبت في شخص الفقيد، فهي التي عز عليها المصاب، وهي التي يجوز لها أن تطالب بالعقاب. وهي التي يحق لها أن تراقب أعمال التحقيق، وتلاحظ عليه. وهي التي تتألم لكل حركة تعتقد أن فيها إهمالا لتقدير ذلك المصاب الجلل، أو جمودا في شعور الأكثرية، أو سكوتاً لا يتفق مع أهمية الحادث. أما الأكثرية– يعني المسلمين– فماذا كان موقفها؟».

«أخبرني صديقي منها أنه صمم على تأبين الفقيد يوم الأربعين، معتقدا أن هذا أقل واجب يؤديه. فلما رأى هذه المناقشة خشى أن يحسب الناس منه ذلك نفاقا ورياء؛ فعدل عن قصده نهائيا».

«هذا أحسن تفسير لذلك الشعور الذي قام في نفوس المصريين أمام هذه الجلبة التي لا تفهم».

«قالوا في نفوسهم: بطرس ليس لنا، ولا هو منا. إذن لا يهمنا موته. لذلك جمدت قلوب الشعراء أمام هذا الحادث، وليس أسرع من تحركها أمام أصغر الوقائع أقلها تأثيرا».

لا شك في أن مرقس فهمي قد أصاب كبد الحقيقة، وكان منصفا نزيها في قوله. ولا نعجب بعد ذلك إذا علمنا أنه لم يقف شاعر مسلم واحد في حفلة الأربعين ليؤبن الفقيد.

وقد وجه الأقباط لوما شديدا، وعتابا مرا إلى شاعر الأمير. قال مرقس فهمي من خطبة له:

«... بل كان هذا الخطأ- أي القتل السياسي- نفسه شيئا جديدا تلتهب له غيرة شاعرنا الوطني، فيلقي على النفوس المتألقة للقتل والوطن تسلية بشعره الهادىء النقي، ويطلب إلى القلوب المتنافرة أن تتألف، وإلى الصدور المجروحة أن تتصافى».

«لم يفعل بل جمد وجدانه، وسكت لسانه؛ لمجرد أن فئة قالت: إن الفيد لها، لا للأكثرية».

وكتب قبطي آخر يقول: «لعمرك لقد خان شوقي نفسه وهو يقول إنني رجل أخدم الوطن كلما عرضت حال، في خطابة إلى روزفلت. يكذبك الحال يا شوقي. وقد مر عليك موت عظيم مصر بطرس باشا غالي، وقد جمد إحساسك، وجف شعورك في مقام العزاء لمصر. أو لم تذكر صفو لياليك حيث قلت:

فـــــي منــــــازل غــــــالي   فزنـــــا بصـــــفو الليــــــالي

«عجبا لك يا شوقي! تذكر صفو الليالي، ولا تذكر كدر الأيام!».
وقال كامل منصور معرضا بالشعراء المسلمين:

إن يُحجم القوم عن نظمِ الرثاء له ... فقــد رثــاه النُّهَــي والعلــم والأدبُ
وإن تجــفَّ دمــوع فــي عيــونهمُ ... فمــدمع المجــد مُنْهَــلٌّ ومنكســبُ
وإن دعـاه الألَـي طاشـت هقـولُهمُ ... بظـــالم فأيـــادي عدلِـــهِ قُشُـــبُ
هـل حـافظ قـد عَصـتْه فيـه قافيـة ... أم ابـن هـاني عـراه الخـوف والرَّهَـبُ؟
أيـن القصـائد يـا شـوقي مدبَّجـة ... مـن كـل ضـافية مـا إن لهـا سـبب؟
هــل القصــائد عزيــز أن تدبجــه ... في فقـد مـن فـي المـلا آراؤه شُـهُبُ؟
أم الـدماء التـي سـالت تـروق لنـا ... دم البــريء قلــوب حولــه تجــبُ؟
دم البــريء ينادينــا الا أجتهــدوا ... لا تغمضوا الطرْفَ حتى ترفعَ الحُجُب

وقد أضطر شوقي إلبى نظم قصيدة قصيرة جاء فيها:

بنـى القبط، إخوان الـدهر رويـدكم ... هبــوه «يســوعا» فــي البريَّــة ثانيــا
حملتم لحكم الله صلب ابن مريم ... وهــذا قضــاء الله قــد غــال غاليــا
ووالله لـو لـم يطلـق النـار مطلـق ... عليــــه لأودي فجــــأة أو تــــداويا
تعـالوا عسى نطـوي الجفا وعهـده ... ونبــــذ أســــباب الشــــقاق نواحيــــا
فـلا يثـنكم عـن ذمـة قتـل بطـرس ... فقِـدْما عرفنـا القتـل فـي النـاس فاشـيا

وشوقي هنا يخاطب العقل، فيدعو إلى ترك العواطف الهوجاءز ويقول إن لكل مخلوق أجلا معلوما. وبطرس لم يمت قبل أنقضاء أجله. ولو لم يقتله الورداني لقضى نحبه فجأة أو بعد فترة من المرض والعلاج. فإذا سلمتم بذلك يا معشر الأقباط، فلا داعي– والحالة هذه– إلى ذلك

الصياح والعويل الذي ملأتم به أجواز الفضاء. وأنتم قديما رضيتم بحكم اللع في عيسى وهو الصلب بعد العذاب الشديد، فكيف لا ترضون بما حكم الله به على بطرس؟

وأخذ يهون عليهم الأمر، فذكر أن القتل من الأمور الفاشية المألوفة منذ القدم. ولعله أراد أن يشير إلى قصة قابيل وهابيل.

وقد نظم شوقي قصيدة رائعة في الأحتفال بالذكرى السنوية لبطرس غالي، جاء فيها:

قبر الوزير تحية وسلاما	الحلم والمعروف فيك أقاما
ومحاسن الأخلاق فيك تغيبت	عاما، وسوف تُغَيَّب الأعواما
قد كنت صومعة فصرت كنيسة	في ظلها صلى المطيف وصاما

وقد ظل الأقباط مدة من الزمن يحتفلون بذكرى بطرس غالي، وينظم شعراؤهم القصائد الطوال بهذه المناسبة. فمن ذلك قول نصر لوزا الأسيوطي:

ما للجموع حيال القبر تزدحم؟	هل ساقها مأرب في ذاك أم قسَم؟
أم ذاك حج، نعم شدوا رحالكُم	هنا الشهيد، وهذا قبره الحرم

وقد أوردنا بتمامها في المختار من شعره. وله قصيدة أخرى نذكر منها:

مضى العام مشئوم الليالي على الورى فليست بَسوسُ الشؤم منه بأشأمِ
فيأمن تلاقي قبره أخشع مكبَّرا وصل على رب الضريح وسلِّمِ
أبطرسُ إنا مذ رمتك يد الرَّدى بكيناك بالدمع الهتون وبالدَّم
نقيم بليل من فراق مظلمٍ ونصبح في هَمّ من البين مؤلمِ
عيون بنى مصر عليك تقرحتْ وفاضت على الدنيا بدمع مُسَجَّمِ
ومن يخدم الأوطان مثلك دائبا يُمجَّدْ وإن ذاق المماتَ ويُكرمِ
بكى النيل من فرط المصاب وهكذا على فقده نالت جبال المقطمِ
أمصر أحفظي ذكرى الفقيد على المدى ولا تبخلي في كل عام بمأتَمِ
وصوني أسمه بين الفراعن مَن مضَوْا فما رمسيسٌ المشهور منه بأعظم
رُوَيدَك لا تجزع إذا قيل قد قضى قتيلا، كذا مات المسيح ابنُ مريمُ

وقال جرجس البياضي في رثاء الفقيد:

أيَ بدر خبا وأي بناء فوضته في الدهر أيدي الفضاء
قل لناعي الوزير للخلق مهلا وترفقْ بتلكُم الأحشاء
ومُرِ الشمس أن تغيب عن الأفْـ قِ فلسنا في حاجة للضياء
ومرِ السحب أن تمرَّ جهاما كم سحاب أرسلتُه من بكائي؟
ومرِ الليل أَن يدوم طويلا لنرى مصر في ثياب الشقاء
بلد خانه الزمان فأمسى كيتيم أوفَى على لؤماءِ
ذهب اليأس بالنفوس فمن لي برجاء بعد أحتجاب الرجاء
أين من هذّب الزمان وأحيا سنناً أعجزب نُهَى الحكماء
غاله خائن يرى القتل دينا وطريقا إلى مراقي العلاء
الخ...

وإلى هنا ينتهي الكلام عن مقتل بطرس غالي وأثره في الأدب القبطي.

٣- ثورة سنة ١٩١٩ وأثرها في الأدب القبطي

لما وضعت مصر تحت الحماية البريطانية في ديسمبر سنة ١٩١٤ أنهالت مظالم البريطانيين على المصريين أجمعين، ولم تفرق السلطات البريطانية بين مسلم ومسيحي. فكان أشتراك العنصرين في تحمل هذه المظالم عاملا قوياً في تقريب المسافة بينهما، فتحطمت الحواجز والفواصل التي فرقت بين أبناء الوطن الواحد مدة من الزمن. وتهيأت الأذهان لقبول فكرة الأتحاد والتضامن للتخلص من العدو المشترك، وتحرير البلاد من سيطرته.

حقاً لقد أرتفعت قبل سنة ١٩١٤ بعض أصوات تدعو إلى أتحاد العنصرين، وخطب بعض علماء المسلمين في الكنائس، كما خطب بعض رجال الدين المسيحي في المساجد. ولكن هذه الحركة كانت محدودة جداً، ولم يكتب لها النجاح أما ثورة سنة ١٩١٩ فكانت حداً فاصلا بين عنصرين مختلفين بالنسبة للمجتمع المسيحي والأدب القبطي. فقد أندفع المسيحيون منذ قيام ثورة ١٩١٩ للأشتراك في الجهاد الوطني والكفاح القومي في حماسة منقطعة النظير. ولم يدخروا وسعاً في العمل من أجل الأستقلال وتطهير البلاد من أدران الأحتلال. فكتب كتابهم وخطب خطباؤهم، ونظم القصائد الطويلة شعراؤهم، وكلها تزخر بالعواطف الوطنية الملتهبة.

قال نصر لوزا الأسيوطي:

حتـى متـى النـوم فـي ذل وإذعـان الصـــبح لاح فـــلا عـــذرٌ لوســـنانِ
آل الهـلال ويـا آل الصـليب كفـى مـا ذقــتمُ مــن حــزازات وأضــغانِ
أخـــوّة جمعـــتكم تحـــت رايتهـــا مــدى الحيــاة فــلا تُقْصَــم بأزمــانِ
قـد لـمَّ شـملكم اللهُ العلـيُّ فهـل يســـطيع تفــريقكم بهتـــان إنســـانِ
عيسـى وأحمـد قـرَّا فـي خلودهمـا بمســـلم لـــم يُطـــق ضـــيما ونصـــراني
كـــلٌّ بمســـــجده، كـــل ببيعتـــه يـــدعو إلـــى الله فـــي ســـر وإعـــلانِ
هل يقبل الضيمَ منكم معشر نُجُبٌ آبـــاؤهم مثـــل فرعـــون وقحطـــانِ
بالسـيف قـد فتحـوا الـدنيا غطارفـة دانـــت لهـــم كـــل أمصـــار وأوطـــانِ
مـن الحـرام بنـي الأحـرار صـبركم علـى الأعـادي زمانـاً صـبر عُبـدانِ
همُ الـذئاب، فهـل تخشـون حـولَهُم هيهـات يخشـى العَفَرْنَـي صـولَ ذُؤبـان
علـى الكنانـة قـد طالـت جنـايتهم فكيف نصبر في ضيم على الجاني؟!
قـــد ثـــرتُمُ ثـــورة بـــالبغي مرديـــة دوَّى صـداها بقاصـي الأرض والـداني
فلا سقى النيل نفسا هاب صاحبها ورْدًا وفـــي قلبـــه تبـــريح ظمـــآن

لا شك أن كل كلمة من كلمات هذه القصيدة تعبر عن روح وطنية سامية. وإذا قرأنا هذه القصيدة، وقصيدته التي نظمها في مدح الملك جورج الخامس، فإن العجب يتملكنا من التبدل الأساسي الذي طرأ على المشاعر الوطنية للأقباط.

وله من قصيدة في رثاء سعد زغلول سنة ١٩٢٧:

أتبـــاعُ أحمـــدَ والمســـيحَ تصـــافحوا بك في الجهاد تصافح الإخوانِ
وبـك المسـاجد والكنـائس خشَّـعا رفعـــت أهلتهـــا مـــع الصـــلبان
كـم صـحت في وجـه المفـرق قـائلا مصـــرٌ لنـــا والـــدين للـــديان

ألفْــتَ مــا بـــين الســـرائر فـــامَّحَى   بهــداك مــا فيهــا مـــن الأضـــغان

***

ولما أعلن الإنجليز تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، وأحتفظوا لأنفسهم بحق حماية الأقليات؛ عرضوا على المسيحيين أن يكونوا ضمن الأقليات المحمية فرفضوا رفضاً باتاً، وفضلوا الأنضمام إلى الأكثرية الإسلامية، والأندماج فيها. ثم شرعت الحكومة في سنة ١٩٢٢ تعمل على إقامة الحياة النيابية، فأجتهد الإنجليز في دس الدسائس للتفرقة بين العنصرين. فأوعزا إلى الكاتب المسلم محمود عزمي بأن ينشر في صحيفته «الأستقلال» مقالات يطالب فيها بحق التمثيل النسبي للأقلية المسيحية في المجالس النيابية. وكانت مقالات محمود عزمي أول ما كتب في هذا الموضوع.

ثم أعقبه توفيق دوس فنشر مقالا طويلا في الأهرام جاء فيه:

«أرى أنا أنه من ضمن ما قد يؤخذ عذراً تبنى عليه حماية الأقليات عدم تمثيلها في المجالس النيابية. وهناك خطر شديد ألا تمثل مطلقاً إذا لم يوضع نص يضمن ذلك التمثيل».

«أريد أن أقفل هذا الباب، فلا أدع مجالا لأن تقوم إحدى الأقليات لتشكو ما تدعيه- ولو خطأ- من حيف إذا هي لم تمثل في مجلس النواب. والإنجليز يدعون حق سماع هذه الشكوى وحق الفصل فيها، بل هم أدعوه من زمن».

«إن أغلبية الأمة الساحقة بما في ذلك غالبية الأقلية من الأميين، وأخشى كثيراًإذا لم يوضع لهم نظام يتضمن حق تمثيلهم، ثم لم ينتخب منهم أعضاء للمجالس النيابية أن يشعروا بأنهم قد هضم لهم حق».

«أخشى أن تلك الأقليات أو إحداها أو بعض الأفراد منها يرمون بأنفسهم في أحضان الإنجليز، وهؤلاء يتلمسون مثل هذه الفرصة».

وما كاد المسيحيون يطلعون على هذا المقال حتى هاجوا ضد توفيق دوس، وعقدوا اجتماعاً في الكنيسة المرقسية، وأعربوا عن استنكارهم لما جاء في المقال المتقدم، وهتفوا بسقوط كاتبه، ووصفوه بأنه صنيعة من صنائع الإنجليز.

وكتب سلامه موسى مقالا جاء فيه:

«لست موافقاً على رأي الأستاذ دوس في تخصيص كراسي للأقليات، لأني أعتقد أن معالجة الموضوع من هذه الناحية لا تؤدي إلى الغرض المقصود. وذلك لأن الأقلية ما دامت أقلية في البرلمان بحيث لا يكون لها أمل في أن تكون يوماً ما أكثرية فلا فائدة منها مطلقاً، لأن نظام البرلمان هو في الواقع نظام الحكم بالأكثرية. فإذا فرضنا أن للأقباط عشرين كرسياً قد حفظتها لهم الحكومة أو أجلستهم عليها بعد أن فشلوا في الأنتخابات، فلا فائدة تعود على الأقباط من هؤلاء النواب إذا كانت الأكثرية لا تسلم بمطالبهم في مشروع ما من المشاريع المعروضة امامهم ».

ورد عبدالحميد بدوي على توفيق دوس بمقال جاء فيه:

«إن المجلس النيابي ليس مجلساً دينياً، وإنما مجلس سياسي. فالجمع فيه بين المنازع السياسية بحسب قوتها الصحيحة طبعي ومفهوم. ولكن الأقلية الدينية من حيث هي مجموع مشترك في دين غير دين الأكثرية لا يمكن القول بأنها مذهب سياسي قائم بذاته، بل هذا هو الذي يجب تجنبه».

«الواقع من جهة أخرى أن النظرية التي قوم عليها المعنى النيابي تنافي كل المنافاة تمثيل الأقليات الذي يقترحه توفيق بك دوس، لأن النائب يمثل الأمة كلها. أن تقسم التمثيل النيابي على هذه الصورة التي تميز بين أقلية وأكثرية يحيي فكرة التعصب التي نرجو كلنا أن تمحي نهائياً».

«نريد سياسة قومية خالصة لا تلتفت في طريقها النبيل إلى الأديان والمذاهب، ولكنها تتجه دائماً إلى مصلحة الوطن. فدعوا الناخب حراً يتفقد الناس وينتقدهم، حتى إذا أصاب الكفء قدمه للنيابة غير ناظظر إلى دينه».

***

أنتهى الأمر بترك الحرية للناخبين. ولما ظهرت الأحزاب السياسية أنضم المسيحيون إلا أقلهم إلى حزب الأغلبية، أي حزب الوفد. فكان الناس يسألون عن الحزب السياسي الذي ينتمي إليه المرشح، لا عن

دينه. وهكذا أختفت العصبية الدينية وحلت محلها العصبية السياسية. وقد حاولت أحزاب الأقلية أن توقد نيران العصبية الدينية ولكنها لم تفلح. كما أن الإنجليز حاولوا بعد وفاة سعد زغلول أن يفرقوا بين العنصرين فباءت محاولاتهم بالفشل.

ففي سنى ١٩٢٨ تناولت صحيفة «مصر» موضوع الموظفين المسيحيين، وزعمت أنهم مضطهدون ومظلومون. ونشرت أمثلة من هذه المظالم المزعومة وقد أتضح بعد البحث أن ما نشرته الصحيفة المذكورة لا أساس له من الصحة، وأنبرى للرد عليها بعض المسيحيين. فصرح مكرم عبيد لمندوب الأهرام بقوله:

«إني لا أعرف وأكره أن أعرف أن هناك موظفين أقباطاً ومسلمين. فإن الموظفين الذين خلدت وطنيتهم وتضحياتهم في كتاب النهضة المصرية هم الموطفون المصريون، ولا أعرف سواهم. ومن الحرام أن تثار مسألة مسيحي ومسلم بعد أن قبرناها وغسلنا ما خلفته من أرجاس بدماء شهدائنا الزكية. وإني أحمد الله أن القائمين بهذه الحركة هم نقر قليل يعيدون على الأصابع، ولا يمثلون طائفة ولا فريقاً ولا رأياً».

وكتب وديع صلب في صحيفة «البلاغ» مقالا تحت عنوان: «القومية المصرية» جاء فيه:

«قامت جريدة مصر في هذين اليومين بضجة أدهشت الخاص والعام. فقد خصصت أعمدتها لرفع شكوى موظفي إدارة الأموال المقررة

من الأقباط، قائلة إن هؤلاء الموظفين مضطهدون من رؤسائهم المسلمين بسبب دينهم. ونحن لا نتعرض لهذه الظلامة المزعومة في موضوعها، بل نقول لجريدة مصر إن القومية المصرية أقدس من أن تتصدع في سبيل الأفراد».

«أصبحت هذه القومية قذى أعين المستعمرين خصوصاً وقد أحاطها المصريون جميعاً بسياج من الإخلاص. وما كنا نظن بعد ذلك أنه يوجد مصري يتعرض لهذه القومية بأذى، ولكننا نرى اليوم جريدة مصر تحمل معولا وتحاول تصديع هذه القومية في سبيل أفراد تقول إنهم ظلموا واضطهدوا».

وكتب زكي عبدلبسيد مقالا في صحيفة «البلاغ» تحت عنوان «كلمة صريحة» لصاحب جريدة مصر جاء فيه:

«إنني رجل قبطي أرثوذكسي أغار على ديني وأحب أبناء وطني عموماً؛ وأبناء طائفتي خصوصاً حباً شديداً. وإني من قراء جريدة مصر».

«والذي أقوله هو أنه ثبت لي بعد البحث والتدقيق أنكم ترمون فيما كتبتموه وتكتبونه إلى غرضين أثنين: (١) رواج جريدتكم. (٢) فصم عرى الأتحاد وتمكين المحتل من تثبيت قدمه في بلادنا بحجة الدفاع عن الأقليات وحمايتها».

«فإن كنتم تقصدون رواج الجريدة فهناك طرق شريفة مشروعة، وإصلاحات عديدة يمكنكم إدخالها على جريدتكم، وبذلك تروج وتكسبون رضى الأمة وعطف الجمهور. أما التضليل والكذب فلا يجديان نفعاً».

«أما إن كنتم تقصدون فصم عرى الأتحاد الذي سفكنا فيه الدماء الغالية، وأرواح أبنائنا البررة؛ فعملكم جريمة شنعاء في حق الوطن المقدس. وأنتم تستحقون النبذ والأحتقار، لا أكثر ولا أقل من جميع طبقات الأمة المصرية على أختلاف نزعاتها ومذاهبها».

وكتب سينوت حنا في صحيفة البلاغ مقالً طويلاً تحت عنوان «الوطنية ديننا، الأستقلال حياتنا» جاء فيه:

«لا قبطي ولا مسلم. وإنما كلنا أمام الوطن مصريون. وما هذه الضجة التي ثارت في الأيام الأخيرة بأسم الاقباط المضطهدين في بعض الوظائف إلا إثماً في حق الوطنية، وحق الحكم الدستوري، كما هي إثم في حق الواقع».

«وإنه ليكفي أن يذكر الإنسان أولئك الشهداء الذين جادوا بأنفسهم مسلمين وأقباط فداء للوطن المصري، لا للوطن المسلم، أو الوطن القبطي، حتى يشعر بما في ذلك من الجلال والسمو، ويشعر في الوقت نفسه بما في الضجة التي يقيمها الآن نفر قليلون بأسم الموظفين الأقباط من الضعة والمهانة. ولكن ليطمئن المصريون جميعاً، فإن

الجريدة التي تصيح الآن بأسم الموظفين الأقباط لا تجد بينهم من يؤيدها أو يرضى عنها، بل هم جميعاً، والموظفون منهم خاصة يستنكرون فعلتها، ويبرأون غلى الوطن منها».

«ليذكر كل منها أو وحدتنا هذه كانت وما تزال أعظم ما تألم منه الخصم. وأنه حاول غير مرة أن يفصم عراها فلم ينجح. فهذا الخصم يرضى الآن من غير شك عن السعي بتلك الوحدة، ويغتبط بكل معول يوجه إليها، ولو لم يكن في مقدوره أن ينال منها ويؤمل أن تجتمع حول الصوت الشاذ أصوات، وأن يقتدي بالخارج خارجون. وذلك وحده يرشدنا إلى الجهة التي لها مصلحة في هذا الشذوذ، وحسبنا أن نقول هذا فلا نزيد».

«فيا أبناء وطني، إن في الجو دسائس تأتمر بالألفة التي تمت على عهد زعيمنا الفقيد بين أحزابنا وهيئاتنا، وتضرب بمعولها لو أستطاعت في أساس وحدتنا».

«إن في الجو دسائس لا يروقها أن يشمل الوفاق أبناء مصر، وأن يذكروا الوطن وحده لينسوا فيه كل عوامل الخلاف، ويغلق على أعدائه أبواب الفتنة والشقاق».

«فمن ذا الذي تسول له نفسه أن يكون هو دسيسة تضاف إلى تلك الدسائس التي لا تنى عن الكيد لنا، والتفريق بين صفوفنا؟ وأين هو المصري الذي ينقاد إلى ذلك الأحمق المأفون أو الخائن الأثيم؟».

وحدث في سنة ١٩٢٨ أن ذهب المبشر الأمريكي زويمر إلى الجامع الأزهر وجلس في حلقات الدروس. ثم تناول كتاباً من أحد الطلبة، وبعد أن طالع فيه قليلاً دس بين طياته بعض كتب من تأليفه محشوة بالمطاعن القبيحة في الدين الإسلامي، وأنصرف.

وقد قابل رجال الأزهر هذا العمل بالهدوء، وكتبت الصحف مستنكرة هذه الأعمال، وقال إنها من دسائس المحتلين لإثارة الخواطر، وأتهام المسلمين بعد ذلك بالتعصب، وا يتبع ذلك من تدخل سافر في شئون البلاد. وأخذ بعض كتاب النصارة يحملون على المبشرين حملات عنيفة. فكتب «كليم أبو سيف» في صحيفة «البلاغ» مقالاً تحت عنوان «المبشرون» جاء فيهك

«أمر هؤلاء المبشرين عجيب. فهم– رغم أنني أستطيع أن أقسم بأنهم لا دين لهم– ما يزالون يرتكبون بأسم الدين كل المنكرات والمحرمات التي ينهاهم عنها الدين. وهم ما يزالون يتمادون في صفاقتهم وتحديهم لشعور المصريين بتلك الأعمال تمادياً ما أظن أناساً رزقوا شيئاً من الحياء والأدب يستطيعون إتيانه وتحمل مسئوليته».

«قوم نزحوا إلى مصر فأكرمت مثواهم، وقابلتهم كريمة جوادة سخية كما تعودت أن تقابل غيرهم من الضيوف النازحين إليها من شتى بلاد العالم. وفتحت لهم ولغيرهم خوان صدرها، وأسكنتهم القصور، والله

يعلم أين كانوا يسكنون قبل أن يجرى القدر بمجيئهم إليها. فماذا كان جوابهم؟ وماذا عملوا رداً لهذا الجميل؟».

«كان جوابهم إثماً وجحوداً، وكانت أعمالهم خزياًً يكفي لتسويد صحائف الأمم إلى الأبد. وهكذا ح مصر أبداً عاثر، فهي تحسن وينكر إحسانها».

«هناك فئة تطلق على نفسها أسم المبشرين. وهؤلاء يقولون إنهم جاءوا إلى مصر لينشروا فضائل الدين المسيحي بين مختلف الطبقات. قلنا: أهلاً وسهلاً فلكل دين فضائل. ونشر تلك الفضائل فضيلة مهما كانت الأحوال. فالدين الإسلامي يحض على الفضيلة، وكذلك الدين المسيحي. فانتم حين تنشرون فضائل دين معين إنما تنصرون الفضيلة من أحد وجوهها».

«فهل تدري اذا كانت فضائل المسيحية في نظرهم؟ كانت في التغرير بالغير، وأشتعمال طرق الأحتيال لتنصير الناس. وهل أمرتكم المسيحية بذلك؟ لا. وهل من قواعد الدين المسيحي أن يغرر بالصغار تغريراً حقيراً ليعتنقوه؟ لا. وهل أمركم المسيح أن تتخذوا حبائل الغرام تنسجونها بسوء نية بين الناشئين والناشئات لكي يعتنقوا المسيحية؟ لا. إذا أنتم لستم مبشرين تحثون الناس على التحلي بالفضيلة، إنما أنتم مجرمون تتخذون الدين ذريعة لأركاب المنكرات وأنتم تعلمون».

«وأنتم لا أكثر من جواسيس للأستعمار أتيتم إلى هذه البلاد لنشر فضيلة ودين معين، بل لأتباع سياسة معينة موحي بها من جهات معينة. ومن نتائج هذه السياسة وقوع الخلاف بين المصريين، والشقاق بين أبناء الأسرة الواحدة».

إن هذه المقالات التي كتبها كتاب مسيحيون في الرد على صحيفة مصر، وفي تسفيه أعمال المبشرين تحمل ظواهر طيبة لم تكن معروفة قبل ثورة سنة ١٩١٩. والحق إن هذه الثورة قد قلبت الأتجاهات السياسية للأدب القبطي رأساً على عقب. فبعد أن كان هذا الأدب يتجه إلى محاربة الدستور أصبح في مقدمة المدافعين عن الدستور.

وبعد أن كان يتجه إلى إطراء الإنجليز والتسبيح بحمدهم؛ أصبح في طليعة المبغضين لهم، والحاقدين عليهم. وأصبح من أهدافه الدعوة إلى جهاد المحتلين وكفاح الأحتلال. قال نصر لوزا الأسيوطي من قصيدة طويلة في الأحتفال بإحياء ذكرى يعد زغلول سنة ١٩٢٨:

قم وأنظر الدستور كيف تقوضت	منه المعالم حائطاً ودعاما
شيدتَ بالمهج الغوالي سوره	وتركتَه فوق السُّهَى يتسامَى
لما بعدتَ عن النواظر سرَّهم	أن العرينة لن ترى الضرغاما
نقضوا عهودك في هوى مصر ولم	يرعَوْا يميناً للحِمَى وذِماما
كم حاولوا أن يرغوهما عنوة	لكنها لم ترتض الإرغاما
هم أقسموا أن يحرسوا دستورهم	حتى قَضَيْتَ فضيَّعوا الأقساما
يهنيك في جنات ربك أننا	نسعى إلى أستقلال مصر كراما

هيهات أن نخشى من الأقدار ما | دام العَليُّ على الحمَى قَوَّاما
من يستعين بالله ينصرْهُ ولو | أضحى له كل الورى اخصاما
والحق مثل البدر حيناً يختفي | ويعود بدراً للعيون تماما

***

ولما مات سعد زغلول سنة ١٩٢٧ بكاء شعراء الأقباط وكتابهم بكاء مراً حتى ليمن أن يقال إنهم لم يبكوا على زعيم مسلم قط كما بكوا على سعد زغلول، بل إنهم رفعوه إلى مراتب القديسين. قال نصر لوزا الأسيوطي من قصيدة طويلة:

يا سعد جاورت الإله بصفحةٍ | تزهو بها من نورك الأسطارُ
عصماء ناصعة البياض نقية | في الخلد يتلو أيَها الأبرارُ

وأنظر إليع حين يقول معزياً أم المصريين:

ودعا لكِ الرحمنَ في صلواتِهِ | وتلا كَذِكْرَى مريم ذكراكِ
ذِكرى يفوح المسك من نفحاتها | عبقت كما عبق الأريجُ الذاكي
إن المهابة والجلالة والهُدَى | والجِدَّ والإِقدامَ بعض حُلاك

ونحن نعرف مكانة السيد «مريم» عند المسيحيين. تشبيه ذكرى أم المصريين بذكرى السيدة ريم فيه تقديس كبير.

وأنظر إليه حين يقول في رثاء سعد:

فكأنما الله العَليُّ أَمَدَّهُ | في المعضلاتِ بسرّه الروحاني
وكأنه في كل قول مُلْهَمٌ | آياته وَحْيٌ من الرحمنِ

فـأنزِل بجنَّـات النعـيم منـازلا قدْسـيَّة الرَّحبـات والأركـان

وهذا منتهى التمجيد والتقديس، وإنه لتعبير عن أصدق العواطف، وأطيب المشاعر.

وقال قسطندي داود من قصيدة في رثاء سعد:

ناضـلتَ عنـا مـا ونـت لـك همـة وحسـامُ عزمـك مـا عـراهُ فُلـولُ
قـد كنـت كوكبنـا الـذي بضـيائه نحـو الفـلاح لنـا أسـتبان سـبيلُ
قد كنـت قائدنا الجـريء وهـل لنـا مـن بعـد سـعد قائـدٌ ودليـل؟

وأصبح شعراء الأقباط وكتابهم بعد ثورة سنة ١٩١٩ يعبرون عن آمال البلاد وأمانيها، ويفرحون لفرحها، ويحزنون لحزنها. مثال ذلك قول فيليب عطا الله في تمثال [١] «نهضة مصر»

تمثـال نهضـة مصـر زال سـتارُهُ فـتلألأتْ لمـا بـدا أنـوارهُ
ظهـرت معـاني وصـفه فـأتى كمـا بعـد الجهـاد اختـاره مختـارُهُ
مـن مهجـة الشـهداء ألـف طينـه ومـن الـدماء تركبـت أحجـارُهُ
هـو كعبـة الآمـال أو محرابهـا حجـت إلـى أعتابـه زُوَّارُهُ
أنهض أبا الهول العظيم فرأسك الـ ـعالى أستقر على النهوض قـرارهُ
أنهـض وحـدثنا عـن الـزمن الـذي وّلـى ولـم يَعلـق عليـك غبـارهُ
هيَّـا أبـا الهـول انتصـبْ متهاديـا إن الزمـان تغيـرت أطـوارُهُ
لا تحفلـنَّ بناصـب أو غاضـب كـفُّ الظلـوم تقلمـت أظفـارهُ

(١) البلاغ في ٢٣-٥-١٩٢٨.

حـيّ الملـيم وخـلّ رأسـك عاليـا ... فقــد أســتقلت بالمليــك ديــارُهُ

***

يــا روحِ زغلــول أظهــري وتفرجــي ... وتَمجــدس فــالحق بــأن منــارهُ

زغلـــول أول مـــن توقـــد قلبُـــه ... وإلــى بــلاد الغــرب طــار شــرارهُ

بجهـــاده شـــهدت لـــه أعـــداؤه ... عــدلا كمــا شــهدت لــه أنصــارهُ

مــا البــدر فــي الإشــراق إلا نــوره ... والشــمس فــي الإحــراق إلا نــارهُ

قـد زار نهضــة مصـر يـوم نهوضـها ... بــل عــاش فــي تمثالهــا تــذكارهُ

مـــا كـــان أعذبـــه لســـانا عنـــدما ... كانـــت تغـــص بزائريهـــا دارهُ

روحِ الإبـاء تجسـدت فـي شخصـه ... وعـــن الريـــاء تنزهـــت أفكـــارهُ

البابُ السَّابع

مجتمع الأقباط وأثره في أدبهم

كان المسيحيون فيما مضى يعتبرون أنفسهم أمة قائمة بذاتها، لها كيانها وشخصيتها، وآمالها وأمانيها، وأفراحها وأتراحها، وأعيادها ومواسمها، وتقاليدها وعادتها. وقد ظلوا محتفظين بهذا الرأي إلى ما قبل سنة ١٩١٩.

وألفوا كتبا كثيرة تتناول تاريخهم وتاريخ كنيستهم، وتراجم عظمائهم مثل «الأقباط في القرن العشرين» لرمزي تادرس. و«تاريخ الأمة القبطية» ليعقوب نخل رفيلة. و«نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر» لتوفيق إسكاروس. وألفوا كتبا كثيرة تتناول حياة شهدائهم وقديسيهم.

وأقاموا الجمعيات الخيرية، والأندية الثقافية والملاجيء الخاصة بهم. وظهرت صحف ومجلات كثيرة دينية وأدبية تعالج الشئون القبطية.

وشرع كتابهم يحررون المقالات والفصول في البحث عن أسباب تأخر الأمة القبطية. ويصفون ما أنتابها من علل وأمراض اجتماعية، وما فيها من عيوب ونقائص. ويشرحون خير الطرق لعلاج هذه الآفات.

فمن الموضوعات الاجتماعية التي كتب فيها أصحاب الرأي من المسيحيين موضوع «الزواج المتأخر» قال [1] رمزي تادرس:

«إذا شبهت هذا النوع من الزواج– يعني الزواج المتأخر– بالمعول الذي لا يهدم كيان الأمة ويكثر التيتم ويضعف التناسل، فإني لا أكون مبالغا خصوصاً إذا أضفت إليه قول مدير الإحصاء في سنة ١٩٠٧ من أن النسبة المئوية لليتامى بين الأقباط أكبر منها بين المسلمين.

وقد لوحظ أن ٣٠٪ من أولئك الأزواج يموتون عقب أقترانهم بسنوات قليلة ويتركون أيتاما يتعرضون إلى الشقاء والبؤس والفقر المدقع. قال رمزي [2] تادرس: «من منا لم يروعه منظر أطفال صغار يجوبون مع أمهاتهم الطرقات والمنازل طلبا للكفاف بعد أن كانوا في سعة؟ من منا لم يسمع بأن الفقر دفع يتيماً غلى الإجرام وساقه إلى الجريمة؟ بل من منا لم ير أطفالاً كانوا متوقدين ذكاء فحولهم اليتيم إلى جمود وعقم؟ فشبوا جهلة فاسدين تنحط بوجودهم الأمة التي تلعنهم فيلعنونها، لأنها هي الجانية عليهم».

«إن الملاجيء الخيرية لو فتحت، والإحسانات لو توالت لتحسين حال اليتامى لا تكفي لتجفيف دموعهم، وإخماد شجونهم، بل تذكرهم بالشقاء الذي هم فيخ يهيمون، فتصغر نفوسهم، وتضعف مواهبهم.

---

(١) الأقباط في القرن العشرين ج ١ ص ٦٢–٦٥.

(٢) الأقباط في القرن العشرين جـ ١ ص ٦٣_٦٥.

ولكن الذي يرفه هذه التعاسة هو العدول عن الزواج المتأخر؛ هو تمنع الآباء عن ترويج بناتهم بالمسنين ليخففوا الويل عن اليتامى والمذلة عن الأرامل».

وكتب قبطي آخر[1] مقالاً بصحيفة الوطن سنة ١٩٠٩ تحت عنوان: «خطر يهدد الأقباط» جاء فيه:

«وأما الزواج فأرى إحجاماً كبيراً عنه، ولكن مهلا أيها الشباب القادر على الزواج ولم تتزوج. إنك تخالف وصايا إلهك القاتل في كتابه المقدس: «لا تزن»»

«ظغنك تجني على أمتك شر جناية؛ وهي انقراضها من الوجود. إنك بهذه الحالة لا تعد مخلصاً لها، ولا تستحق أن تنتسب إليها لأنك لا تعمل على نموها وازدهارها ولا تجتهد ي إكثار عددها».

«فإذا أردت أيها الشباب أن تبرهن برهاناً حسياً بانك مخلص محب لأمتك فعجل بالزواج، وقدم لها أبناء يذودون عن حوضها وينفعونها عند الملمات».

«ومن رأيي أن تؤسس جمعيات بكافة أنحاء القطر يكون غرضهاالوحيد وشغلها الشاغل الحث على الزواج، وتذليل الصعوبات التي تعترض الفقراء وتمنعهم منه، كما تساعد الفقيرات في الزواج ».

---

(١) الوطن في ١٩٠٩/٩/٨.

«وجدير بالأغنياء أن يساعدوا مثل هذه الجمعيات التي تزوج البنات الفقيرات اللواتي لا يقدم عليهمن أحد إلا عند علمه بمساعدة مالية من الجمعية. فعليكم أيها الأغنياء بذل يد السخاء في تزويج الفقيرات والفقراء، وصرف بعض من عنايتكم لهذا العمل حتى يأتي الوقت الذي يكثر فيه النسل».

فكثرة عدد الأيتام عند الأقباط جعلتهم في حاجة ماسة إلى الإكثار من إنشاء الملاجيء التي تعني بتربية هؤلاء الأيتام من بنين وبنات، وتخفف عنهم آلامهم. وجعلتهم في حاجة ماسة إلى إنشاء الجمعيات الخيرية التي تمد يد المساعدة للنسوة المترملات. وإلى المشاغل التي يتعلم فيها الأيتام بعض الصناعات الخفيفة التي تمكنهم من كسب قوتهم. وجعلتهم يقدرون الإحسان والمحسنين. فإذا مات عظيم من عظمائهم الأغنياء المعروفين بالبذل والسخاء بكوا عليه بكاءً مراً، وأعتبروا موته خسارة لحقت المجتمع القبطي، فلبسوا عليه ثياب الحداد، ورثاه شعراؤهم وخطباؤهم رثاء حاراً. ونوهوا بفضائله ومناقبه، وبره وإحسانه، وعطفه وحنانه.

ولما كان الأنبا كيرلس الرابع قد أدى إلى أبناء طائفته خدمات كبرى فقدظلوا يحتفلون بذكراه أكثر من نصف قرن. وألفوا في تاريخه الكتب، ودبجوا في مناقبه المقالات، ونظموا القصائد. فمن ذلك قول إسكندر قزمان في الأحتفال بمرور خمسين عاماً على البطرك المذكور في ١٩١٢/١/٣٠:

خمسـون قـد مـرَّت وفضـلك مُـدَّكَرْ ... ويـدوم ذكـر الفضـل مـا دامَ القمـرْ
ولـئن غـدت منـك الحيـاة قصـيرة ... فبنفعهـا طالـت علـى رغـم القصَـرْ
ودعوتـه صـنما وقلـتَ أهُـدُّهُ ... كـي يُـزدّرى مـن عابديـه ويُحْتقـرْ
وأثـار هـذا سـخط بعضـهم وقـد ... عـدوه ذنبـا فـي الـورى لا يغتفـرْ
فـاليوم طـراً أدركـوا أن الـذي ... حسـبوه سـيئة بمثلـك يفتخـرْ
أثنـوا علـى بـذلٍ بـه عوضـتهم ... عمـا يـزول بمـا يـدوم ويـدَّخرْ
شـدتَ المـدارس حينمـا كـان الـورى ... عـن ظلهـا يتـأوْن مـع كـل الحـذرْ
ولهـا أسـتلمت قلـوب قومـك دائبـا ... حتـى غـدت حَرَمـا يُحَـجُّ ويعتمـرْ
قـالوا سـموْتَ بحهـم نحـو العـلا ... لتقـيمهم منهـا مقامـا يعتبـرْ
فكرعـت فـي هـذا السـبيل تطوعـا ... كـأس الحمـام ورحـت لـم تبلـغ وطـرْ
أخلـق بـه حمـداً يـريح ثـراك بـل ... يحـدو مطايـا العـزم مـن أهـل الفكـرْ
هـذا سـميك ذو الرياسـة شـاهد ... لك لـم يفه في العمر عنك بقول شرْ
لكليكمـا بِـرٌّ بـه يمتـاز، لا ... نـدري إذا قسـناه أيكمـا أبَـرْ
تـدعى أبـا الإصـلاح وهـو أبـا الصـلا ... ح، بـك الرقـي وفـي المعـاد بـه الظفرْ
ولـئن أتيـت أقيـك حقـك بعـدما ... وخط المشيب وخفت يفجأني السفرْ
فلقـد صـبرت علـى أحـرّ مِـنَ اللَّظَـى ... ولعـل صـبريَ بالقضـاء وبالقـدرْ
فأصـفح بفضـلك عـن قصـوري سـيما ... أنـي نثـرت الـدمع مـع هـذى الفِقَـرْ

وهذه القصيدة جيدة الأسلوب، متينة التركيب، رائعة المعاني، محكمة المباني.

وقال إبراهيم حنا عطايا من قصيدة طويلة:

يـا داعيَ الفضـل تحيـى ذكـر بطركنـا ... لبيـك مـن قلبنـا تُهْـدي التحيـات
قمنـا لإحيـاء ذكـرى ريـس بطـل ... قـد خلدتـه الأيـادي. والمبَّـرات

شعورنا قد أضاءت منه أفئدة ... وعزمنا لألأت منه النيرات

هذا كرلس في الترايب رابعهم ... لكنه علم حفَّته رايات

تقاصرت عن معاليه الدهور كما ... تقاصرت عن كمال الفضل سادات

سما على الخلق فأستسقَوْا مواهبه ... لا غرو أن سقت الأرضَ السموات

لا تطلبنَّ من الأيام مشبهَهُ ... ففي طلابك للأَيام إعنات

طالع مآثره واقرأ نفائسه ... تلق الإفادات تتلوها الإفادات

بنى كنيستنا الكبرى ومدرسة ... أيامَ عزَّت رجال والبنايات

كم ذاد عن شعبه من جور محتكم ... وبدَّدَ الظلم فأنجابت محاباة

يا رحمة الله وافيه مثلثة ... فإنه خير خبر في الأُلى ماتوا

ألخ...

وسبق أن رأينا كيف بكى أدباء الأقباط على بطرس غالي بكاء مراً، وكيف نظموا ونثروا في رثائه القصائد والمقالات والخطب.

وقال بسطا بشاى يرثى جرجس بك حنين مدير الأموال المقررة في ٢٤/٦/١٩١١ من قصيدة طويلة:

رب المآثر ما أقالك عثرة ... عادي الحمام، وكم أقلتَ عثارا

أعزز علينا أن يناهضك الردى ... وتدير عينك لا ترى أنصارا

لو يقبل الموت الفداء لبادرت ... لفداك منا أنفس تتبارى

خسرتك مصر فعم رزؤك أهلها ... من مسلمين تألموا ونصارى

تبكيك أمتك التي أكسبتها ... بين البرية بالنبوغ فخارا

لو تستطيع جزاء ذاك وخُبرتْ ... عند أرتحالك قدمت أعمارا

كانت لها الآمال فيك كبيرة ... ولقد قَضَيت وما قضت أوطارا

ألخ...

وقال فرنسيس العتر يرثي يوسف سليمان باشا سنة ١٩٣٩.

ولّـى فألبَسـنا الأسـى مـن بعـده	**ولّـى ففـاض الجفـن دمعـا أحمـرا**
أبكـى بعاصـمة الـبلاد كنائسـا	**قـد كـان فيهـا حارسـا ومـدبّرا**
مـن لليتـاَمى والأيـامي؟ مـن تـرى	**يجلوا الدُّجى ويصد خطبا قد عرا**
ذي بيعـة العـذراء تبكـي فخرهـا	**تبكي الذي في الحق كان غضنفرا**
وكنـائس القـديس مـرقس كلهـا	**تبكـي الـذي وزن الرجـال وقـدَّرا**
أطفالنـا ونسـاؤنا ورجالنـا	**يبكـون إحسـانا وعطفـا أوفـرا**

ألخ....

***

ومن الطبيعي أن يمدح شعراء المسيحيين وكتابهم المحسنين ويطرونهم، ويشيدون بكرمهم وسخائهم، كما أنهم عرضوا بالبخلاء، والذين ينفقون أموالهم إشباعاً لشواتهم وما يجلب لهم اللذة كالخمر والنساء؛ متجاهلين الفقراء من أبناء دينهم، وكان الشعراء يستدرون عطف المحسنين بشرح أحوال الفقراء وما يلاقونه من قسوة الحياة؛ وما عليه من جوع وعرى، وما يجري على خدودهم من دموع. ويدعون الأغنياء إلى التخفيف من آلام هؤلاء البؤساء، ويذكرونهم بثواب الله ونعيمه الذي أعده للمحسنين. وعقابه الذي ينزله بالبخلاء الذين كدسوا أموالهم وأتخذوها أصناماً يعبدونها من دون الله.

ويذكرون أن هؤلاء البخلاء سيموتون ويتركون أموالهم، لم ينتفعوا بها في الدنيا ولا في الآخرة. ويقولون إن الأعمال الصالحة هي التي

يجب أن يدخرها المرء لينتفع بها في الحياة الأبدية. وأفضل هذه الأعمال الإحسان إلى المحتاجين.

وقد مر بنا شعر كثير يحمل بين طياته الأهداف المتقدمة.

***

ومن المشاكل الاجتماعية التي بحثها المفكرون المسيحيون، وأكثروا فيها القول مشكلة نشر التعليم بين أبناء طائفتهم بحيث يكون لهم التفوق في النسبة العددية حتى تتم لهم السيطرة على مرافق البلاد الحيوية. قال رمزي تادرس [1]:

«إذا قارنا نسبة الزيادة بين العنصرين في خلال الأربع سنوات الأخيرة باعتبار ذات الزيادة المتواصلة بين عدد المتعلمين لعادات نسبة الأقباط خمسة أسباع عدد المتعلمين. وبفرض حصول الزيادة بين المتعلمين على النسبة نرى حالا أن عدد المتعلمين منا سيصبح بعد عشر سنوات، أي في سنة ١٩٢٠ خمسة أتساع مجموع المتعلمين. وهنا يجب الألتفاف إلى أن عدد المتعلمين من إخواننا– يعني المسلمين– آخذ في النمو والأزدياد كلما تخطوا رقاب الأعوام» .

«وسيكون من شأنه بالرغم عن عدم توقف سير الزيادة المطردة بيننا تقليل نسبتنا إلى ما هو دون النصف. وهذا لو حصل لأخل سير الموازنة

---

(١) الأقباط في القرن العشرين ٢٩/١.

الطبيعية الحاضرة، وأستدعى من باب الحيطة أن ندأب من الآن على ترقية التعليم وجعله إلزامياً ومجانياً في مدارسنا لتبقى نسبتنا حافظة دواما لمكانتها».

«والأمر الثاني الذي يسترعى الأنظار هو أن إحصائية المتعلمين في المدارس العالية تدل على أن نسبتنا أقل بكثير من نسبة إخواننا– يعني المسلمين– بل آخذه أيضاً في التناقص من سنة إلى أخرى. فإنها بعد أن كانت تعادل في سنة ١٩٠٦ نحو النصف؛ تناقصت في هذا العام– ١٩١٠– إلى جزء من خمسة أجزاء من مجموع المتعلمين، وستعادل في سنة ١٩٢٠ على هذا القياس جزءاً من عشرة أجزاء».

«وهذا التقدير التقريبي الذي لا يتناول طبعا الستمائة طالب الذين يتعلمون من إخواننا في كليات أوربا؛ يدل على أن أفتقارنا إلى التعليم العالي أشد من افتقارنا إلى التعليم الإعدادي بكثير. ويؤيد رأي الذين ذهبوا إلى أن عنصرنا لا يزال بعيداً عن بلوغ المنزلة التي يستطيع بها المنافسة مع إخواننا– أي المسلمين– أو الدخول معهم مداخل التنازع والتسابق في ميدان الحياة العملية حفظاً للتكافؤ، وأستبقاء للوجود الذاتي».

«ومع ذلك أترانا ألتفتنا حوالينا ونظرنا إلى هذه الحركة العلمية؟ كلا! إنا لم نلتفت ولكنا شعرنا شعوراً ذاتياً يعدم ضمانة مستقبلنا أمام تلك النهضة العالية التي أخذت تتسع وتنتشر في صفوف إخواننا– يعني

المسلمين– حتى أوجدت جيلا راقيا منهم. ولا حاجة بي إلى ذكر ما آل وسيؤول إليه أمرنا قبل وبعد هذه الحركة العظيمة، إنما غاية ما يمكن ذكره هو أن نستبدل السكون بالحركة، والقعود بالسعي المتواصل لكي نسير وإياهم جنباً إلى جنب في إنجاح البلاد، وإسعاد العباد، ولكي يتفوق عددهم على عددنا».

«ولقد يحسن بنا– والحالة هذه– أن نتساءل أو نسأل أنفسنا: ما هي النتيجة إذا أستمر إخواننا يعززون قوميتهم بالتعاليم العالية، وبتخريج الأختصاصيين في كل علم وفن؟ لا نتيجة سوى أن ننحل ونفقد وجودنا ونسقط في الهاوية التي أعدت لأمثالنا من الخاملين».

فبهذا الإحساس أندفع أدباء المسيحيين إلى نظم القصائد وتدبيج الخطب، وتنميق اللمقالات في الدعوة إلى العلم والتعليم. كان غرضهم التفوق على المسلمين والتغلب عليهم. وكانوا يرون في أنتشار التعليم بين المسلمين خطراً يهدد كيانهم. ويؤذن بزوالهم. وقد أثبتت الأيام خطأ هذا الأعتقاد وفساده. فمدارس الحكومة مفتوحة أمام المصريين أجمعين، وكذلك الجامعات، والعبرة بالمجموع الذي يحصل عليه الطالب دون نظر إلى الدين.

***

ولما كان الطلاق من الأمور المتعذرة عند الأقباط؛ فقد أهتم مفكروهم ببحث أسباب النزاع بين الرجل وامرأته. ورأوا أن من أهم أسبابه جهل المرأة قال رمزي تادرس [1]:

«على أنه لو أنصتنا إلى العائلة القبطية في مجتمعاتها الخصوصية لسمعنا صوت الشقاء يض=صرخ بين أفرادها، والتعاسة موجودة بينهم بكثرة لا يدركها العقل. موجودة بين الزوج وزوجته، وبين الأخ وأخته، وبين الأم وأولادها، لأن المرأة القبطية جاهلة».

وقد قام الشعراء في الدعوة إلى تعليم الفتاة بواجبهم خير قيام فنظموا القصائد الطويلة في بيان مزايا الأم المتعلمة، ومضار الأم الجاهلة. ورأوا أن الفتاة المتعلمة أسرع زواجاً من الجاهلة. وعلى ذلك فتعليم البنت يساعد على حل أزمة الزواج عندهم، وبذلك يزداد عددهم وتتسع دائرة نشاطهم، ويمكنهم الوقوف في وجه الأغلبية الإسلامية. قال نصر لوزا:

العلم فرض على الجنس اللطيف كما ... قد صار فرضاً على شبابنا النُّجُبِ
الأم تحتاج علماً يستضيء به ... أبناؤها مثلنا يحتاج خير أبِ
ربو الفتاة ترَوْا أمَّا مؤدبة ... تعلم الطفل ما يحلو من الكتب
البنت إن هُذبت صارت لنا مَلكا ... يجثو لها كل مخلوق على الرُّكبِ
البنت ريحانة والعلم زخرفها ... إذا هي أرتشفت من مائه العَذِبِ
فتاتنا اليوم أم للرجال غداً ... فهذبوها تنالوا منتهى الأرَبِ

(١) الأقباط في القرن العشرين ٤٩/١.

لا خير في امرأة في البيت جاهلة ولو غدت من بنات العز والحسب
لي صاحب طالما ألفيته عجبا يبغى الزواج بذات المال والنَّسَبِ
لا يبتغي زوجة بالعلم راقية بل يبتغيها فتاة جمة النشبِ
ما زال مجتهداً في نيل بُغيته إلا وأجذله المقدور بالطلب
أعطى له امرأة من أهلها ورثت جزءاً من الأرض مع جزء من الذهبِ
لكنما عقلها بالجهل ممتلىء فلا تميز بين الدر والخشبِ
حتى إذا ما مضى من عرسها سنة وعيشة الزوج لم تهنأْ ولم تطبِ
تكدر الزوج من جهل بزوجته وبات يحسد دوماً عيشة العزبِ
فلم تطل مدة إلا وطلقها وليس من علَّةٍ فيها ولا سببِ
هذى مغبة من يبغى قرينته من ربة المال لا من ربة الأدبِ
البنت غصن رطيب في حدائقها تلين إن قُوِّمت عفواً بلا تعبِ

ولم يحدث بين المسيحيين أختلاف حول وجوب تعليم الفتاة كما حدث بين المسلمين، وذلك لأنهم كما ذكرنا كانوا مهتمين بتدعيم كيان العائلة، ورأوا في تعليم الفتاة ما يدعم هذا الكيان، ويزيل أسباب الشحناء.

***

وقد دعا كتاب المسيحيين إلى تحرير المرأة من الحجاب، وقالوا إن المرأة القبطية لم تكن تعرف الحجاب، وإنما الذي فرضه عليها هو أحمد بن طولون. وذكروا أن الحكم الإسلامي كان السبب في تأخر المرأة القبطية وتخلفها عن نساء العالم. وأن الدين المسيحي نهى عن الحجاب، وعن تغطية وجه المرأة بالبرقع، وعن لف جسمها بالحبرة أو

الإزار. وقالوا إن المرأة القبطية طبعت على العفة والطهارة، وأن هذه الصفات طبيعيى فيها منذ عصور الوثنية. وكانوا يوازنون دائماً بين بنات الفرنجة وهن مسيحيات، وبنات الأقباط اللاتي يشاركنهن في العقيدة، ومع ذلك فالفرق بينهن عظيم. قال نصر لوزا:

تُضيَّع بنت الغرب في الدأب وقتها ... وذي بنت مصر وقتها ضائع سُدَى
فأولاهما لا تعرف الضيمَ نفسُها ... وأخراهما لا تنثني خشية الردى
تضيق عن الأولى البلاد فتمتطي ... إلى غيرها الاهوال لا ترهب العِدَى
وترحب للأخرى فتختار دونها ... من البيت سجنا في الحياة مؤبدا
وما الذنب ذنب البنت في مصر إنما ... أبوها جنى لماَ لم يكن متعمدا
يغار عليها إن أطَّت من الحمى ... لكي تلتقي من رؤية البدر مشهدا
يكاد إذا صلّت إلى الله ربها ... يغار فيبقى قربها مترصدا

ألخ...

***

وتناول بعض الكتاب سوء الحالة الصحية بين شباب الأقباط تحت عنوان «خطر يهدد الأقباط» فمما قاله:

«ضعف في الصحة، وذلك ناشيء من سوء الغذاء، وعدم أستعمال الألعاب الرياضية. ولست أعلم سبباً لهروب التلاميذ الأقباط من الألعاب الرياضية حتى ليندر وجود أقباط بين لاعبي الألعاب الرياضية في مدارس الحكومة مع كثرة عددهم».

وكتب آخر تحت العنوان المتقدم:

«إن مسألة عدم اهتمام أبناء الأقباط بالألعاب الرياضية يعرضهم لأمراض فتاكة تجعلهم في خطر، وتقصف أعمارهم وهم في مقتبل الشباب. وإني آسف- واسم الحق- عندما أنظر إِلى الشبتب القبطي فأجده آية في الذكاء ولكن إما أن يكون مصفر الوجه، أو نحيل الجسم، أو منحني الظهر، أو مضعضع البصر. وذلك على ما أرى من كثرة انكبابه على الدرس والمطالعة، وعدم تخصيص وقت للرياضة ولعب الجمباز».

فكانت هذه الحالة من أسباب أهتمام الأقباط بإنشاء المصحات الخيرية التي تتولى علاج فقرائها بالمجان، وإنشاء المستشفيات كالمستشفى القبطي، ومستشفى جمعية التوفيق القبطية وغيرهما.

ويزعم بعض المسيحيين أنهم توارثوا عن أسلافهم علوم الطب وعلاج بعض الأمراض بحيث لا يستطيع أحد أن يناقسهم فيها. قال جندي إِبراهيم من قصيدة في رثاء المعلم «برسوم المجبر»:

تـوارث القبط هن أسلافهم حِكَماً ... خُـصَّ اللبيـب بهـا إذا غـاب أغـرارُ
فكـان برسـومنا مسـتودعاً حسـناً ... للسـر إذ خشـعت للـوحي أبصـارُ
كم من كسير أضاع الطب حيلته ... وكـم عليـه سـطا فـظ وجبَّـارُ
يبتـز أموالـه مَبْـداً ومُخْتَتَمـاً ... وهـل يُجِيـزُ الفتـى فـأس ونتشـار؟
يغدو الكسير طريحاً لا يرى فرجاً ... إلاّكَ يـا نابغـاً فينـا فيختـار
والمنهل العذب جذاب لذى ظمأ ... والشـهد حلـو لذيـذ الطعـم بشـتار
حتى الطبيب الأمين اختصه ثقة ... ومـا تشـبه بـالقوم الألـى غـاروا

ألخ...

وأما مطلع القصيدة فهم:

مــات المجبــر والتجبيــر أســرار   أعيـت أطبـاء هـذا العصـر فأحتـاروا

فالشاعر يقول إن التجبير من الأسرار الطبية التي ورثها المسيحيون عن آبائهم وأجدادهم، وأنهم متفوقون في هذا النوع من العلاج الذي لا يستطيع الطب الحديث أن ينهض به.

وإلى هنا ينتهي الكلام على أهم نواحي مجتمع الأقباط وأثره في أدبهم.

البابُ الثامنُ

الحب الإلهي وأثره في الأدب القبطي

يصف المسيحيون الله بأنه أبوهم الذي في السموات. فالعلاقة التي تربطهم بالله هي العلاقة التي تربط الولد بوالده، وهي تقوم على الحب المتبادل بين الطرفين. فهم يحبون الله حباً جماً لأنه أبوهم الذي يخصهم ببره وعطفه، وكرمه وإحيانه، ةيقولون إن الخطيئة التي أرتكبها آدم حين أكل من الشجرة المحرمة، والتي أستوجبت طرده من الجنة؛ ظلت عالقة بأبنائه، فأراد الله أن يزيل عن كاهل البشر وزر هذه الخطيئة فأرسل ابنه الحبيب عيسى ابن مريم ليدعو الناس إلى الإيمان بالله، والدخول في طاعته. وليهديهم إلى طريق الخلاص من هذه المعصية التي أقترفها أبوهم آدم. ولذلم يصفون المسيح بأنه المخلص. ويقولون إن المسيح تقبل الصلب ليفتدي العالم بنفسه، وليكون دمه المسفوك مطهرا للجنس البشري، ولهذا يدعونه بالفادي الحبيب.

وأتخذوا الصليب شعارا لهم يرسمةنه على أذرعتهم، ويعلقونه فوق صدورهم، وفي داخل كنائسهم وخارجها. وينظمون الأناشيد والتراتيل والقصائد التي يتغنون بها في صلاتهم تقديسا للصليب، وتمجيداً في المسيح، وفي أمه مريم العذراء البتول. مثال ذلك قول رفائيل نخلة تحت عنوان «ملكة السماء والأرض».

فتنــــتْ فــؤادَ الله حـــين رآهـــا ... فاقـــت خلائقـــه بفـــرط تقاهـــا

قـــد عـــم آدمَ والســـلالةَ ســخطُه ... فـــافتر عـــن حلـــم لـــدى مرآهـــا

قـــد بُشّـــرَت بقـــدومها لخلاصـــنا ... حـــواء فـــي الفـــردوس بعـــد غواهـــا

عـــذراء قـــد حبلـــت بقـــوة ربهـــا ... وهبـــت حيـــاة للـــذي أحياهـــا

أمُّ الإلـــه، أيـــا ملائكـــة أذهلـــوا ... قـــد كونـــت مـــولاكُم بحشـــاها

منـــذ الـــولادة شـــوّهتنا وصـــمة ... مـــا نـــاب مـــريم عارُهـــا وأذاهـــا

الأرض قبلـــك يانقيـــة عاطـــل ... وبـك اسْتَبَتْ ربَّ الجمال حُلاها

لـــلأرض أنـــتِ وللســـماء مليكـــة ... عقـــلُ النوابـــغ فـــي جلالـــك تاهـــا

ألخ...

وقال مناجياً للصليب تحت عنوان «يا صليب الرب».

يا صليبَ الرب، يا أسمى خطيبْ ... مرشـداً نفسـي الضّـلولَ الخاطيـهْ

مـذ طلـى عـودَك فـادِيَّ الحبيـبْ ... بقطـــار مـــن جـــروح داميـــهْ

باسـطاً كفَّيـه فـي حـبٍّ عجيـبْ ... لجمـــاهير الشـــعوب الغاويـــهْ

والفـؤاد أنحـل مـن فـرط الوجيـبْ ... فـــي هـــواه للنفـــوس الغاليـــهْ

لـم أجـد مثلـك وَعَّاظـاً يصـيب ... بســهام اللــوم روحــي القاســيَهْ

يا صليب الرب، يا أسمى خطيبْ

وقال نصر لوزا من قصيدة عنوانها «آية الصليب»:

صـليبَ العـار صـرت لنـا فخـارا ... نلـــوذ بظِّلـــه نحـــن النصـــارى

فـإن خشـباً تكـن فلأنـت تحـوِى ... معـاني تـزدري الـذهب النُّضـارا

كبـــار البـــأس والجبـــروت ليســـوا ... أمامَـــك خُشَّـــعاً إلا صـــغارا

ملـــوك الأرض تلبســـك أعتـــزازا فتلـــبس فـــوق تـــاج الغـــار غـــارا
بيـــوت الله قـــد شـــيدت صـــروحا وكنـــت الـــركن فيهـــا والجـــدارا
يـــراك بأفقهـــا الســـاري فيعنـــو خشـــوعاً للمخلَّـــص وادَّكـــارا
تـــؤذَّن للصـــلاة بغيـــر صـــوت لناظرهـــا فتنعشـــه وقـــارا
كأنـــك فوقهـــا ملـــك كـــريم مـــن الفـــادي يصـــون لهـــا الـــذَّمارا
كأنـــك للعنايـــة دَيْـــدَبَانٌ عليهـــا الليـــل يســـهر والنهـــارا
شـــققتَ لنـــا طريـــق النصـــر بينـــا حجـــاب الهيكـــل أنشـــق انـــدحارا
وحـــررت النفـــوس فِـــدًى وكانـــت يـــد الشـــيطان ترهقهـــا إســـارا
تلاقـــي كالخليـــل النـــار بـــردا فلـــيس تضـــيرك الأحـــداث نـــارا
ألخ...

وهكذا شخص الشاعر الصليب وأخذ يخاطبه، ويخلع عليه من الصفات ما شاء، فهو ملك كريم يدفع الأذى والضرر عن الناس. وهو حارس قوي ينهض بواجبه في الحراسة ليل نهار، لا يغفل ولا ينام، وهو الذي تعتز به الملوك وتضعه فوق تيجانها.

وقال نصر لوزا من قصيدة في الحب الإلهي:

إنْ رابنـــا الـــدهر لا نجـــزع لريبتـــه ولا نبـــث لغيـــر الله شـــكوانا (١)
ونحمـل الخطـب يـوهى المـرهَقين بـه تحت الصليب أباه الضيم شجعانا
تشـــدو البلابـــل مـــن أفواهنـــا وعلـــى قلوبنـــا تنعـــب الأحـــداث غِربانـــا
تزكـــو الريـــاض بعَـــؤْفٍ مـــن قرائحنـــا وفـــي الجـــوانح يزكـــو الشـــوق نيرانـــا

(١) إن رابنا الدهر: إن أصابنا وقسا علينا (٢) يوهني: يضعف: المرهق: المثقل من التعب والألم.
(٣) غربها: حدتها وقسوتها.

وإنْ مفارقنـــا شـــابت فـــإنّ لنـــا عزائمـــا تـــنهضُ النُّـــوَّام شـــبانا
إن شـدة عرضـت فـادع المسـيح لهـا كـــم شـــدة بهـــداه غربُهـــا لانـــا
مـــن بـــاع أخـــراه بـــالأولى فصـــفقته بـــاءت عواقبهـــا غبنـــا وخســـرانا
يـــا للمخلـــص غفـــاراً ومنتقمـــاً فلاقـــه غـــافراً واحـــذره دَيانـــا
مـن لا يحـب المسـيح الناصـريّ فمـا تعـــد منـــه مســـيحياً ونصـــراناً

والحق إن هذه الأبيات قد أستكملت جميع العناصر الفنية للشعر الممتار، وأستوعبت عائم الإجادة التي ينهض عليها الإبداع الفني.

***

وقد أتخذ أدباء النصارى الأدب وسيلة للوعظ والإرشاد، والدعوة إلى التمسك بمكارم الأخلاق التي تقرب الإنسان من الله، وتجلب له المحبة الإلهية، وتدخله– على حد تعبيرهم– في ملكوت الرب تقديس أسمه، وتمجد في سمائه. وكذلك أتخذوه وسيلة للدعوة إلى التأمل في الكون، والتطلع إلى آثار ما صنع المليك، وما أبدع من الكائنات التي تشهد بوجوده، وتنطق بقدرته. مثال ذلك قول نصر لوزا من قصيدة تحت عنوان «العلم والبلاد».

العمر يمضي كالخيال وينقضى وتـدوم بَعـداً صـفحة الأعمـار
فتمكنـوا يـا قـوم مـن تخليـدها بالصـالحات وطيِّـب الأفكـارِ
هـذي حيـاة الخلق سائرة على قـدمين مـن ليـل الـدُّجى ونهـارِ
فـالحر مـن لـم يغتـرر بنعيمهـا فنعيمهـا كـدّرٌ مـن الأكـدارِ

الكـون سـفر علومنـا وسـطورُه		مــن روضِــهِ وجبالــه وبحــارِ
فتـأملوا فـي ذي السـطور فإنهـا		لَسـطورُ سِـفْرِ الواحـد القهـارِ
الشـمس تخبـر عـن بـديع فعالِهِ		بجميـل مـا تبـدي مـن الأنـوارِ
والبحر والبَـرُّ العظيم وما حوى		حتى الطيـور وهْـنَّ في الأوكـارِ
الكـــلُّ قائلـــة بصـــوت واحـــد		الله أكبـــر ذاك خلـــق البـــاري

وهذا شعر جيد تغذيه عاطفة دينية ونفحة روحية. وقوله «الواحد القهار» لا يتنافى مع العقيدة المسيحية، فالله عندهم واحد في ذاته، مثلث في صفاته.

***

وقال إسكندر قزمان في تهذيب النفس وإصلاحها، وتقويم الأخلاق والسمو بها:

وإذا الفتـــى لـــم تعتـــدل آمالُـــهُ		خـــال الهنـــاء بـــذي الحيـــاة مكمَّـــلا
ومتـــى تفاجئْـــهُ الحـــوادث ينهـــزمْ		ولقـــد يظـــن بـــأعزل إن يفشـــلا
ولربمـــا بـــالراح عـــالج همَّـــهُ		أو بالضـــلال إلـــى النجـــاح توّســـلا
ولـئن مضـى العـام القـديم ولـم يـزل		يصـــليك مـــن بَلْـــةَاهُ أحمـــى مُصْـــطَلَى
أفـــلا عـــلاج يُسْـــتَطَبُّ بـــه وهـــلْ		يرضَـــى المهـــينُ أن تضـــام وتُخـــذلا؟
حاشـــا فـــأدواء الحيـــاة لهـــا مَـــرا		هِـــمُ وهْـــيَ أنجـــعْ مـــا يَنـــال المبُتْلَـــي
للنـــاس جهزهـــا طبيـــب قـــادر		أضـــحى بتخفيـــف العنـــا مـــتكفلا
مـــا مـــدّ يمنـــاه الكريمـــة مشـــفقا		إلا شـــفت دَنِفـــا وحلّـــتْ معضِـــلا [1]

---

(١) الدنف: المريض.

يهـدي الأُسـاةَ إلـى الوقايـة والـدَّوا ءِ لأنـــه رب الملائـــك والمـــلا [1]

يـــدعو إليـــه المتعَبـــين جمـــيعهم ليُقِـــرَّ مضـــطرباً وينجـــد مُثقبــــل

قـد قـال قِـدما وهـو أصِـدق قائـل لا يُخـــذلنَّ فنـــى علـــىّ تـــوكلا

فبحبـل قوتـه اعتصـم مـن قبـل أن تســـتقبل العـــام الجديـــد المقـــبلا

وعنـاك أدنـى لـو أممـت رحابـهَ ممـــا تقـــدَّره وأيســـر محمـــلا

وإذا حبـال الخيـر رقّـت واغتـدى بـــالغش مـــن عاملتـــه مُتَســـرلا [2]

وإذا نبـا دهـر وكـاد لـك العـدى وجفـاك مـن تهـوىَ وذمَّـك مـن قـلا [3]

فاصـبر ودع مـولاك يُجـرِي عدلـه أفـــلا تُنِلْـــهُ مهلـــة كـــي يعـــد لا؟

وتغـاض عـن هفـوات مـن عاشـرتهم كـــم مرتـــد بردائـــه بعـــد البِلَـــى

ولعـل خيـراً فـي همومـك كـامن لـــولا همومـــك مـــا أتـــاك مجمَّـــلا

فأشـكر كريمـاً قـد أنالـك مـن فـدِا هُ ومـــن نـــداه ومـــن رضـــاه وأجـــزلا

وأحفـظ عفافـك مـن شـبابك تَلْفَـهُ درّا لرأســك فــي المشــيب مُكَلَّــلاَ

هكذا وقف الشاعر واعظاً ومرشداً يدعو إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة التي يقوم عليها المجتمع الصالح. ويدعوإلى التسامح والإخاء ونبذ الأحقاد والضغائن، وترك العداوة والخصومة، ونشر روح المحبة والإخلاص والوفاء. وفي قوله «يدعو إليه المتعبين ألخ...» إشارة إلى ما ورد في العدد ٢٨ من الإصحاح الحادي عشر من إنجيل متى وهو «وتعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم».

---

(١) الملا: الناس.

(٢)متسربلا: مرتدياً.

(٣) قلا: أبغض.

وتمتاز هذه القصيدة كغيرها من شعر إسكندر قزمان بجودة الأسلوب، ومتانة التركيب، وقوة العبارة، وبراعة الإشارة. كما تمتاز بالقوة الروحية والعاطفة الإنسانية.

***

وقال ميخائيل منصور مشيراً إلى الرهبنة والتنسك، وأعتزال المجتمع والتفرغ للعبادة:

جعلـوا الصـحارَى جنـة واسـتوثقوا … بـــالله لا بالمـــال والأعـــوانِ
فقَضَــوْا لُبانــة ربهــم إذ قوّضــوا … باســم المســيح عبــادة الأوثــانِ
وصــليبه أتخــذوه أصــدق شــارة … حتــى دعــوهم عابــدي الصــلبانِ
وتبتَّلـــو متنســـكين لوجهـــه … متقـــرَّبين إليـــه بالقربـــانِ
ودّعـوْا نفوسـاً للخـلاص فكلهـم … راع وحقــل حصــاده الـــثَقلانِ
بِيَـــعٌ وأديـــار بمصـــر ونوبـــة … مزدانـــة بـــالطُّهر والرضـــوانِ
يـا مصـر شـعبك بالمسيح مبـارك … يــا منبــت النســاك والرهبــانِ
سـاروا وقـد رفعـوا بموكـب نصـره … أعــلام إنجيــل علــى الحبشــانِ
فغـدت كنيسـة مصـر مقصـد آمـل … تُرْتــاد مــن عــرب ومــن رومــانِ

***

وكثيراً ما نجد في الأدب القبطي بهذا الباب صوراً إسلامية مثل: التلبية، والأعتمار، والطواف، والحج، والقبلة والإمام. كما نجد إشارات إلى آيات قرآنية. مثال ذلك قول كامل منصور في حفلة تدشين كنيسة:

لا غـــرو إن لبَيْتهـــا وحججتهـــا … وعلــى مناسـكها وقفــت جنــاني

فالتلبية من الشعائر الإسلامية

وقول إسكندر قزمان في ذكرى كيرلس الرابع وفيه إشارة إلى ما بذله من جهد في أفتتاح المدرسة القبطية:

ولها أستملتَ قلوب قومك دائباً حتى غدت حرماً يُحجُّ ويُعْتَمَرْ

فالحرم والأعتمار؛ ومعناه زيارة الحرم الشريف؛ من الشعائر الإسلامية. وقوله:

أتلـومني أنـي أنبـتُ وقـد غـدا شـرع المهـيمن قبلتـي وأمـامي؟

فالقبلة والإمام من الأمور الإسلامية.

وقال نصر لوزا:

فلمـثلهم جعـل الإلـه نعيمـه مـن كـل فاكهـة بهـا زوجـان
يـدعوهم جبريـل فيهـا قـائلا ثومـوا أدخلـوا بسـلامة وأمـان

وفي البيتين صور إسلامية في وصف الجنة. فقوله «من كل فاكهة بها زوجان» فيه أقتباس لما جاء في سورة الرحمن آية رقم ٥١ وهي «فيها من كل فاكهة زوجان» وقوله «قوموا أدخلوا بسلامة وأمان» نظر فيه إلى آية ٤٥ من سورة الحجر وهي «أدخلوها بسلام آمنين».

وقوله:

الـدين أول شـيء صـان صـاحبَه يـا حبـذا مـن بحبـل الله يعتصـمُ

وفيه إشارة إلى آية ١٠٣ من سورة آل عمران وهي «وأعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا».

***

وهناك شعراء أقباط أوردوا في شعرهم معتقدات إسلامية مقرونة بالتعظيم والأحترام، ونوهوا بذكر الشعائر الإسلامية متناسين معتقداتهم القبطية. فمن هؤلاء تادرس وهبي الذي يقول من قصيدة في مدح الخديو عباس حلمي الثاني:

وحسبه أن مليك الورى   متبوعه ظلُّ الإلهِ الظليلْ

ومعناه أن السلطان عبدالحميد الذي هو أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، متبوع الخديو؛ هة ظل الإله الذي ينشر على الأرض فيظل أهلها يسوسهم، ويحكمهم نيابة عن الذات الإلهية. وهذا لا يتفق مع معتقدات المسيحيين.

وقال تادرس وهبي مهنئاً الخديو عباس بقدومه من الحج:

ولقد رددتَ الدين والدنيا إليّ   عهد الرشيد وهاته الدولاتِ
وسعيتَ للحرم الشريف مؤدِّيا   لله فرض الحج في عرفاتِ
ودخلت مكة محرماً لله لا   تبغي سوى مرضاته بالذاتِ
فتهللت أم القُرَى وسماؤها   جادت على بطحائَها بهباتِ

وأصبت أفئدة العُداةِ بما رمت	يُمْنَى يمينِ عُلاكَ من جَمَراتِ
قم أنثنيتَ إلى زيارة روضة	مطلولة بسحائب الرَّحماتِ
ووقفت ثَمَّ مصلِّيا ومسلما	ولثمت قبراضم خيرَ رُفاتِ

فلو أن شاعراً مسلماً أراد أن يمدح الخديو في هذه المناسبة لما جادت قريحته بأفضل من هذا الشعر. فلا شك في أن تادرس وهبي قد تجاهل معتقداته تجاهلاً تاماً في هذه القصيدة. وأنظر إلى البيتين الأخيرين وما فيهما من مدح للنبي محمد عليه السلام. وأنظر إلى المام الشاعر القبطي بمناسك الحج الإسلامية من السعي، والطواف، والإحرام، ورمي الجمرات، وزيارة الروضة النبوية، وإيرادها في عبارات تدل على عظيم احترامه لها.

وقال مهنئاً الخديو عباس بعيد الفطر، وبنجاته من مؤامرة شبرا التي دبرت لإغتياله سنة ١٩١٢:

مولاي عيد الفطر عاد مجدَّدا	فأستقبل الآمال فيه مُسَدّدا
واردد إلى الإسلام سابق عهده	حتى يتاحَ لك الفخار مؤيَّدا
خسرت تجارة شانئيك بأسرهم	من بعد ما شَرَوُا الضلالة بالهدى
فكأنهم حَمَّالةُ الَحْطب التي	آذت إمام القبلتين محمدا
وكأنما نَكَبُوا لِتُجزَى أجر ما	أرضيت ربّك صائما مُتَجهَّدا

هذه الأبيات ليست في حاجة إلى التعليق.

***

ومن شعراء الأقباط الذين تجاهلوا معتقداتهم الدينية عزيز بشاى، ومن قوله تحت عنوان «سيرة الشريف الرضى».

وإمــــارة للحــــج قـــد وُلِّيتَهـــاَ — والنـــاس فـــي الـــدنيا بهـــا بُشَـرَاءُ
لمـا سـمعتَ نـداء ربـك لـم يضـقْ — كـــرم لـــديك وذمـــة ووفـــاءُ
وفَّيْـــتَ للـــدين الحنيـــف فريضـــة — يســعى بهــا الشــرفاء وأُحنفــاءُ
وقضـــيت لله الحقـــوق وللتُّقَـــى — حــقٌ عليــك وحرمــة وقصــاءُ
وســعيتَ بالبيــت الحــرام مجلَّــلا — سمحاً تطوف يحوطك السُّمَحاءُ
ومشـــيتَ بالإســـلام والـــدنيا تُقَـــى — والكائنــــات هدايــــة وولاءُ
ولبستَ من حُلل الخشوع معي التُّقَى — حُلــلا عليهـــا رونـــق وبهـــاء
أثنـــي عليـــك الـــدين والـــدنيا معـــا — هل بعد ذلك في الوجود ثناء؟

ومنها:

يــا يـــوم عاشـــوراء فيـــك تقوضـــت — دُهْـــمٌ وكُـــدِّر بـــالنفوس صـــفاءُ
لمـا «الحسـين» نَعـوه قامـت ضـجة — واهتــزت الــدنيا وغــاض المــاءُ
وبكتـه «فاطمـة» ونـاح «المصـطفى» — فـــي قبـــره والســـدرة العصـــماءُ
وفخـــرت بالإســـلام لمـــا رَطَّـــدَتْ — بمحمـــد أركانـــهَ النُّصَـــرَاءُ
بيـــت النبـــوة أنـــتم أبنـــاؤُه — وتطيـــب مـــن آبائهـــا الأبنـــاءُ
زكـــت الفـــروع وأورقـــت بأصـــولها — فـــي بيـــتكم واخضـــرت الغبـــراءُ
لمـا نُعِيـت دعـاك جـدك فـي الثـرى — حتـى التقـى الُخْلَصـاءَ وَالشُّـرفاءُ
وطويتمـــا والطهـــر فـــي بُرْديكمـــا — عبـــق يجـــوز عليكمـــا وضَّـــاء
أقســـمت أنـــي لـــم أكـــن متحزبـــا — فـي القـول لا غـرض ولا أهـواء
إن قمـــت قبطيـــا لأمـــدح مســـلماً — شـرفا وكـم شـرفت بـه الأسـماء

وعلى الرغم من قطيته التي أعلنها في البيت الأخير إلا أن العواطف الدينية الإسلامية تجلت في القصيدة كلها. وهو يقسم أنه فيما قاله من مدح للشريف الرضى، وللمصطفى ولبيت النبوة؛ لم يكن مدفوعاً بدافع مصلحة ذاتية ولا منتظراً جزاء ولا شكورا، وإنما كان مدفوعاً بنوع من العاطفة والشعور العميق الممتليء بالحب.

خاتمة

أنتهينا الآن من دراستنا للأدب القبطي. ويمكننا أن نقول إن النصوص الأدبية التي صادفناها من بدء ظهور الأدب على يد ابن بطريق إلى نهاية العصر العثماني كانت من الأدب الديني الذي يهدف إلى خدمة المعتقدات المسيحية بتمجيد الله وتقديسه، والدعوة إلى التمسك بمكارم الأخلاق، والتنويه بالأعياد القبطية.

ولما قامت النهضة المصرية أتسعت دائرة الأجب القبطي، وتشعبت أغراضه، وتنوعت أهدافه داخل الإطار القبطي، ةفي حدود المصالح القبطية. فكانت مهمته الأولى خدمة أبناء الطائفة في شتى الميادين، والعمل على بناء مجتمع قبطي، قوي الدعائم، متين القوائم.

وكانت الصحف اليومية القبطية مجالاً واسعاً لكتاب الأقباط وشعرائهم ومفكريهم، فأكثروا من كتابة المقالات، ونظم القصائد على نحو ما مر بنا. وقد كانت الفترة التي سبقت قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ غنية جداً بالأدب القبطي، فزخرت بعدد وافر من شعراء القبط وكتابهم، كما زخرت بعدد من دعاة الإصلاح القبطي.

***

وبعد ثورة سنة ١٩١٩ أخذت دائرة الأدب القبطي تضيق شيئاً فشيئاً. فأختفى الأدب السياسي القبطي الذي كان يهدف إلى مراعاة مصالح الطائفة، والذي كان يدعو إلى دوام الأحتلال البريطاني. وأتجه إلى الأندماج في الأدب السياسي العام بعد أن أتحدت الأغراض، وتوحدت الأتجاهات.

وكذلك أخذت دعوة الشعراء والكتاب إلى إنشاء المدارس وتشجيع التعليم والحض على طلب العلم تفقد أهميتها بعد أن أقبل الناس من كل صوب على طلب العلم من تلقاء أنفسهم، وبعد أن كثرت المدارس كثرة هائلة.

ولم يبق من الأدب القبطي إلا الأدب الديني، وتقترن به عادة الدعوة إلى البر بالفقراء والمحتاجين، وذلك لأن الترغيب في الإحسان ركن من أركان الأدب الديني.

***

وكان الشعر القبطي الذي نظم في القومية الفرعونية يستند إلى عاطفة القرابة وصلة الرحم التي تربط الأبناء بالآباء والأجداد. ولم يكن أمام الأقباط من تراث يفخرون به سوى التراث الفرعوني.

أما الشعراء المسلمون الذين تغنوا بالآثار الفرعونية فلم يحملوا بين جوانحهم تلك العواطف الحارة التي يحملها شعراء الأقباط، وذلك لأن الأمجاد الإسلامية كانت تجذبهم إليها بقوة، والتغني بعظماء المسلمين

كان مستوليا على عواطفهم. ولا يمكن أن يجمع الإنسان بين عاطفتين مختلفتين في موضوع واحد: عاطفة فرعونية وعاطفة إسلامية. ويلاحظ أن أختلاف الأقباط عن أجدادهم من الناحية الدينية لم يؤثر في شعورهم بصلة القرابة التي تربط بين الأبناء والآباء.

***

وإذا نظرنا إلى مرائي الأقباط لعظمائهم لاحظنا أن هذه المرائي تختلط دائما بالدموع، وينبعث منها صوت البكاء والعويل؛ لأن الأقباط أقلية، وتعويض خسارتهم في هذا العظيم قد يكون متعذراً، فهم يجدون فيه عونا وحماية لهم ورعاية لمصالحهم. فبهذا الشعور يرثون عظماءهم، وينوهون بخدماتهم التي أدوها لأبناء طائفتهم.

ويمتاز الأدب القبطي بوجه عام بجودة الأساليب، ومتانة التراكيب. فهو أدب عربي متين، يستمد صوره وأساليبه من الأدب العربي، ويقوم على الثقافة العربية، ويتأثر أحياناً بالروح الإسلامية.

ويمتاز كذلك بصدق العواطف، وتدفق المشاعر، وتوقد الاحاسيس فهو بعيد عن التكلف كل البعد، إذ هو أنعكاس لمشاعر الأقباط، وتصوير لما تنطوي عليه جوانحهم من أفراح وأحزان وآمال.

بعض شعراء الأقباط

١

"تادرس وهبي" ١٨٦٠- ١٩٣٤

ولد تادرس وهبي بحارة زويلة بمدينة القاهرة عام ١٨٦٠. وفي الخامسة من عمره ألتحق بمدرسة الأرمن بدرب الجنينة بحي الأزبكية فتلقى فيها مباديء اللغة الفرنسية ودرس اللغة الأرمنية. وفي العاشرة من عمره ألتحق بمدرسة الأقباط فتعلم فيها اللغتين العربية والإنجليزية. ثم تقدم للأمتحان النهائي وكان يرأس لجنة الأمتحان رفاعة رافع الطهطاوي. قالت صحيفة الوقائع المصرية بالعدد ٤٤٦ في ٥-٣-١٨٧٢ «صار أفتتاح الأمتحان الذي ميز فيه تادرس أفندي وهبي بين الأقران، وأشير إليه فيه بالبنان. وكان أمتحان هذا التلميذ في اللغة العربية والمنطق والبيان، واللغة الفرنساوية والإنجليزية، والهندسة واللغة الطليانية فأحسن في كل هذه الإجابة، وظهرت عليه إشارات النجابة. «وكان رئيس لجنة الأمتحان رفاعة رافع الطهطاوي ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس».

وبعد أن أدى هذا الأمتحان تعين مترجماً بقلم الترجمة بنظارة المعارف، وألتحق بالجامع الأزهر ليأخذ بخط وافر من علوم اللغة العربية. فحفظ القرآن الكريم، ودرس علوم الحديث والفقه. ونشر مقالات وقصائد بمجلة روضة المدارس. ثم ترك خدمة الحكومة وأشتغل بالتدريس في مدرسة الأقباط ثم عين ناظراً لها وبقى إلى ١٩١٦ حيث أعتزل العمل بتلك المدرسة.

وله مؤلفات كثيرة مطبوعة نذكر منها:

١– التحفة الوهبي في تقريب اللغة الفرنسية.

٢– الأثر الجليل في رثاء إسماعيل.

٣– الأثر النفيس في تاريخ بطرس الأكبر ومحاكمة الكسيس.

٤– عنوان التوفيق في قصو يوسف الصديق.

٥– الخلاصة الذهبية في اللغة العربية.

٦– مرآة الظرف في فن الصرف.

٧– رواية تليماك.

٨– كتاب في اللغة القبطية.

***

وأمتاز أسلوب تادرس وهبي بكثرة ما فيه من المحسنات اللفظية ولا سيما الأقتباس من القرآن الكريم. مثال ذلك قوله على لسان الكسيس[١]:

«ولقد تجاوزت حدود الأدب في ميدان السيئات كَرًّا وفَرًّا. وأرهقني كل ذي أرب من أولياء السوء طغياناً وكفراً. فلو كنت أويت إلى

(١) الأثر النفيس ص ٩٧ ط بولاق سنة ١٩٠٤.

ركن ركين لما وقفت اليوم موقف المرتاب، ولما أوشكت أن أذبح بغير سكين ولكن أجل كتاب».

«وهذه قرينتك التي جعلتها مناط آمالك، وأعضاء أسرتك يتقلبون على الجمر، تقول في ولدك ما قال مالك في مضار الخمر. ولعمري إنك لو علمت ما أنا فيه في سري ونجواي لأسيت فؤادي الملوم، ولأيقنت يا مولاي بأن الكسيس مظلوم وأي مظلوم. ولسوف تكاشفك الأيام بكل سر مضمر فلا يبقى لك لسان صدق في الآخرين. فيا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين».

وقال على لسان بطرس الأكبر «... ومن ثم تعلم أني لو أبقيت عليه لكانت له في أرتكاب السيئات اليد الطولى وإني لفي شك منه مريب. فلا تؤاخذني إن نبذت رجاءك في هذه المسألة التي نسج فيها مع سواه من الأغبياء على أقبح منوال، وإذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال».

***

وكان تادرس وهبي في مقدمة الكتاب الذين تغنوا بأمجاد الفراعنة. فمن ذلك قوله.

«إن لمصر في التاريخ لشأناً دونه الفرقدان، وفخراً يرويه عنها من أبناء الزمان قاص ودان. لأنها البقعة المباركة التي ضربت فيها سرادقات العمار، والكعبة التي كان بها للطائفين أعتمار. ولكم يؤمها الآن حريص

من العلماء على مشاهدة آثار القدماء فيتهيب أني جاء تلقاء أبي الحجاج والهرمين تهيب جماعة الحجاج ساعة زيارة الحرمين».

***

وقد نظم تادرس وهبي كثيراً من الأناشيد الدينية التي ظلت ترتل في الكنائس مدة طويلة. ومن الأناشيد التي نظمها ليرتلها طلبة مدرسة الأقباط بمناسبة الذكرى الأولى لمقتل بطرس غالي سنة ١٩١١:

إلام نحـــاولُ طـــول البقـــاءْ ... وتنشـب فينـا سـهام المنـونْ
فــواحر قلبــاه حُــمَّ القضــاءْ ... وعــم الـبلاء فـأدمى العيـونْ
بفقـد الـرئيس دفنـا الفخـارْ ... قوكـان لـدينا المكـين الأمـين

***

فياراثيـا هـام فـي كـل واد ... نَعَــاءِ الــوزير الخطيــرَ
ووال البكـا مـن صـميم الفـؤاد ... فـإن المصـاب بـه مسـتطيرْ
وعـج إن مـررت بقبـر الحبيـب ... وسـله لمـاذا عـراه الخفـوتْ؟
دعونـاه ألفـا فلـم لا يجيـب؟ ... لقـد طـال منـه زمـان السكوت
علـى يـوم نكبتـه قـد مـر عـام ... بـه الويـل قـد عمنـا والثبـورْ
فيـــيهذا الـــوزير الهمـــامْ ... أأرضَـتْكَ بعـد القصـور القبـور

***

أمـا والـذي جـر فينـا الزمـان ... لقـد أزفـت بعـدك الآرفـاتْ
فـأنىَّ يُرَجّـى المريـد الأمـانْ ... ومن عاش مات ومن مات فات
بـك أسـتأثر الله رب الجـلالْ ... ومـا مـن مَـرَدٍّ لمـا قـد أرادْ

وقـد كنـت فينـا أبـر الفعـالْ لأنـك جاهـدت خيـر الجهـادْ

أمـد عليـك ظـلال الجنـان إلـه كـريم رءوف رحـيم

ولا زال فضـلك فـي كـل آنْ يـذكرنا بالفقيـد العظـيم

***

وقال في الذكرى السنوية الأولى لوفاة بطرس غالي سنة ١٩١١:

من مجيرى من جور هذا الزمان وقـد أشـتد سـاعد الحـدثان

كـل يـوم يجـر حربـا عوانـا فكأنمـا خصـمان يختصـمان

جرعتنـا خطوبـه الصـبر مُـرًّا فأسغنا ما لـيس فـي الإمكـان

فلكـم جـد بـالقرون فبـادت وهو ثبت الجنان رَسْل العنان

فلترعنـا بمـا تشـاء الليـالي ولتـذرنا مـا بـين نـاع وعـان

سل أبا الهول عن زمان تولي برعمسـيس أو أزورتـازان

وأعـد نظـرة فهـذى شَـعُوبٌ في أغتيال النفوس كالأفعوان

***

غـدرت بـالوزير بطـرس غـالي فانـدباه أيهـا الـثقلان

عاجلتـه يـد الزمـان فتبـت مـن يـد قوضـت بنـاء الأمـاني

قـد دفنـاه والعـلا منـذ عـام إذ همـا أوجـدا صـنوان

فلنعـدد حـلاه فـوق ضـريح بـات مثـوى لمـأثرات حسـان

وخلال عنوانها الفضل والفضل ملاك المعروف والإحسان

ولنفـاخر بـه عليمـا حكيمـا قـد روى مـا رواه عـن لقمـان

ولنعـز العليـاء فـيمن فقـدنا ولتعـز الـدنيا بنـي الإنسـان

**

رب كن لي فيما أحاول وأحلل * حـين أرثيـه عقـدة مـن لسـاني

يـا خليلـي لا تلومـا محبـا مع فـرط الأسـى الـذي تكتمـان

واذكـرا فضـله وإن جـل شـأنا ودعـاني أشـكو الزمـان وشـاني

ليس يغني السلوان عني شيئاً قضـى الأمـر فيـه تسـتفيان

أنـا أرثـي ولـو رآنـي راء نضـو حـزن ولوعـة لرثـاني

مـات مـن أعظـم المصـيبة فيـه مـن بتـي الملـك كـل قـاص ودان

وبكت من بعد ذا عين شمس ونعتـه منفـيس والهرمـان

وغـدا النيـل راثيـاً لعـلاه مسـتثيراً لـواعج الأشـجان

فلتـذب حسـرة عليـه القـوافي ولتعـان الأسـى عليـه المعـاني

ولأسـود بـيض الصـحائف حتى أسـتمد المـداد مـن أجفـاني

ولأردد ذكـراه حتـى رأنـي مـن كفـات الرفـات فـي أكفـاني

ولأقلـد جِيـد المراثـي عليـه مـن قريضـي قلائـد العقيـان

غيـر أنـي هيهـات أوفيـه حقـاً ولـو أنـي أنتحلـت شـعر ابـن هـاني

أجـزل الله أجـره وحبـاه رجمـة منـه فـي ريـاض الجنـان

وسـلام عليـه يسـرى بربـا هـ نسـيم معطـر الأردان

يا لقومي وقد دجا ليل خطب ** بـين آل الإنجيـل والفرقـان

كـان للنـازعين فيـه إلـى الشـ * رَّ كمـا يعلـم الإلـه يـدان

أكبرتـه الأهـواء مـا أنـزل الله بهـا مـن سـلطان

فليــوال الإرشــاد والنصــح فينــا كــل نــدب علــى الهــدى معــوان

ولــنفض النــزاع، والصــلح خيــر ولنشـــيد دعـــائم العمـــران

ولــنمكن عهــد الإخــاء وأولــى بمراعـــاة شـــرطه أخـــوان

ولنــدع كــل مــا أجــد خلافــاً مـــن شـــئون الـــدين للـــديان

**

وقال مهنئاً بطرس غالي حينما تولى رياسة الوزارة سنة ١٩٠٨:

فيـــا ســـلالة مينـــا والشـــيء بالشـــيء يـــذكر

لقـــد رآك الخـــديو علـــى الرئاســـة أقـــدر

فكنـــت خيـــر وزيـــر حـــاز الفخـــار المـــؤزر

فأســـتخدم الجـــد وأعلـــم أن المجـــد ميســـر

وأقـــرع صـــفاة حســـود عليـــك مـــا شـــاء أنكـــر

بشـــراه بطـــرس مصـــر صـــار الـــوزير الأكبـــر

***

ولما مات تادرس وهي سنة ١٩٣٤ رثاه عزيز بشاى بقصيدة مطلعها:

**

زميـل الصـبا ودعـت فيـك صـبابتي * وعهـد شـبابي الغـض والمـرح الجـم

لقـد كنـت لـي عنـد الملمـة شـافيا وكنـت دواء القلـب والـروح والجسـم

دعوتـك فـي الـدنيل فلبيـت صـاغراً تكفكـف مـن دمعي وتـدفع مـن هممي

وفَّيـــا إذا قـــل الوفـــاء وصـــاحباً إذا حـل ذو حـرب وأجبـر ذو سـلم

-٢-

إسكندر قزمان

وله قد أنشدها في نادي المسيحيين سنة ١٩١١:

لـو كنـت تـدري غـايتي ومرامـي ... لامتــد بينــك والمــلام مرامــي
وأختـرت مـا خـالفتني فـي حبـه ... وعـدلتَ من عـذلي إلى إكرامي
أتلــومني أنــي أنبــتُ وقــد غــدا ... شـرع المهـيمن قبلتـي وإمـامي؟
وتهش في وجه الضلال وجيشه ... فينـــا عظــيم الــبطش والإقــدام
من كـل مَـن تخـذ الشـبيبة عـذره ... فـي اللهـو والإغـراق فـي الآثـام
وجــدت بــه شــهواته طبعــاً لأن ... يطــأ الثــرى والــدين بالأقــدام

***

أتلــومني أنــي أتصــلت بفتيــة ... نـذروا التعفف عـن خنى وحرام؟
ضنوا بوقت ينقضى هذراً على الـ ... ـحانات فـي لهـو ورشـف مـدام
ونضوا على جند التجارب والهوى ... سيفاً من الصلوات غير كهام [1]
عرفـوا الشـبيبة أنهـا زمـن التـ ... ـأهب للمعـالي لا زمـان غـرام
ومخافـة الـرحمن مرقـاة العـلا ... حقــاً ومــا الــدنيا بــدار مقــام
ومن أتقى رب السـماء سما بأمَّـ ... ـتــه لاعمـــال تـــدوم عظـــام

***

يا فتية النادي أذكروا الأقباط من ... أقــرامكم ذكـرى ذوي الأرحـام

---

(١) السيف الكهام: السيف الذي لا يقطع، والمراد أنهم يديمون الصلوات.

وأدعوهم بأحب ما يدعى به خـل ولكـن فـي أسـدَّ كـلام

فمـن الكـلام محبـب لكنـه كسحاب صيف راحل وجهام

ومن الكلام مسدد كيد الطبيـ ـب تناولت تضميد جرح دامي

وقولوا لهم هيا بني الام أنزلوا منا على رحب ورعى ذمام

***

يا طالبي العلياء طال منامكم هبوا فهل ترجى العلا لنيام

هيهات يسلمِ من فخاخ شبابه غير الفتى ذي اليقظة المقدام

جدوا لما فيه علاء يلادكم وتخيـروا لينـاه خيـر دعـام

وأجل ما يعلي البلاد شبيبة رأت الفضـيلة أس كـل نظـام

جاءت تهدم ما عليها ينبني أو يهـدمون رواسـي الأعـلام

أخلق بكم أن تبلغوا ما قصرت عنـه الجـدود بغـابر الأيـام

فبعصـرهم بـدت العلـوم أهلـة وبعصـركم تبـدو بـدورَ تمـام

***

فخروا بآبيس ولم يك منعما وفخـاركم بـالله ذي الإنعـام

فهو الذي أولاكم بعد الحيا ة سـلامة الألبـاب والأجسـام

وفـداكم بطريقـة فـي كنههـا وسـموَّها حـارت ذوو الأفهـام

هلا عرفتم قدر نسبتكم إلى هـذا القـدير المـنعم العـلام؟

***

يا فتية النادي ومن لاذوا به مـن أروع وسـميدع وهمـام

بقيت لدي نصيحة شهدت لصحتها العلوم وخبرة الأعوام

وليَ اليقين بأنكم مني بها وبكل خير أعرف الآنام

لكننا نحتاج لذكرى ولو كانت معارفنا كبحر طامي

لا يرفعن لواءكم إلا شبا ب منكم أهل أعتدال سامي

راض اعتدال الدين فطرة سنهم فتملكوا معه الهدى بزمام

نلتم مناكم من هدى أقرانكم ومع الهدى أجراً وحسن ختام

الله أسأل أن يوفقكم لما فيه رضاه لكم بهذا العام

ولمثله يبقيكم في صحة والعيش في ثغر لكم بسام

ما أشرقت شمس الصلاح وفي حبنا حيها الشفاء لذى ضنى وسقام

وقال في أحتفال مدرسة جامعة المحبة للبنات سنة ١٧/١٠/١٩١٣:

هل ذا نشيدم أم ترنيم أملاك؟ وذا خطابك أو ما الله أملاك؟

وهل حبانا بهذا الوشى مقتدر؟ من حاكة الغرب أم ذا صنع يمناك؟

إن فقت يا ابنة رمسيس فلا عجب عن أمهاتك في طيبا وآباك

كم شدت في مصر صرحاً للرقي وما علياء غيرك إلا بنت علياك

لئن رأيت فتاة الغرب عنك علت جداً وفاقت مزاياها مزاياك

كم مبطء نال بالإدمان غايته فعز مسعاه عن نيل وإدراك

وعَوْد مجدم ميسور بأكمله لمن على المنهج المأمون رباك

جدى فلو باعتدال دمت راقية لسوف تحسد بنت الغرب مرقاك

جدى افاد بك المولى وأولادك فما أحقك أن ترقي وأولاك

فكم عركت بجنبيك الأذى ولكم نزجي الأسى نحن لكن فيه نلحاك

وكم صبرت على الهجران مغضية ... لم تسألي لم لا بلا ذنب هجرناك

وزدتنا يوم فحصك تر ... حيباً ونحن من الهجرام زدناك

مهلا فما أستدعت الترحاب همتنا ... بل حقه لك منا حيث نلقاك

بل لو غدا الباب عنا اليوم ممتنعاً ... ما عابنا السمع من طاق وشباك

حتى نرى عن يقين هل هديت إلى ... أجلَ قصد له الرحمن أحياك

إن لم تكن بلغت ذا الحد غيرتنا ... كنا ألد عدا مصر وأعداك

أليس عاتقك الواهي إليه يعو ... د حمل أعبائنا يوماَ وأعباك

لله أم عطوف في اسمها نظمت ... ما قد تفرق في مألوف أسماك

كم مشبه لك فاضت بالمحبة كابـ ... ـنة أخت وأم نحو قرباك

لكنَّ نسبة هذى الأم «جامعة » ... من «المحبة» معنى فاق معناك

تغذو عقول يتامانا بلا عوض ... وما تعدى غذا أبناك ثدياك

حشاك ما عشت أن تنسى مودتها ... فلست ممن يعوق الأم حاشا

قد زار اليوم قوم لا يطيب لهم ... مثل التحدث في مأنوس أنباك

يروقهم أن يروك اليوم فائزة ... كما يروقك يوماً فوز أبناك

لحسن مرآك يصبو العض جهدهم ... وربما فيه بلواهم وبلواك

لكن محبيك حقاً ليس يشغلهم ... اوصاف حسنك عن آيات حسناك

ولا يشينك نقص المال عندهم ... لكن يشينك نقص في سجاياك

فخير قومك من راسوك فاضلة ... لا مَن غناك أرادوا أو محياك

حاجات عصرك لا تحصى كفاك إذا ... ***

وخير حاجك نفعاً حسن تربية ... فازت بأنفعها في مصر كفاك

هل هو قومي سبق أختك في ... لمن رزقت وتدبير لمغناك

صبراً وإن يك مطوياً على جزع ... نعمى المعارف فأهتموا بنعماك

صبراً عسى نهضة لاحت طلائعها ... عسى بعقباه نجزي حسن عقباك

صبراً عسى نظرة مالغيث نرقبها ... تسري فيحمد بالإصلاح مسراك

سراة قومي ارفعوا شأن الفتاة نتكـ ... ممن بهم نيطت الآمال ترعاك

فتانكم أصبحت والحاج تعوزها ... ـفوها مصائب منها قد بكى الباكي

فإن عهدتم بإصلاح معاهدها ... تحكي الأسيرة قد شدت بأشراك

لله كلية كاد الفقير بما ... تنشط وتصبح مناراً وسط أحلاك

فليت أيديكم يوم النداء لها ... له يشيد منها كل مدماك

لو رد لي زمني عهد الشبيبة يو ... تندّى فتنسخ ذكرى كل إمساك

زان جيدك مني كل جوهرة ... م الشعر دأبي وتحلو فيه ذكراك

فيا شباب تولوا نصر أختكم ... عصماء يبدي سناها صدق دعواك

لا ترتجوا الأجر من أيدي الأنام ولو ... كلاكما فرع مصر الزاهر الزاكي

قّدْكم جزاء ضمير مادح ورضى ... كانت نصائحكم أقطاب أفلاك

وهو الجزاء الذي ما أنفك يؤثره ... مولى درى حجة المشكو والشاكي

ذو عفة وحجى سام وإدراك

وقال تحت عنوان «الأم الفاضلة» سنة ١٩١٢:

يا طلعة ليس لي في غيرها أربُ ... لولاك كما كان لي أنس ولا طربُ

سناك لا في الضحى شمس تقاس به ... عندي ولا في الدجى بدر ولا شهب

حكى البهاء الذي عاد الكليم به ... من قمة الطور قدما وهو منتصب

حكاء طهراً ولكن ذا تقر به ... عيني وناظر نور الطور يرتعب

علام أثني وهل تحصى صفاتك أو ... يفي الثناء سجايا كلها عجب

على حنانك أم إنكار نفسك أم ... على يد لا تداني جودها السحب

على اصطبار وتسليم ومغفرة ... على التلطلف في إرضاء من غضبوا

على السهاد وعين الكل مغمضة ... على ظهور الرضى والقلب مضطرب

على أعتناء وتدبير وتربية ... على العزاء لمن خابوا ومن نكبوا

على أهتداء عقوق كم بسطت له — كفيك ضارعة والدمع ينسكب

فصار براً ولكن في الشباب قضى — من بعد ما تك فيه اللطف والأدب

الله حسبك يا ذات الحنان فلن — يضيع ما كان عند الله يحتسب

لله حبك ما أصفى موارده — والحب في الناس ممذوق ومنقلب

لو كان في المهد هذا الحب خير حمى — وهو الذي دام يهديني لما يجب

نحو الداية كم دارت بمجتمع — رحى الحياة ودلت أنك القُطُب

لكن قلبي الذي يأبى الهدى وإذا — للشر تجذبه الأهواء ينجذب

كم كاد منصرفاً بي عن هداه وكا — د حبل بودك بالعصيان ينقضب

مذ كنتُ طفلا تعلمتُ التبسم من — مرآك باسمة لي حين أكتئب

فكرري اليوم هذا التبسم كي — تحيى فؤاداً لنيل الصفح رتقب

ودمتِ فينا مفدَّاة مكرَّمة — يُهدَى إليك الثنا ماكرَّت الحقب

وقال يرثي عطية وهبي رئيس جمعية التوفيق القبطية سنة ١٩١٣:

تبكي الشبيبة قد أصيب إمامها — وتنكست لمصابه أعلامها

سل فتية التوفيق كيف توفقت — ف عهده وتحققت أحلامها

تبكي الأسيفة أمة الأقباط من — ثكلته وهو نصيرها وغلامها

آماله انقطعت نهار وفاته — وبذى الوفاة تواصلت آلامها

ما تلك أول نكبة نكبت بها — ولئن تلظى في القلوب ضرامها

فكم ابتلتها النائبات بمثلها — كم مثله أخنى عليه حمامها

أسفاً عليها أمة قد فوجئت — برحيل نفس يستحب مقامها

**

أكذا يغيب البدر ليل تمامه — ويصاد من أحيائها ضرغامها

وهل السما تهوى كذا أجرامها والأرض تهبط في الثرة أعلامها

يا مبكياً عين الرياسة بعده وله عنا بعد الجموح زمامها

من للرياسة يوم تعترك الشئو ن وبالكياسة يرتجى إبرامها

من ذا يقود إلى الصواب يراعهم كيلا تطيش من القسى سهامها

إلا نصائحك التي أعتصموا بها وجرت على سنن الهدى أحكامها

فأرحل كما رحل الربيع مخلفاً خِدَماً يفوح من الزمان خزامها

-٣-

"نصر لوزا الأسيوطي" ١٨٨٧

يعتبر نصر لوزا الأسيوطي أعظم شعراء الطائفة القبطية، وأبرع من نظم القريض من أبناء النصارى في الديار المصرية. وهو لسان المسيحيين الناطق، وقلبهم الخافق، والمترجم عن آمالهم، والمتغني بمفاخر أسلافهم، والمعبر عن مشاعرهم الدينية وعواطفهم المسيحية، وعقائدهم النصرانية. والداعي إلى تخفيف آلام فقرائهم والإحسان إلى بؤسائهم. ولو كان الأقباط يهتمون بالأدب لكتبوا شعره بماء الذهب ولعلقوه على الجدران، ولزينوا به الحيطان. ولجمعوا له الجوع، وأوقدوا له الشموع، فهو يسوع شعرهم الذي لا يباري، وينبوع أدبهم وإنه لا يجارى. ولو تبرع كل قبطي بنصف مليم لأمكن إخراج ديوانه في أحسن تقويم.

ولد نصر لوزا بمدينة أسيوط سنة ١٨٨٧ م ودرس بكلية الأمريكان بها وأنتهى من دراسته سنة ١٩١٠ وكانت العلوم كلها تدرس باللغة الإنجليزية ما عدا اللغة العربية. وقد نشأ منذ صباه ميالا إلى الشعر فقرأ بعض دواوين كبار الشعراء القدماء. وحفظ لامية العجم للطغرائي هو في العاشرة من عمره.

ثم حضر إلى مدينة القاهرة وأشتغل محرراً بصحيفة النظام لصاحبها محمد مسعود ولكنه لم يبق بها سوى شهور قلائل إذ أنه أصيب بمرض اضطره إلى العودة إلى أسيوط حيث أشتغل مدرساً للغة العربية.

وفي سنة ١٩٣٦ عين بتفتيش إنتاج أسيوط وبقى إلى أن بلغ الستين من عمره سنة ١٩٤٧ حيث ترك خدمة الحكومة.

***

وقد أصيب الشاعر بوفاة أمه سنة ١٩٤١ فرثاها بقصيدة طويلة جاء فيها:

أقول لمنْ أمي سواك أيا أمي … وأشكو لمن شَفَّني فيك من غمّ
ومن لي بقلب مثل قلبك مشفقٌ … إذا مسَّني همٌّ تمزَّق منْ همَّ
جرَعتُ عليك الحزن صابا وإنه … لأفتكُ بالأحشاء من ناقعِ السمّ
لقد مت من شوق فهل منك نظرةٌ … إلىَّ تردُّ مني إلى الجسمِ
أطلتِ على ابنيك البعادَ ولم يكن … ليعهد منك البعد «نصر» ولا «فهمي»
أهانَ علي اليوم أن تتركيهما … من الوجد والبلوى غريقين يمّ؟!
على الرغم من قلبي إليك عتابه … فما كان منك البعد إلا على الرغم
سَلي كبدّيْنا من هوّى كيف ذابتا … عليك نجيعاً من محاجرنا يهمي
من الأب ذقنا اليتم قدما وإنما … بظلك لم نشعر صغيرين باليُتمِ
مولهة إن تحلمي الليل لا ترَىْ … إلا وحيديك الحبيبين في الُحلمِ
فلم ينقطع ذكراهما عنك لحظة … ولم تطربي في العيش كاسميهما لاسمِ
بذلت قصارى العزم جهداً عليهما … فنلت المنى محمودة الجهد والعزمِ
وعبَّدْت والأيام حالكة الدجى … مسالك بيضا في حوادثها الدُّهمِ

ومثلـــتِ أدوارَ الأمومـــة كلهـــا		منـاظر عطـف لمـم يُمَـثَّلْنَ مـن أمِّ

***

مضـى حـافلا بـالخير عمـرُكِ طـائلا		مبـارَك مـا بَـينَ البـدَاءَةِ والخَـتمِ

صبوتِ إلى الإيمان والزهد ما انقضى		لك العمرُ إلا في الصلاةِ وفي الصومِ

تنعَّمْـتِ فردوسـاً بفـردوس ربنـا		بما شئت من ربحٍ مقيمٍ ومن غُنمِ

وعوَّضـتِ عـن وْهـمِ الحيـاة حقيقـة		غنيتِ بها في الخلدِ عن عالم الوهمِ

نظمـتُ دمـاء القلـب فيـك مراثيـا		بأمثالهـا ضَـنَّتْ يَـدُ النثـر والـنَّظمِ

عليـكِ سـلام اللهِ أمَّـاهُ مازَهـا		نهـار بشـمسٍ أودجـا الليـل بـالنَّجْمِ

وهذه القصيدة تمتاز بصدق العاطفة وخالص الوفاء والبر وحب الإبن لأمه التي سهرت على تربيته بعد وفاة والده.

وفي سنة ١٩٤٥ أصيب الشاعر بوفاة زوجته «نرجس» فبكى عليها بكاء مراً، ونظم في رثائها جملة قصائد، منها قصيدة تحت عنوان «وازوجتاه» نشرها بمناسبة مرور عام على وفاتها، ومما جاء فيها:

عـودي لزوجـك بعـد طـول فـراقِ		يخمـدْ سـعير فـؤاده المشـتاق

ما أستطعت حمل نواك باللُّقْيَا فهل		أسْـتطيعُ أحملـه بغيـر تـلاثِ!؟

الخطـبُ أرْهقنـي فكـدتُ وجيعـة		وجـوَى أروحُ ضـحيةَ الإرهـاقِ

والهـفَ قلبـي إذا سـبقت ولـم أكـن		لـك ا مُنـى الأيـامِ بالسَّـبَّاقِ

تمضـي السـنون وجـرح قلبـي المْبتَلى		بنـواكِ مُنَفَغِـرٌ كمـا هـو بـاق

مـا مـدمعي مـاء يسـيل عليـك بـل		هو من خشاىَ، من الدمِ المهْراقِ

صـور الحيـاة جحـدتُ إلا صـورةً		لك في الحشا منىَّ وفي الأحداقِ

سَـمُّ المصـابِ سـرى بجسـميَ مالـه		إلا ابتسـامة فيـك مـن تريـاقِ

أتراك عالمة بحالي بعد ما ... عجز الطبيب بها وحار الرَّاقي؟!
بالله قومي أدركيني إنني ... بِضنى النوَى في آخر الأرماقِ
أثنين ما كُنا ولكن واحدا ... عشنا بظل محبة ووفاقِ
ذُقنا المنى والأنس والنُّعْمَى به ... من عذب كأسٍ بالغرام دهاقِ
حتى تفرّقَ شملُنا والهْفَتِي ... بغراب شؤمٍ بالنوَى نَعَّاقِ
ما أنت يا قلبي أتخفقُ بعدما ... أودي الحِمامُ بإلفكَ الخفَّاقِ
حتَّام بالشكوى تدق وبالأسى ... لا كنت بعد الحبَّ بالدقاقِ
أبكي شبابك مثل روض ناضرٍ ... بشذا المنى يا نرجس عَبّاقِ
أبكي خلائقَ نادرات فيك قد ... كنَّ المثالَ لِقدْرة الخلاقِ
أبكي محاسن فيك من قمر الدجى ... أزهى سناً في الهَدْى والأشراق
حزت النفيسين اللذين براهما ... باريك من خلق ومن أخلاق
حملوا الكمال مجسما والحسن إذ ... حملوكِ في نعش على الأعناق
وتساءلوا هل غيبت شمس الهدى ... صبحاً من التَّوْاري في أطباق
سُحقاً أيا عام الأسى لك غُلْتني ... في نرجسي بقضائك السَّحَّاق
هل أنتَ عام أم جحيمٌ أن رَحَى ... نارٍ تدور عليَّ بالإحراق؟
أم أنتَ صاعقةٌ نزلت بحادث ... جللٍ عليَّ مُروِّع صعاق؟
أم أنت طمٌّ حوادث زخارَّة ... تطغى عليَّ بلجة الإغراق؟
أم أنت عزريل لروحي قابض ... بيد الشقاء معاول الإزهاق
أيحد أحزاني الزمان ونكبتي ... من غير حد ترتجى ونطاق
فأبكي بكائي يا كواكب وأندبي ... قمري أصيب من الردى بمحاق
يا أم «ناجي» أو «سمير» بنوك في ... حلم من الأحداث غير مطاق
يا خير أم هل بطوقك تركهم ... عانين ما شبوا عن الأطواق
يا طول شوق بنيك محرومين يا ... أماه منك لقبلة وعناق
يا طول شوقهم لصدرك حانياً ... بالحب والتدليل والإشفاق

لاقيــت مــريم أخــت مــريم فــأنعمي بأجـــل خالـــدة وخيـــر تـــلاق

يُعرَى الصراحة والهدى أستمسكت في زمـــن بِغِـــيّ مفعـــم ونفـــاق

مـــن كـــوثر الخلـــد أحتســيت وإنمــا من علقـم البلـوى سـقاني السـاقي

جـددت فـي الخلـد الحيـاة وأخلفـت عمــري الفجيعــة أيمــا إخـــلاق

لـــك أغـــدق الله النعـــيم جـــزاء مـــا لــك كــان للمعــروف مــن إغـداق

هيهـــات أرضـــي الصـــبر لـــولا أننـــي بـك فـي الفـرادس لـي أعـز لحـاق

فمتـــــى أرك فتســـــتقر خـــــواطري وأبثــك المــأثور مـــن أشـــواقي؟

والقصيدة كلها تزخر بالحزن وتفيض بالأسى وتصور الحالة المؤلمة للشاعر، والصدمة الموجعة التي صدمته بوفاة زوجته. فأخذ يبكي وينوح ويندب حظه وحظ أولاده الصغار الذين حرموا عطف أمهم وحنانها. وأشاد بالذكريات الجميلة، والأيام السعيدة التي مرت بهما، وما كانت عليه زوجته من محاسن الأخلاق، وما ساد بينهما من وفاق، وما تمتعا به من حياة طيبة قوامها الحب والإخلاص والوفاء.

***

وقد أثرت هذه النكبة في صحته فأخذ يشكو مما يعاني من الآلام، وما ألم به من الأسقام التي أنحلت جسمه وأنهكت قواه. قال:

أيُعَيّـــــدُ فيـــــكَ أخـــــو هـــــم مقـــــروح الجفـــــن مســـــهدُهُ

نِضْـــــوٌ كخيـــــال هيكلـــــهُ لا تعرفـــــــه إذ تشـــــــهدُهُ

فقـــد الأنفـــاس ســـوى نفـــس بزفيـــــر الشـــــوق يـــــرددُهُ

خـــاض الأهـــوال طغـــت بحـــراً مَرْغـــــيّ الـــــدمع ومزبـــــدُهُ

حمــل الأحــداث أخــا جَلــدٍ		يــوهي الأجبَــالَ تجلُّــدُهُ
جَمْــرٌ فــي المهجــة لــيس لــه		يــا رب خلافــكَ يُخْمِــدُهُ

وقال:

دهتك بنات دهرك يا ابن جنبي		بما يـوهي مـن الظهـر الفقـارا
فيالــك واهيــاً لأقــل شــيء		تـذوب جـوى وتخفـق مستثارا
أحمَّـال الحمـول صـبرت حتـى		طغـى بركانهـا العـاتي وثـارا
لقيـتَ الضـير مـن ذكـرة حمـول		يعـزُّ علـى هـواهم أن نضـارا
بكـوثر حـبهم قـد كنـت تـروي		فيالـك روضـة حالـت قفـارا
فلـم تـرهُمْ سـوى أطيـاف نـوم		ولست كما عهدت ترى الديارا
تهـيم بـزورة فـي الحلـم مـنهم		وتـأبى مـن سـواهم أن تـزارا
غداً بجوارهم في الخلد تحظي		وما أحلى حمى الفادي جوارا
يكفكـف مـن عيونـك كـل دمـع		ويخمـد نـار وجـدك والشـرارا

ومنذ أن ماتت زوجته سنة ١٩٤٥ لم يعد الشاعر ينظم إلا في الأغراض الدينية كعيد الميلاد، وعيد القيامة، وعيد النيروز. ثلاث قصائد ينظمها كل عام في الأغراض المتقدمة وينشرها في مجلة «رسالة المحبة».

مختارات من شعره

-١-

قال في الأحتفال السنوي لمقتل بطرس باشا غالي سنة ١٩١٢:

مـا للجمـوع حيـال القبـر تـزدحم؟ هل ساقها مأرب في ذاك أم قسم؟
أم ذاك حـج، نعـم شـدوا رحـالكم هنـا الشـهيد وهـذا قبـره الحـرم
هنا العظيم، هنا «الغالي» الذي شهدت بجـل أفعالـه الأفـراد والأمـم
تمضـي العظـام ويبقـى بعـدها أثـر كـذاك آثـارك الأمجـاد والشـيم
كـم مائـت ظهـرت مـن فعلـه همـم وعـائش مـا لـه فعـل ولا همـم
ميـزان كـل المـلا للحكـم منتصـب فـي كفتيـه مقـام النـاس والقـيم
بعـض لهـم حسـنات يـذكرون بهـا وآخـرون لهـم مـن فعلهـم نـدم
اليـوم نـذكر فـرداً كلمـا ذكـرت أعمالـه عنـت الأعنـاق واللمـم
صـنيعك الجـود فينـا غيـر مـنكم وهـل سـناء شـعاع الشـمس يـنكّم؟
متعـت فـي جنـة الـرحمن فـاقض بهـا حقـاً عليـك ففيهـا تصـدق الـذمم
عامـان مـرَّا علـى الآفـاق وانصـرما وذكـركم لمـدى الآبـاد منـتظم
ذكـر كحـظ الضـحى والشـمس طالعـة كأنـه بـين أربـاب النهـى علـم
حاشـا لشـعري أن يحصـى مناقبـه في حصرها يخطيء القرطاس والقلم
أسسـت جمعيـة خيريـة وكفـى بهـا فخـاراً فمنهـا تنبـع الـنعم
كنـت السـراج وكنـا نستضـيء بـه إذا أدلهـتْ أمـام الأعـين الظلـم

يـا غـالي القـدر أوليـتَ الجميـل لنـا ... نعم الجميل الذي في القلب يبتسم
لـم نـنس معروفـك الميمـون طالعـه ... وصـاحب الفضـل محبـوب ومحتـرم
الله أكبـر مـا هـذا الضـجيج ومـا ... لهـذه النـاس فـوق القبـر تلتـئم؟
جـاءت إليـك لتقضـي حـق زورتـه ... وللزيـارات حـق لـيس يهتضـم
يـا قبـر إن جـاءك المشـتاق مبتغيـاً ... منـك السـلام ودمـع العين منسـجم
رد السـلام سـقاك الغيـث وابلـه ... إن كـان يعييـك فـي أركانـه الكلـم
مـن للمسـاكين يعطـيهم مـآربهم ... مـن للجيـاع إذا مـا مسـهم ألـم
مـن للفقيـر صـديق واليتـيم أب ... مـن للحزانـى إذا يبكـون مـن لهـم؟
أنـت الـدواء لـداء البـؤس تبرئـه ... وأنـت غيـث ونـار الفقـر تضـطرم
وكنـت إن فهـت بـالأقوال غاليـة ... تسـاقطت كثمـين اللؤلـؤ الحكـم
كـم أمَّ بابـك محتـاج ومبتـئس ... كم فاض من راحتيك الجود والكرم
يـا مُسْـبِغَ البـرَّ إحسـانا وتكرمـة ... إنَـا لسـان وأيـام الزمـان فَـمُ
كانـت تضـيق بـك الـدنيا علـى سَـعةٍ ... فكيـف ضـمَّك لحـدٌ عَرْضُـهُ قـدَمُ؟
كـأس المنِيَّـة حـول الخلـقِ دائـرةٌ ... لا الطفل من شر بها ينجو ولا الهرمُ
وضـيغم المـوت يعـدو ثـم يلحقنـا ... ولـو أحاطـت بنـا الآجـام والأكـمُ
الـدهر كالسـيف يبـدي ضَـوْء شَـفرتهِ ... كـيْ يخلـب الطـرفَ حينـا ثـم ينـتقم
أيـن الملـوك الألـي سـادوا بحـزمِهم ... أيـن السـلاطين والأبطـال أيـن هـم؟
مَضَـوْا ولـم يتركـوا إلاَّ فعـالهم ... كـذلك المـرء بالأفعـال يَحـتكمُ
والمـرء إن عـاش فـي الـدنيا بـلا أمـل ... لَكـلُّ عـامٍ مضـى مـن عمـره عَـدَمُ

جسـم الفتـى للثرى والـنفس خالـدة ... فاعمـل لنفسـك إن الجسـم منصـرم
الـدِّينُ أول شـيء صـان صـاحِبهُ ... يـا حبَّـذا مـن بحبْـل الله يعْتصـمُ
يـا بطـرس أمكـتْ جـوار الله إن لنـا ... مـن الـوداد قلوبـا لـيس تـنفطم
هـذى كنيسـتك الغـرَّاءُ زاهـرةٌ ... يتلـو الصـلاةَ بهـا البطريـقُ والخـدمُ
تـدْوِى نواقيسـها فيهـا فيسـمعها ... مـن هيبـة الله مَـن قـد مسَّـهُ الصَّـممُ
جبريـل بالبـاب والأمـلاك صـاغية ... إلـى العبـادة إذ قـد هزهـا القـرم
والنـاس فـوق أديـم القبـر خاشـعة ... هنـاك كـل فـؤاد مُطـرِقٌ وجِـمُ
فارقـد فمِصْـرُكَ لـن تنسـاك مـا رَوِيَـتْ ... بالنيـل أو عـلا فـي أُفْقِهَـا الهـرَمُ

-٢-

العلم والبلاد

تليت في حفلة جمعية الراعي الصالح القبطية سنة ١٩١١

يـا مصـر إنـك جنـة الأمصـارِ ... يسـقيك نيـل سَـيِّدُ الأنهـار
يجـري بمـاء كـالزلال علـى الرُّبَـى ... ويفـيضُ فيـك بمَسْـجَدٍ ونُضَـار
يا مصر إني قد وهْبتُ لكِ الحشاَ ... يـا مصـرُ حبُّك مـذهبي وشعارِي
كـم قـد نظمت لـك القـريض وإنها ... أشـعار ذكـرك أحسـن الأشـعار
إنـي لأطـرب إذ أراك سـعيدة ... بـين الـبلاد بعـزَّةٍ وفخـارِ
وأرى بَنيـكِ علـى السـلام تحـالفوا ... وأرى ديـارَكِ خيـرَ كـلَّ دِيـار
وأرى لـواء العلـم يخفـق بيننـا ... ويلـوح للأوطـان والأمصـار
هـذى أمـانيّ الكبـارُ وأنهـا ... ليسـت علـى نيـل المنَـى بكبـارِ
يـا مصـرُ لـم يبـق الزمـان لنـا سـوى ... جـزء مـن الآيـات والآثـار
النـاس تفتخـر بـالعلوم وبـالنُّهَى ... وبنـوكِ بـالأطلال والأحجـار
حدت شعوب الأرض عصر سعودنا ... واليـوم نحسـد سـالف الأعصـار
دارت كواكـب مجـدنا وتحجبَّـتْ ... وكـذاكَ شـأنُ الكوكـبِ الـدَّوَّار
العمـرُ يَمضـي كالخيـال وينقضـي ... وتـدوم بعْـداً صـفحةُ الأعمـار
فتمكنـوا يـا قـوم مـن تخليـدها ... بالصـالحاتِ وطيَّـبِ الأفكـار
هـذى حيـاةُ الخلـق سـائرة علـى ... قـدَمين مـن ليـل الـدُّجى ونهـار

فـالحر مـن لـم يغتَـرِرْ بنعيمهـا فنعيمهـا كـدّرٌ مـن الأكـدار

الكـون سـفرُ علومنـا وسـطورهُ مـن روضـهِ وجبالـهِ وبحـار

فتـأملوا فـي ذي السـطور فإنهـا لسُـطورُ سـفر الواحـد القهـارِ

الشـمس تخبـر عـن بـديع فعالـهِ بجميـل مـا تُبْـدِي مـن الأنـوار

والبحـر والبـرُّ العظـيم ومـا حـوَى مـن آهـل وفدافـدٍ وقفـار

-٣-

على سفح الأهرام سنة ١٩١٢

شخصت إلى الأهرام والقلب خاشع ... وللنفس شوقٌ نحوها وهُيامُ

فقلت لها عند اللقاء مُرَحِّباً ... سلامٌ على أهرام مصر سلامُ

علتْ مثلما الجوزاء في الأفق تعتلي ... وحيث مكان ثَمَّ ليس يُرامُ

فلم تَمْحُها الأجيالُ وهْيَ عديدةٌ ... ولم تذْرها الأهوالُ وهْيَ جسامُ

وباتَ لها بين التواريخ في الورى ... على رغم أنفِ الحادثات دوَامُ

شَمَخْتَ على بطش العصور وهكذا ... تشامخ أقوام بَنَوْكِ كِرامُ

فراعِنَةٌ لم يُنْجِبِ الدهر مثلَهُمْ ... لهم في حِمَى الذكر الجميل ذِمامُ

إذا جلسوا فالخيرُ يجلس ماثلا ... وإن وقفوا فالنائباتُ قيام

فمثل عُلَا الأهرام لم يبن يافِثٌ ... ولم يقتدرْ مثلَ الفراعِنِ حامُ

وقفتُ عليها لا أودُّ فِراقها ... إلى أن محا نورَ النهار ظلامُ

وبان لنا بدر الدَّجْنَّةِ ساطعا ... يُرينا ضياء الوقت كيف يُسامُ

تعلمت من صمت الحجارة عبرةً ... كأن السكوتَ المستديم كلامُ

كأني من فرط المهابةِ عابِدٌ ... أمام من الخر الأصمَّ إمامُ

أفدت أيا أهرام في النصح إنني ... لدرسكِ تلميذ هنا وغلام

فما كل من يُهدي النصيحة ناصح ... ولا كل غيم في السماء جَهامُ

وقفا أجيل الطرف في عرصاتها ... وقد سرني بين الصخور مَقامُ

فلله ما أحلى الوقوف بأربع ... طوى أهلها تحت الرموس حِمامُ

تذرت منها منفتاح وجيشه ... وخوفو وأبناءُ العظام عظامُ

وجال بفكري رعمسيس وغيره ... فراعنة لم يذمموا ويضاموا
إذا ذكروا يوماً أشارت يد العلا ... إليهم وخرَّت في الوجود لمـاَمُ
وإن ذكروا يوماً فإن بمثلهم ... بطون نساء العالمين عقامَ
وإن ذكروا يوماً فإن لذكرهم ... سُجود جيمع السامعين لِزامُ
وإن ذكروا يوماُ فإن قلوبنا ... تحن إليهم والحنين هيام
وإن ذكروا يوماُ فإن مديحهم ... بكل لسان مبدأ وختام
وإن ذكروا يوماً فمن فرط مجدهم ... وهيبتهم صلى الأنام وصاموا
أولئك كانوا للزمان مناره ... وها همْ بأجواف التراب نيامُ
فلم تبق إلا في التراب جماجمٌ ... ولم تبق إلا في التراب عِظامُ
رغام إليه الناس سارت بأسرها ... وأصل جميع العالمين رَغامُ
فكم في دجى الأجداث حي بفعله ... وكم بين أحياء الحياة رِمامُ
أيا هرمَيْ مصر العزيزة إننا ... أتانا ممات في الوجود زؤام
أتفتخر الأجداد بالعلم والنُّهى ... ونحن على طول السنين نُضام؟
فكم وطئت أرضيكما أرجلُ الملا ... وكم راقهم من ذي الأكام أكامُ
كأن ثَرى الأهرام تُرْبٌ مقدسٌ ... حواليْه من كل الشعوب زحامُ
يؤمُّونه من كل فجٍّ وجوههم ... عليهم من فرط الحياءِ لثامُ
يحجون أرضاً أصبحت بك كعبة ... كأنك بيت للحجيج حرامُ
لك الله من فخرٍ لمصر كأنه ... على صدر أسرار الفخار وسامُ
فللنفسِ يا أهرامُ مصرَ كما أرى ... إلى سلسبيل المكرُمات أُوامُ
فطمنا النفوس العاثرات عن الهوى ... ولا بد أن يُجدي النفوس فِطامُ
تمنيت لو طال الوقوف حيالها ... ليُسْعِدَنا من ذي العظات مرامُ
ولو أنني عُيَنْتُّ بالقُرْب حارساً ... تضم خُطامي في الفلاة خيامُ
أقول لحادي الإبل أَرخ زمامها ... وهيهات أن يُرخَى لهن زمامُ

يَســـــرن إذا أبصـــــرتهن بســـــرعة كـأن النَّقـا مَرْمًـى وهـن سَـهامُ

فلمـا هممنـا بـالقُفول إلـى الحمـى شَخَصْتُ وفي طيَّ الفؤاد ضرامُ

وأنشـــدتها بعـــد التحيـــةِ قـــائلا سـلامٌ علـى أهـرام مصـر سـلامُ

-٤-

"فرنسيس العتر" ١٨٨٢

ولد فرنسيس العتر بدرب الجنينة بحي الأزبكية سنة ١٨٨٢ يمنزل والده القمص بطرس العتر. وبعد أن تلقى مباديء القراءة والكتابة في أحد الكتاتيب درس اللاهوت فحصل على شهادة اللاهوت والفلسفة سنة ١٨٨٦، وأجاد اللغة القبطية إلى جانب اللاتينية والفرنسية.

ثم تردد على حلقات الشيخ محمد عبده التي كان يعقدها مساء كل يوم بالجامع الأزهر وذلك سنة ١٩٠٢.

وأشتغل بالتدريس في عدة مدارس أجنبية. وبدأ ميله إلى نظم الشعر في الأغراض الدينية فنظم كثيراً من الأناشيد والتراتيل التي يترنم بها الأقباط في الكنائس. ومن قوله في مدح الأنبا لوكاس مطران قنا سنة ١٩١٢:

مـــلاك الـــرَّبِّ فـــي أفـــق التهـــاني ... ينــــــادي بالمســــــرَّة والرفــــــاء

ومنها في مدح المطران المذكور:

تحلـــى بـــالعلوم فكـــان نـــورا ... تنـــار بـــه قلـــوب فـــي عمـــاء

تنـــزه عـــن عيـــوب الخلـــق طـــرا ... فحقـــاً لـــيس مـــن طـــين ومـــاء

مكارمـــه علـــى الأقبـــاط تحصـــى ... إذا أحصَـــوْا كواكـــب فـــي الســـماء

إلـــــه العـــــز أعطـــــاه مزايـــــا فـــأحرزن الســـنا مـــن ذا العطـــاء

ومنها:

كـــرازة مـــرقس ازدانـــت ببـــدر زهـــا فيهـــا فـــأبهر كـــل راثـــي

كـــرازة مـــرقس ظلـــت قرونـــاً تنـــوح علـــى بنيهـــا الأوفيـــاء

إلـــى أن جاءهـــا أنبـــاء لوكـــاس فعـــاد زمـــان ســـكان الفـــلاء

أعـــاد بطهـــره التقـــوى فكانـــت ســـراجاً ات يضـــاهي فـــي الضـــياء

وأرجـــع بالنشـــاط العلـــم حتـــى تـــوارى الجهـــل فـــي طـــي الخفـــاء

فيـــادار افرحـــي فرحـــاً عظيمـــاً فقـــد شـــرفت فـــي هـــذا المســـاء

نـــنعم شـــرفت يـــا دار بحبـــر يـــولي شـــعبه خيـــر الـــولاء

تنـــاول ذا العظـــيم وحـــل فينـــا كمـــاء فـــاض فـــي أرض خـــلاء

ومنها:

وهـــذا اليـــوم ضـــم مـــع الأخـــلاَّ سَـــراةَ القـــوم مـــن نُـــدُسٍ وطـــائي

رءوس كلهـــم لا عيـــب فـــيهم ســـوى الإقـــدام ســـاعة الأقتضـــاء

يلبـــون النـــداء بـــلا تـــوان وخيـــر الفضـــل تلبيـــة النـــداء

شـــذاهم عطـــر الأرجـــا وأمســـت بهـــم ذي الـــدار تـــزري بالســـماء

فيـــاربي أدمهـــم فـــي صـــفا وامـــ نحـــنَّ لوكاســـنا طـــول البقـــاء

وأبـــق لمـــا كرلســـنا ليحمـــي الــــ ـــكرازة مـــن فخـــاخ ذوي الريـــاء

ووحــد قــبط مصــر يــا وحيــداً وأنهجهـــم منـــاهج الأرتقـــاء

لتجــذل بنــت صــهيون وتشــدو بمجـــدك فـــي ابتـــداء وانتهـــاء

وقال في مدح المطران المذكور:

هــذا الــذي أسـر القلـوب بلطفـه مَــنْ أَمَّـهُ أمِــنَ النوائــب والعنــا

لوكـاس رب الفضـل مـن عـزت بـه أعلـى الكنـائس وهـي واسـعة البنـا

مطراننــا لا ريــب بحــر علومهــا وبعلمــه قــد بلغــت فــوق المنــى

أبقــاك رب العــرش ربــي دائمــاً مــا زالــت الأنــوار تزهــو فــي قنــا

وقال يرثي يوسف سليمان باشا سنة ١٩٣٩:

رمـز المكـارم قـد غـدا تحـت الثـرى فصــفاء مصــر عليــه حــال تكــدرا

ذاك الـــذي بلـــغ العنـــان بحبـــه لله والأوطـــان وأحتـــل الـــذُّرَى

ولَّـــي فألبســـنا الأســـى مـــن بعـــده ولـي ففـاض الجفـن دمعـاً أحمـرا

أبكـــى بعاصـــمة الـــبلاد كنائســـاً قـــد كـــان فيهـــا حارســـاً ومـــدبرا

مـــن للمجـــالس والمـــدارس بعـــده مـن ذا يلـين مـن النهـى المتحجـرا

مـــن لليتـــامى ولأيـــامي؟ مـــن تـــرى يجلو الـدجى ويصـد خطبـاً قـد عـرا

ولـــي الـــذي زان الـــوزارة حقبـــة وكسـا الكنـائس ثـوب فضـل أبهـرا

ذي بيعـــة العـــذراء تبكـــي فخرهـــا تبكي الذي في الحق كان غضنفرا

وكنـــائس القـــديس مـــرقس كلهـــا تبكــي الــذي وزن الرجــال وقــدرا

النيـــل يبكـــي مـــن بنيـــه ســـيدا آثـــاره وخلالـــه لـــن تحصـــرا

أطفالنـــــا ونســـــاؤنا ورجالنـــــا يبكـــون إحســـاناً وعطفـــاً أوفـــرا

يبكيـــه بطريـــق ومطـــران وقســـ ـــيس وشــعب قــد غــدا متحيــرا

يبكيـــه أقبـــاط وأحبـــاش وقـــد ذرفــت دمــوع المســلمين تحســرا

تبكيـــه أمتـــه الأســـيفة كلهـــا	تبكـــي وفـــاء نـــادراً متعـــذرا

عـــم البكـــاء ذويـــه إذ فـــي غفـــوة	قهـروا فـواروا فـي التـراب الجـوهرا

الكـــل يبكـــي قاضـــياً زان القضـــا	يبكـي الجيمـع العـدل فـيمن أدبـرا

لكنـــــه شـــــغفاً برؤيـــــة ربـــــه	حـث المطـى إلـى العـلاء مبكـرا

فـــي مقـــدس الأبـــرار قـــام مســـبحاً	رب المـــلا مســـترحماً مســـتغفرا

طـــوبي لقبـــر ضـــم جســـم عميـــدنا	قبـــر بـــدا بـــين القبـــور مصـــدرا

طـــوبي لفـــردوس النعـــيم فقـــد غـــدا	بفضـــائل الضـــيف العظـــيم معطـــرا

-٥-

روفائيل نخله

١- موعظة الأهرام

فـــيكنّ قـــد راعتنـــيَ الأجـــرامُ يـا فخـر وادي النيـل، يـا أهـرامُ
لـم نـدر قبلـك أن أكـوام الصـفا ترَقـى إلـى حيـث أسـتقر غمـامُ
لـم نـدر قبلـك مـن رمـوس عواهـل ســتين عامــا شــادها الأقــوام
آلاف آلاف بنـــــوكِ وألحـــــدوا أفنـــتهمُ الأتعـــاب والأســـقامُ
منـك الـرءوس علـى الصـعيد منيفـة حيـث النسـور بملكهـم قـد حـاموا
قرعتـك أعصـار فلـم تلحـق أذى بسـواك جـرَّ َت ضـعفه الأعـوام
مـا حـط مـن عِظَـم يزينـك إنهـا ضربت، فغطى الأرض منكِ ركامُ
هـو منـكِ شـبه قُطيـرة مـن خِضـرَم مهمـا أعتلـت بإزائـك الأكـوامُ
قـا عاصـرتكِ مـن الصـروح بـدائع أخنـى عليهـا الـدهرُ فهـي رَغـامُ
وبقيـتِ وحـدكِ، لا تمسَّـك عاهـة كشــهود عــزٍّ إن يضــع فحــرامُ
حمـل الزمـان علـى جلالـك فـانثنى كــالبحر يُــدْحر موجُــه المقــدامُ
لا مجـد فيـكِ علـى وغـاه حائـل لا عـز فيـك علـى هـواهُ يضـام
فكأنمـا الأعصـار حولـك جُنـدلتْ وبســرّ خلــدكِ مــا لهــا إلمــام
قـد حجك الأوفاد من أقصى رجا يحـــدو إليـــك ألـــوفهن هُيَـــامُ
نظـر الشعوب إلى جمالك خُشَّعا مــن فرطـه قـد ربعـت الأفهـام
وقفــوا حيــارى والعيــون روامــق ولـكِ الوقـوف مهابـة وسـلام
مهمـا سـمت قبـل العيـان ظنـونهم فلـــــــــدي جلائـــــــــكِ؟

أهــرامَ وادي النيــل أنــتِ منــابر فـــــي أوجهـــــا لُسْـــــنُ؟

طفقــت تعلمنـــا بـــدون تكلـــم نعـــم الخطابـــة، فـــالزم؟

أتريـــد تمجيـــد الفراعنـــة الآلَـــي مـــن أجلهـــم تلـــك التلـــولِ؟

لا، بـل تعبّر عُجْب من قد شيدوا أعلـى الجُثـى كـيلا يُـذلّ حِـم؟

قســروا رعايــاهم علــى تشــييدها آلافَ آلافٍ، وهـــم ظُـــلاَّم؟

فنــراك يــا رُجَــم الملــوكِ عظيمــةً أمـا الملـوك فمـن يقـول عِظـامُ؟

نزلــوا إليــك مــن العــروش أذلَّــةً طُرحوا بسجنك حيث ساد ظلام

لـم يحمهـم مـأواك مـن دون البلـى فتشـوّهت مـنهم بـكِ الأجسـام

ودفنـتِ جاهـا كـان يمـلأ قطـرهم ثـم أضـمحلَّ كمـا يـزول منـام

وأحتـل ملكهـم الأجانـب بعـدهم سـلموا سـلالة قـومهم مـا سـاموا

لـم تحتسـب جثث العواهـل حرمـة فأذلهـــا العلمـــاء والحكـــام

قـد أبرزوهـا فـي المتاحف كي نـرى كـــم بالعواهـــل تبعـــث الأيـــام

قومـوا أياشـر الطغـاة، بـل أنطقـوا وليخـــزكم بســـؤالنا الإفحـــام

ألـــذاك ســـخرتم ملايـــين الألـــي بـذلوا الحيـاة وهـم لكـم خـدام

ألـذاك سـقتم شـعب موسـى بالعصـا حـــاديهم الإيعـــاد والإرغـــامُ

أزعمـــتم الأهـــرام حـــرزا شـــائقا فيـــه فخـــار طـــارف ودوام؟

أزعمـــتم الأهـــرام ســـكني رفعـــة هيهـــات أن تتحـــق الأحـــلام

هـــزأت تصـــاريف الزمـــان بعـــزكم وبـه أسـتخف العُـرْب والأعجـام

بـل قـد نفـوكم مـن معاقـل عجبكم ليـــرى نهـــاكم [1] عِلْيـــة وظغـــام

وأخفـــــــــق ســـــــــــعيكم إذ أن مجـد الظـالمين حطـام [2]

---

(١) نهاكم؛ بكسر النون؛ أني نهايتكم.

(٢) حطام الدنيا: خيراتها الزائلة.

طمــــت مراقــــد مــــوتكم عظمت كذلك منكم الأجرام [1]
مـــا عــــزَّت مُنِيــــتم ذلـــة ســـيديمها أخلاقكـــم مـــا دام

٢- غنى، أيا أجراس فصح القاهره

يـوم عيـد الفصـح تزهـو القـاهره مـن فـيض أنـوار الربيـع البـاهرهْ
بقيامــة القــادي تكامــل ســعدها وبـدت بشـارات السـرور النـادرهْ
فســـماؤها زرقـــاء صـــافية خلـــت من دكنة السحب العبوس الماطرهْ
وبهـا علـى شـجر الشـوارع زهـره يحبـو المدينـة بـالحليّ الفـاخره
كـل القلـوب اليـوم تحفـق بهجـة بـألوف دور بنـى المسـيح العـامره
ومئـــات أجـــراس الكنـــائس كلهـــا غنـــت أغـــاني الحبـــور الجـــاهره
قـام المسـيح إلهُنـا مـن مـدفن ألقتـــه فيـــه ذنوبنـــا المتكـــاثره
فـأرى النصـارى كلهـم فـي شخصـه إن الصـليب ينيـل مجـد الآخـره
غنـــى، أيـــا أجـــراس، إن شـــقاءنا درب لأفـــراح الســـماء الطـــاهره
غنـى، يـا أجـراس، أنـت ألـذ لـي مـن أرخـم الألحـان رنّـت سـاحره
غنـــى لوالـــدتي نشـــيدا مطربـــا بجماله تنسـى الكـروب الحاضـره
غنـــى لهـــا فتخـــدري آلامهـــا كـم ليلـة غنـت بقربـي سـاهره
غنـــى لهـــا نَغَـــم الرخـــا فإنهـــا عطشـت إليـه فـي البلايـا الـوافره
غنـــى لهـــا فتـــذكريها ســـنة تجـد السـلام إذا وعتهـا الـذاكره

---

(١) الأجرام: الجرائم.



الفهرس